موريس لوبلان

فريق
متميزون
E-BOOK

أرسين لوبين
ودقات الساعة الثمانية

ترجمة خميلة الجندي

الرواق للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أرسين لوبين ودقات الساعة الثمانية

رواية مترجمة..

موريس لبلان

ترجمة: خميلة الجندي

عن الرواية..

رحلة جديدة يخوضها أرسين لوبين، هذه المرة تحت اسم مستعار: الأمير رِنين، رفقة صديقته الجديدة أورتنس، التي تعرف عليها بعد أن أنقذها من شباك حبيب وهمي. في ثَماني مغامرات يحلّ رِنين حوادث غامضة ويواجه مواقف صعبة، لكنّ قدمه تعلق في شباك حادث من تلك الحوادث، فكَيف يتصرف العبقري الفرنسي الظريف في تلك المسألة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

تلك المغامرات الثمانية حدَّثني عنها أرسين لوبين ذات مرة ناسبًا إياها إلى واحد من أصدقائه هو الأمير رنين. وبالنظر إلى طبيعة المغامرات، وسير أحداثها، والإيماءات التي تشير لبطلها، من المستحيلَ ألّا أخلط بين رِنين وصديقه. أرسين لوبين رجل لا يُصدَّق، سريع في إنكار بعض مغامراته بقدر ما هو سريع في نسبَ بعض مما لم يخُضه إليه. القارئ هو الحكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

على قمة البرج

أشرعت أورتنس دانيل نافذتها إلى النصف، وهمست:

- أنت هنا يا روسيني؟

- أنا هنا. جاءها صوت من بين الكتل الصخرية المتكدسة عند سفح القلعة.

انحنيت قليلًا لتقابل بنظرها رجلًا سمينًا إلى حد ما، له وجه يميل للحمرة، ولحية شقراء تحد وجهه.

قال: إذن؟

- في الواقع، ليلة أمس وقع نقاش مهم بيني وبين عمي وعمتي. رفضا تمامًا التوقيع على المعاملات الورقية التي أرسلها لهما محاميَّ وإعادة المهر الذي بدده زوجي قبل اعتقاله.

- عمك، الذي أراد هذا الزواج، هو المسؤول عن الأمر وفقًا لبنود العقد.

- لا يهم. أخبرك أنه يرفض..

- ثم؟!

- ثم، أما زلت مصممًا على اختطافي؟ قالتها ضاحكة.

- أكثر من أي وقت مضى.

- بكل شرف، لا تنسَ ذلك!

- كيفما تريدين. أنتِ تعين جيدًا أنني مهووس بكِ.

- وللأسف أنا لا أملك أي هوس بك.

- أنا لا أطلب منكِ أن تكوني مهووسة بي، ولكن أطلب قليلًا من الحب.

- قليل؟ أنت متطلب.

- في هذه الحالة، لِمَ اخترتِني؟

- الحظ. شعرت بالملل.. حياتي تفتقر للأحداث غير المتوقعة؛ لذلك أنا أغامر. انتظِر، إليكَ أمتعتي.

وضعت الحقائب الجلدية على حافة النافذة ثم تركتها تتدحرج نحو ذراعَي روسيني.

همست: القدر يفعل كُل شيء. اذهب وانتظِرني بسيارتك عند مفترق الطرق. أنا سآتيك على حصاني.

- مرحى! لكن لا أستطيع اصطحاب حصانك.

- سيعود إلى هنا من تلقاء نفسه.

- ممتاز.. آه! بالمناسبة..

- ماذا هنالك؟

- ما الذي أتى بالأمير رِنين إلى هنا منذ ثلاثة أيام ولا أحد يعرفه؟

- لا أعرف، قابله عمي في أثناء الصيد عند عدد من أصدقائه، ودعاه إلى هنا.

- أنتم تروقون له كثيرًا. أمس قضى معكم نزهة طويلة. إنه رجل لا طاقة لي به.

- في غضون ساعتين سأغادر القلعة في صحبتك. تلك فضيحة ربما ستُبرِّد اهتمام الأمير رِنين، وربما تنهيه تمامًا. ليس لدينا وقت لنضيعه.

لبضع دقائق نظرَت إلى روسيني الضخم الذي كان غارقًا تحت وطأة أرطال الحقائب، كان يبتعد داخل زقاق مهجور، ثم أغلقت النافذة.

في الخارج، بعيدًا داخل الحديقة، صدحت الأبواق النحاسية التي بدت كنباح غاضب مُعلنة عن الافتتاح. بدأ التجمع في الصباح في قصر لا ماريز حيث الكونت أيجليروش، الصياد العظيم، والكونتيسة زوجته، يجمعان كل عام، في بداية سبتمبر، بعض الأصدقاء وسكان القصور المجاورة.

انتهت أورتِنس من وضع مساحيق تجميلها بروية، ارتدت ملابس فروسية حددت خصرها الرقيق، ولبادة أحاطت وجهها وغطت شعرها الأحمر، ثم جلست إلى مكتبها حيث بدأت تكتب لعمها، كونت أيجليروش، رسالة وداع سيراها في نهاية المساء. رسالة صعبة أعادت كتابتها عدة مرات، ثم تخلت عن كتابتها في النهاية.

تمتمت لنفسها: «سأكتب إليه لاحقًا، عندما ينقضي غضبه». ثم اتجهت نحو غرفة الطعام العليا.

كانت جذوع الأشجار الضخمة تحترق في الموقد. زينت البنادق والأسلحة الجدران. من جميع المداخل، توافد الضيوف وجاءوا لمصافحة الكونت أيجليروش، رجل من رجال الريف اللطفاء، ثقيل المظهر، سميك الرقبة، يعيش فقط للصيد. كان يقف أمام المدفأة، وكأس كبيرة من الشمبانيا الفاخرة في يده يحتسيها.

قبلته أورتِنس بذهن مشتت:

- ما هذا؟! عمي الرصين! أنتَ عادة لا تسكر..

- بربك! مرة واحدة في السنة لا تضر..

- سوف توبخك عمتي.

- عمتك مصابة بالصداع النصفي ولن تهبط إلينا.

ثم أضاف بنبرة قاسية: علاوة على ذلك، لا شأن لها. وكذلك أنتِ يا صغيرتي.

اقترب الأمير رِنين من أورتِنس. كان شابًّا، أنيقًا لدرجة كبيرة، له وجه نحيف وشاحب نوعًا ما، وعيناه رقيقتان وعصيتان على التفسير، لهما نظرة رائعة وساخرة.

انحنى الشاب، وقبَّل يدها قائلًا:

- أُذكِّرك بوعدك الطيب سيدتي العزيزة.

- وعدي؟

- نعم، تم الاتفاق بيننا على أن نكرر جولتنا الرائعة يوم أمس، وأن نجرب زيارة الحصن القديم الذي أثار اهتمامنا، ما يُدعَى منطقة آلينجر.

أجابت بنبرة جافة:

- بكل أسف يا سيدي، إنها رحلة طويلة، وأنا متعبة بعض الشيء، سأتنزه في الحديقة وأعود.

وقع صمت بينهما، ثم قال رِنين بابتسامة وعيناه مثبتتان على عينيها، وبصوت لم يصل إلّا لمسامعها:

- أنا متأكد من أنكِ ستحافظين على كلمتكِ وتقبليني رفيقًا. هذ الأفضل.

- الأفضل لمَن؟ لكَ، أليس كذلك؟

- ولكِ أيضًا، أؤكد ذلك.

احمرت قليلًا، وقاومت قائلة:

- أنا لا أفهم يا سيدي.

- لكني لا أخبرك بأي لغز. الطريق ساحر، ومنطقة آلينجر مثيرة للاهتمام. لا تُوجَد نزهة ستجلب لكِ متعة أكبر.

- أنتَ لا تفتقر إلى الفطنة يا سيدي.

- ولا العناد يا سيدتي.

ارتسمت على وجهها لفتة غاضبة، لكنها ترفعت عن الإجابة. أدارت ظهرها له، وتبادلت بعض المصافحات حولها وغادرت المكان.

في الأسفل كان خادم يمسك بزمام حصانها. امتطته وخرجت من الحديقة نحو الغابة.

كان الطقس رطبًا وهادئًا. خلف الأوراق، التي بالكاد تحركت مع النسمات، ظهرت سماء زرقاء داكنة كالبلورة المعتمة.

سارت أورتِنس في مسارات متعرجة قادتها، بعد نصف ساعة، عبر منطقة الوديان والجرف إلى الطريق السريع.

توقفت. لا ضوضاء. اضطر روسيني إلى إيقاف تشغيل محركه وإخفاء سيارته في الغابات التي تحيط بمفترق الطريق.

خمسمئة متر على الأكثر فصلتها عن مفترق الطرق. بعد بضع لحظات من التردد، وطئت قدماها الأرض، وربطت حصانها كيفما اتُّفق ودون إحكام؛ حتى يتمكن بأبسط جهد من تحرير نفسه والعودة إلى القلعة. لفّت وجهها بحجاب بني طويل انسدل على كتفيها، وتقدمت إلى الأمام.

لم تكُن مخطئة. في المنعطف الأول، رأت روسيني. ركض نحوها وجذبها إلى الغابة.

- بسرعة، بسرعة. ويحي! كنت خائفًا جدًّا أن تتأخري.. أو حتى تغيري قرارك! ها أنتِ ذا! هل هذا ممكن؟

كانت تبتسم وهي تقول.

- أنتَ سعيد بفعل شيء غبي!

- نعم أنا سعيد! وستكونين سعيدة أيضًا أُقسِم لكِ!

- ربما! لكنني لن أتصرف بحماقة بدوري.

- افعلي ما تشائين يا أورتِنس! حياتك ستكون حكاية خيالية.

- وأنت الأمير الوسيم!

- ستحصلين على كل الفخفخة، وكل الثراء.

- لا أريد الفخفخة أو الثراء.

- ماذا تريدين إذن؟

- السعادة.

- سعادتك، أنا إجابتها.

قالت مازحة:

- أشك في وجوه السعادة التي ستمنحني إياها.

- سترين.. سترين..

كانا قد وصلا بالقرب من السيارة. روسيني، الذي تلعثمت كلمات الفرح على لسانه، أدار المحرك. صعدت أورتِنس وخبأت نفسها أسفل عباءة واسعة. سارت العربة فوق عشب المسار الضيق الذي أعادها إلى مفترق الطرق، كان روسيني يزيد من سرعته عندما اضطر فجأة إلى الضغط على الفرامل.

انطلقت طلقة نارية عند الجهة اليمنى من السيارة، ثم ترنحت السيارة من جانب إلى آخر.

قال روسيني وهو يهبط إلى الأرض: إنه ثقب في الإطار الأمامي.

- لا. قالتها أورتِنس في هلع: أحدهم أطلق النار علينا.

- مستحيل يا صديقتي العزيزة، أتسمعين ما تقولين؟!

في الوقت نفسه، سُمِعت طلقتان متتاليتان، طلقة تلو الأخرى. مجددًا من الغابة.

تعجَّب روسيني:

- الإطارات الخلفية.. لكن.. أهُم قُطاع الطرق؟ إذا كانوا فأنا قادر عليهم!

تسلق الجسر ليستكشف الطريق. لا أحد. كما أسهمت أوراق الشجر البرتقالية في حجب المنظر.

- سحقًا! كان معكِ حق.. أحدهم أطلق النار على السيارة! أصابها العطب! سنضطر للتوقف هنا لساعات! ثلاث إطارات تحتاج للتصليح! لكن مَن تظنينه وراء تلك الحادثة يا صديقتي العزيزة؟

بدورها هبطت السيدة الشابة من العربة، وركضت نحوه في توتر.

- سأغادر..

- لكن لماذا؟

- أريد أن أعرف. أحدهم أطلق علينا النار. مَن؟ أريد أن أعرف..

- لن نفترق، أتوسل إليكِ..

- هل تظنني سأنتظرك لساعات؟

- لكن ماذا بشأن رحيلنا؟ مشروعاتنا؟

- غدًا.. سنتحدث مجددًا.. عُد إلى القلعة.. أعِد الحقائب..

- أرجوكِ، أتوسل إليكِ.. هذا ليس خطئي على أي حال. يبدو أنكِ تلومينني.

- أنا لا ألومك. ولكن، أيها العبقري، حين تخطف امرأة لا يتعين عليك أن تموت يا عزيزي. أراك لاحقًا.

في عُجالة رحلت. وحالفها الحظ أن لحقت بحصانها وسارت في الطريق المعاكس للطريق نحو لا ماريز.

لم يخالطها أدنى شك، كانت تعرف: الطلقات الثلاث أطلقها الأمير رِنين..

تمتمت في غيظ: إنه هو. إنه هو.. وحده القادر على الإقدام على هذا الفعل.

ألم يُحذِّرها بسلطة وابتسامة؟

- سوف تأتين. أنا متأكد.. سأنتظرك.

بكت من فرط الغضب والشعور بالإهانة. تراءى لها وجه الأمير رِنين وبصقت في وجهه.

أمامها امتدت ملامح الريف القاسية التي كللت شمال إقليم سارت، ولُقِّبت بسويسرا الصغرى. غالبًا ما أجبرتها المنحدرات الحادة على الإبطاء، خاصةً أنها ارتحلت لمسافة تزيد على عشرة كيلومترات لتصل إلى الوجهة التي حددتها لنفسها. لكن لو تمهلت قليلًا، لو تقلصت قدرتها البدنية، ما كانت لتستمر في تمردها على الأمير رِنين. لقد أثار استياءها، ليس فقط بسبب الفعل الشنيع الذي ارتكبه، ولكن أيضًا بسبب سلوكه نحوها لمدة ثلاثة أيام؛ بسبب حضوره، وثقته، وأدبه الجم الذي ينثره حوله.

كانت تقترب. في قاع وادٍ، ظهر، خلف حائط عتيق غزته الشقوق والأعشاب والطحالب، برج جرس لقلعة أُغلِق عدد من نوافذها. هي المنطقة المعروفة بمنطقة آلينجر.

سارت بمحاذاة الحائط ثم التفَّت. في وسط نصف الدائرة المرسومة أمام الباب وقف رِنين بالقرب من حصانه.

هبطت إلى الأرض، وبينما دنا رِنين منها حاملًا قبعته بين يديه وشاكرًا إياها على الحضور، قالت: لديَّ ما أقوله يا سيدي قبل أن تتبس ببنت شفة. وقع منذ قليل حدث لا تفسير له. أحدهم أطلق طلقات ثلاثًا على سيارة كُنت داخلها. هل أنت المُطلِق؟

- نعم.

بدت مدهوشة.

- إذن، أنت تعترف؟

- طرحتِ عليَّ سؤال، يا سيدتي، وأجبتكِ.

- لكن، كيف تفعل هذا؟ بأي حق؟

- لم أمارس حقًّا يا سيدتي، بل أديت واجبًا.

- حقًّا؟! أي واجبٍ؟

- واجب حمايتك من رجل يبحث عن استغلال الكرب الذي تمرين به.

- سيدي، أمنعك من قول هذا الكلام. أنا مسئولة عن تصرفاتي، وقد اتخذت قراري بكامل حريتي..

- سيدتي، لقد أنصت هذا الصباح للحديث الذي جمعكِ بالسيد روسيني عبر نافذتك، ولا يبدو لي أنكِ اتخذتِ القرار بقلب مسرور. أعترف بوحشية حديثي وقلة تهذيبه وأعتذر بتواضع عن ذلك، لكنني أردت، مخاطرة بالظهور بمظهر الوقح، أن أمنحك سويعات قليلة من التفكير.

- سبق وفكرت في كل شيء يا سيدي. حين أحزم أمري على شيء لا أتراجع بشأنه.

- حسنًا سيدتي، ولكن في بعض الأحيان، ولهذا أنتِ هنا، ولستِ هناك.

أصابت السيدة لحظة من الإحراج. تلاشى كل غضبها.

رمقت رِنين بتلك الدهشة التي يشعر بها المرء أمام مخلوقات معينة مختلفة عن الآخرين، وأكثر قدرة على القيام بأعمال غير عادية، وأكثر سخاءً وأقل اكتراثًا. أمست على ثقة تامة أنه تصرَّف نحوها دون تفكير أو حساب، تصرَّف ببساطة، كما قال، بدافع واجب أحس به رجل شجاع نحو امرأة تسير في الاتجاه الخطأ.

برقة بالغة قال لها: أنا أعرف القليل عنكِ يا سيدتي، لكن تكفي رغبتي في أن أكون ذا نفع لكِ. أنتِ تبلغين ستة وعشرين عامًا، ويتيمة الوالدين. منذ سبعة أعوام تزوجتِ من ابن أخي الكونت أيجليروش، رجل غريب، خفيف العقل، شبه مجنون، وتم حبسه. من هنا أصبح مستحيلًا عليكِ الطلاق بعد أن بدَّد زوجكِ مهركِ، وصار لزامًا عليكِ العيش مع عمك، وعلى نفقته. البيئة المحيطة بكِ حزينة، فعمكِ وزوجه لا يتفقان. هربت زوجة عمكِ الأولى مع زوج الكونتيسة الأول، لقد وحد الحقد الزوجين المهجورين، واتحدت مصائرهما، ولكنهما لم يجدا في هذا الزواج سوى خيبات الأمل والاستياء. أنتِ تعانين من تلك العواقب. حياة رتيبة وخانقة ووحيدة لمدة أحد عشر شهرًا ثم في الشهر الثاني عشر التقيتِ بالسيد روسيني الذي وقع في حبكِ وعرض عليكِ الفرار. أنتِ لا تحبينه. لكن الملل، وشبابكِ الذي يتبدد، والحاجة لسبر غمار الغامض، والرغبة في المغامرة.. باختصار، وافقتِ بنية واضحة على التخلص من حبيبكِ لاحقًا، ولكن كذلك بأمل، ساذج نوعًا ما، أن تدفع تلك الفضيحة عمكِ لتحمُّل المسئولية وضمان استقلالكِ. هذا هو وضعكِ. في الوقت الحالي، عليكِ الاختيار: إما أن تضعين نفسكِ في قبضة السيد روسيني.. أو يُعهَد بكِ إليَّ.

رفعت عينيها صوبه. ماذا يريد أن يقول؟ ماذا يعني هذا العرض الذي قدَّمه بشكل خطير، مثل صديق يطلب أن يُكرِّس نفسه لها؟

بعد صمت، أمسك بلجام الحصانين وربطهما. ثم فحص الباب الثقيل الذي عُزِّزت دلفتاه بلوحين مُسمَّرين على شكل صليب. وأظهر ملصقًا انتخابيًّا، مؤرخًا منذ عشرين عامًا، أن أحدًا لم يتجاوز تلك العتبة مذاك.

مزق رِنين أحد الأعمدة الحديدية التي تدعم سياجًا ممتدًّا حول نصف الدائرة واستخدمه كرافعة. أفسحتَ الألواح المنزوعة المجال، وكشف أحدهم القفل الذي عالجه بسكين سميك، مجهز بالعديد من الشفرات.

مرت دقيقة، ثم فُتِح الباب على حقل من نبات السرخس امتد إلى مبنى متهدم طويل، بين أربعة أبراج أجراس في الزوايا، أشبه بنوع من البرجولة العالية المبنية على قمة برج.

عاد الأمير صوب أورتِنس.

- لا داعي للتعجل، قالها وأضاف: الليلة ستتخذين قراركِ، وإذا نجح السيد روسيني لمرة ثانية في إقناعكِ، أقسِم بشرفي أن شيئًا لن يقف عائقًا في طريقكِ. حتى ذلك الحين، امنحيني حضوركِ الكامل. لقد عقدنا العزم يوم أمس على زيارة هذه القلعة، دعينا نزورها، أيمكننا ذلك؟ إنها طريقة مثل أي طريقة أخرى لتمضية الوقت، ولديَّ فكرة لن تعدم اهتمامكِ.

كان له طريقة في الحديث تحث على الانصياع. بدا وكأنه يأمر ويتوسل في آنٍ واحد. لم تحاول السيدة الشابة التخلص من هذا الخدر، بل كانت إرادتها تتهاوى تدريجيًّا. تبعته إلى شرفة نصف مهدمة، في الجزء العلوي منها باب مُعزَّز بألواح متقاطعة كسابقه.

وعبَره رِنين بنفس الطريقة إلى دهليزٍ كبير، مرصوف باللونين الأبيض والأسود، أُثِّث بمقاعد كنسية، وزُيِّن بدرع خشبية نُقِش عليها نسر يتشبث بكتلة حجر يُمثِّل شعار نبالة، وكست الدرع المعلقة على الباب شبكة كبيرة من خيوط العنكبوت.

- على ما يبدو أنه الباب المُفضِي إلى غرفة المعيشة. قالها الأمير مؤكدًا.

كان فتح هذا الباب أكثر صعوبة، ولم يفلح في نزع أحد الألواح الخشبية الداعمة إلّا بدفعها بكتفه.

لم تتبس أورِتنس ببنت شفة. لقد شهدت، دون أي دهشة، هذه السلسلة من عمليات الاقتحام التي نفَّذها الأمير بإتقانَ حقيقي. خمن ما يدور في ذهنها فاستدار ليواجهها قائلًا: إنها بمثابة لعب الأطفال. كنت صانع أقفال.

أمسكت بذراعه وهي تهمس: أنصِت.

- ماذا؟

أحكمت قبضتها على ذراعه مطالبة إياه بالصمت. حينها همس: في الواقع هذا وضع غريب.

- أنصِت.. أنصِت.. كررتها أورِتنِس مصعوقة. رباه! أهذا ممكن؟

سمعا، على مقربة منهما، صوت ضوضاء خافتة، أشبه بدقات صغيرة منتظمة، لم يتطلب تعرُّف ماهية الصوت سوى قليل من الانتباه: إنها دقات ساعة. هذا صحيح. دقات الساعة هو ما تخلل الصمت المطبق في الغرفة المظلمة، في الواقع كان صوتًا بطيئًا جدًّا، وإيقاعه أحادي، إيقاع بندول نحاسي ثقيل، هذا كُل شيء. لا شيء يمكنه إثارة إعجابهم أكثر من النبض المحسوس لهذه الآلة الصغيرة التي استمرت في الحياة رُغم موت القلعة.. بأي معجزة؟ بأي ظاهرة يمكن تفسير هذا؟

تمتمت أورِتنِس غير قادرة على رفع صوتها: لكن.. لكن أحد لم يدلف إلى هنا؟

- لا أحد.

- وليس من المنطقي أن تلك الساعة استمرت في العمل طوال عشرين عامًا دون أن تعطب؟

- صحيح.

- إذن؟

فتح رِنين النوافذ الثلاث وعالج المصاريع. كانا في غرفة معيشة، ولم يظهر على غرفة المعيشة هذه أدنى أثر للاضطراب. المقاعد في مكانها، الأثاث كامل، الناس الذين عاشوا هناك، والذين جعلوها الغرفة الأكثر حميمية في منزلهم، غادروا دون أن يأخذوا أي شيء، لا الكتب التي قرأوها، ولا الحلي المخزنة على الطاولات أو على لوحات المفاتيح.

فحص رِنين الساعة الريفية القديمة المحاطة بإطارها المنحوت العالي الذي سمح، من خلال نافذة بيضاويةَ، برؤية قرص البندول. فتحه: كانت العقارب مرتفعة قرب رأس الساعة.

في تلك اللحظة صدرت عن الساعة فرقعة، ثم دقت، بطريقة لن تنساها السيدة الشابة أبدًا، ثماني دقات.

تمتمت السيدة: يا لها من معجزة!

- بالفعل معجزة، أعلنها الأمير وأضاف: لأن الآلية التي تعمل بها الساعة، بسيطة للغاية وبالكاد تسمح لها أن تستمر لأسبوع.

- وأنت لا تلحظ شيئًا على وجه الخصوص؟

- لا.. ولا أقل شيء..

انحنى ومن أسفل الإطار سحب أنبوبًا معدنيًّا، أخفته العقارب، موجهًا نحو عداد اليوم.

- هذا تلسكوب، قال بحذر: لماذا كان مُخبئًا هناك؟ هذا غريب.. إلام يشير؟

لمرة ثانية، كما جرت العادة، بدأت الساعة في الرنين. دقات ثمانٍ دوت. أغلق رِنين الإطار دون أن يترك التلسكوب، واستمر في فحصه. كان هناك ردهة طويلة تصل غرفة المعيشة بغرفة أصغر، أشبه بغرفة للتدخين، أُثِّثت هي الأخرى، ولكن كان هناك دولاب عرض زجاجي فارغ الرفوف. وعُلِّقت لوحة بجوارها أظهرت التاريخ: الخامس من سبتمبر / أيلول.

- آه! هتفت أورتِنس بارتباك، وأضافت: نفس تاريخ اليوم! لقد توقفوا عن تمزيق أوراق النتيجة عند يوم 5 سبتمبر / أيلول، ويُصادِف تاريخ اليوم، يا لها من مصادفة لا تُصدَّق!

كرر رِنين قولها: لا تُصدَّق.. إنها ذكرى رحيلهم.. حدث في مثل هذا اليوم منذ عشرين عامًا..

- اعترف.. أن كُل هذا لا يُصدَّق.

- نعم.. هذا واضح.. لكن...

- هل لديك أي فكرة؟

أجابها بعد مرور عدة دقائق: ما يثير انتباهي هو التلسكوب المُخبَّأ.. وُضِع هنا في اللحظة الأخيرة.. فيم كان استخدامه؟ النوافذ في الطابق الأرضي لا تطل سوى على أشجار الحديقة.. وعلى الأرجح، النوافذ الأخرى لا تطل سوى على أشجار.. نحن في الوادي، لا نملك أي رؤية للأفق.. استخدام هذه الآلة يتطلب الصعود على القمة.. هل تريدين أن نصعد إلى أعلى؟

لم تتردد. أثار الغموض الذي ظهر في المغامرة بأكملها فضولها بشكل واضح لدرجة أنها لم تفكر سوى في اتباع رِنين ومساعدته في بحثه.

صعدا الدرج الرئيس وصولًا إلى الطابق الثاني، حتى منصة يبدأ عندها الدرج إلى البرج الحلزوني العلوي.

هُناك تُوجَد شرفة واسعة في الهواء الطلق، ولكن محاطة بسور يرتفع لأكثر من مترين.

أشار الأمير إلى السور قائلًا: تلك كانت كوات فيما مضى، ولكن على ما يبدو تم صبّها مذاك. انظري. هنا كانت الثغرات في الجدار التي تطل على الطريق.

- على أي حال، التلسكوب لا نفع من استخدامه هنا، علينا الهبوط إلى أسفل.

- لست أوافقك الرأي. منطقيًّا بعض حوادث الفرار إلى الريف قد وقعت، ومنطقيًّا أيضًا، لهذا السبب يمكن استخدام التلسكوب.

استخدم معصميه القويين ليصعد إلى قمة الحاجز، وهناك استطاع أن يرى الوادي بأكمله، الحديقة التي حدت أشجارها العظيمة الأفق، وبعيدًا، في نهاية الأفق، ذروة تل نبتت فوقه الأشجار، وبرج خرب آخر كسته أيادي اللبلاب، ربما يقع على بُعْد سبعمئة متر أو ثمنمئة.

استمر رِنين في فحصه. يمكن القول إن المشكلة بالنسبة له كانت في تعرُّف سبب استخدام التلسكوب، وأن هذه المشكلة سيتم حلها على الفور إذا أمكن اكتشاف كيفية استخدامه.

درس الثغرات واحدة تلو الأخرى. واحدة منها، أو بالأحرى وضع واحدة منها، جذب انتباهه قبل كل شيء. كان هناك، في منتصف طبقة الجص التي تملؤها منطقة جوفاء مليئة بالأرض حيث نمت النباتات.

نزع النباتات وأزال التربة، لتظهر حفرة قطرها عشرون سنتيمترًا، اخترقت الجدار من جانب إلى آخر. انحنى ليرى رِنين أن هذا الشق، الضيق والعميق، يتجه حتمًا نحو قمم الأشجار المتكاثفة والتل وإلى برج اللبلاب.

في عُمق هذه الحفرة، نُحِت مسار أشبه بالأخدود، وتواءمت تعرجاته مع التلسكوب. كان المكان مثاليًّا للتلسكوب، لدرجة جعلت من المستحيل تحريكه إلى اليمين أو اليسار. مسح رِنين العدسة الخارجية للتلسكوب، ووضع عينه على الطرف الآخر.

مرت ثلاثون ثانية أو أربعون وهو صامت ومنتبه، ثم نهض وقال بصوت مختلف: إنه لأمر مروع! حقًّا أمر مروع!

- ما الأمر؟ قالتها أورتِنس بقلق.

- انظري..

انحنت لترى، لكن في البداية لم تبدُ الصورة واضحة؛ فاضطرت لتقريب عينها أكثر من العدسة. على الفور قالت بجزع: إنهما فزاعان، أليس كذلك؟ كلاهما هناك.. لكن لماذا؟

كرر كلامه: انظري.. انظري بتركيز أكبر. انظري إلى الوجهين.. أسفل القبعتين.

قالت بتهاوٍ: يا للهول! يا له من ذعر!

قدَّم مجال التلسكوب هذا المشهد: منصة برج مشطور، تُشكِّل جداره، أعلى في الجزء الأبعد مثل خلفية، اجتاحها اللبلاب. وفي الأمام، في وسط الشجيرات، سقط مخلوقان، رجل وامرأة يتمايلان على حافة الحجارة.

لكن أيمكن وصفهما برجل وامرأة وهما على تلك الحالة؟! هذان الهيكلان اللذان يرتديان ملابس وقبعتين لكن لا يملكان عينين، أو وجنتين، أو ذقنًا، أو قطعة لحم واحدة، وهما بالفعل هيكلان.

قالت أورتِنس: هيكلان.. هيكلان يرتديان الثياب.. مَن نقلهما إلى هناك؟

- لا أحد.

- لكن...

- يبدو أن هذا الرجل وهذه المرأة ماتا على قمة البرج منذ سنوات، وأسفل الملابس، تعفن اللحم، والتهمته الغربان.

- لكن هذا أمر فظيع! فظيع! قالتها أورتِنس التي أصابها الشحوب الكامل، واعترى وجهها الاشمئزاز.

بعد مرور نصف ساعة كانت أورتِنس دانيل، وسيرج رِنين يغادران قصر آلينجر. قبل مغادرتهما، كانا قد ذهبا إلى برج اللبلاب، بقايا حصن قديم تهدَّم ثلاثَة أرباعه. داخله خاوٍ، وفي الماضي القريب كان يتم تسلُّقه بسلالم خشبية، شاهدا بقاياها ملقاة على الأرض. استند البرج على الجدار الذي تنتهي عنده الحديقة.

تجاهل الأمير رِنين استكمال تحقيقه ليكون أكثر شمولًا، كما لو كانت المسألة خسرت كل اهتمامه؛ مما أثار دهشة أورتِنس واستعجابها.

أقلع عن التحدث حول الأمر. وفي أقرب نزل قروي حطا فيه الرحال ليتناولا الطعام، كانت هي التي سألت الحارس عن القلعة المهجورة. عبثًا حاولت؛ لأن هذا الرجل وصل للمنطقة منذ أمد غير بعيد ولا يعرف أي شيء عن القلعة، لم يعرف حتى اسم مالكها.

سلكا الطريق إلى لا ماريز. استرجعت أورتِنس أكثر من مرة ما رأته، لكن رِنين، الذي بدا عليه جم الابتهاج، بدا غير مبالٍ تمامًا بهذه الأسئلة.

- حسنًا، ماذا بعد؟! صرخت في نفاد صبر، وأضافت: من المستحيل التوقف هنا! يجب العثور على حل.

- بالطبع نحتاج إلى حل. على السيد روسيني أن يعرف موضعنا، وأن تحسمي قرارك بشأنه.

رفعت كتفها في لا مبالاة.

- حقًّا! هذا كل ما في الأمر. ماذا عن اليوم؟

- اليوم؟

- يجب أن نعرف مَن الجثتان.

- لكن روسيني...

- روسيني سينتظر. لكن أنا، لا أطيق الانتظار.

- معكِ حق. خاصةً أنه على الأغلب لم ينتهِ من إصلاح الإطارات. لكن بيت القصيد: ماذا ستقولين له؟

- بيت القصيد هو ما رأيناه. لقد وضعتني أمام لغز، وسواه لا شيء مهم. دعنا نرى ما نواياك؟

- نواياي؟

- نعم، هناك جثتان.. ستذهب لتحقيق العدالة، أليس كذلك؟

- يا لرحمة السماء! قالها ضاحكًا، وأضاف: لكن لماذا أفعل؟

- لكن هناك لغز ما يجب توضيحه بأي ثمن.. إنها دراما مخيفة.

- لا نحتاج لأي شخص لنفعل هذا.

- كيف؟! ماذا تقول؟ هل فهمت شيئًا هناك؟

- يا رباه! كما لو كنت أقرأ الأمر في كتاب للأطفال مُزين بالرسوم التوضيحية. كل شيء بسيط!

رمقته بطرف عين متسائلة ما إذا كان يسخر منها. لكن ارتسم على محياه الجدية الشديدة.

- حسنًا، و... قالتها برجفة اعترت جسدها بأكمله.

كان النهار على وشك الانقضاء، قطعوا المسافة بسرعة وحين اقتربا من لا ماريز كان الصيادون يعودون بالفعل.

- و... سنكمل معلوماتنا من آخرين هنا سكنوا المنطقة.. أتعرفين شخصًا مؤهلًا لتلك المهمة؟

- عمي. لم يغادر قط هذه المنطقة.

- رائع. سنستجوب كونت أيجليروش، وسترين مدى دقة ارتباط كل الحقائق ببعضها البعض. عندما تمسك بالحلقة الأولى، فأنت ملزم، سواء أعجبك ذلك أم لا، أن تصل إلى الحلقة الأخيرة. لا أعرف شيئًا أكثر تسلية من ذلك.

انفصلا عند القلعة، عثرت أورتِنس على أمتعتها ورسالة غاضبة من روسيني ودَّعها فيها وأعلن رحيله.

همست أورتِنس لنفسها: طوبى له، لقد تصرفت هذه الشخصية السخيفة خير تصرُّف.

لقد نسيت كل شيء: مغازلتها له، هروبهما، خططهما. بدا لها روسيني غريبًا تمامًا عن حياتها من رِنين الذي ألهمها، من سويعات، القليل من التعاطف.

جاء رِنين طارقًا على بابها.

- عمك في مكتبته. هل تصحبيني؟ أخبرته بزيارتي.

خرجت وتبعته. أضاف: أمر آخر. هذا الصباح، بعد إحباطي لخطتكم والتوسل إليكِ أن تثقين بي، أصبحت بذلك قاطعًا نحوكِ التزامًا لا أريد التأخير في الوفاء به، وسيكون لديكِ الدليل الرسمي الذي تريدين.

ضحكت، وقالت: لم تقطع سوى التزام واحد؛ أن تشبع فضولي.

قال بنبرة واثقة: سأُشبِعه، وبطريقة أفضل من كل تخيلاتك، إذا أيد الكونت أسبابي.

كان الكونت وحيدًا، يُدخن الغليون، ويحتسي النبيذ المُعتق المخلوط بالبراندي. عرض على رِنين كأسًا، لكنه رفض.

- وأنتِ أورتنس؟ قالها بنبرة هادئة: أنتِ تعرفين أننا هنا بالكاد نستمتع عدا تلك الأيام من السنة، هل استمتعتِ بنزهتكِ مع رِنين؟

قاطعه الأمير قائلًا: بسبب هذه النزهة تحديدًا جئت لأتحدث إليك سيدي العزيز.

- أستميحك عذرًا، لكن عليَّ في غضون عشر دقائق الرحيل لمقابلة صديق وزوجته في محطة القطار.

- آه! عشر دقائق أكثر من كافية لي.

- إذن هو الوقت الكافي لتدخين سيجارة؟

- نعم.

أخذ الأمير سيجارة من الصندوق الذي قدَّمه الكونت له، أشعلها وقال: هل تتخيل أن هذه النزهة قادتنا لمنطقة، على الأغلب تعرفها، هي منطقة آلينجر؟

- بالطبع أعرفها. لكنها مغلقة. محصنة منذ ربع قرن على ما أعتقد، لم تستطِع الدخول؟

- بلى.

- أكانت زيارتكما مثيرة للاهتمام؟

- لأقصى درجة. لقد اكتشفنا أغرب الأشياء.

- أي أشياء؟ سأل الكونت وهو ينظر إلى ساعة يده.

- غرف محصنة، غرفة معيشة متروكة في حالة ترتيب كاملة، ساعة، بأعجوبة، دقت عند وصولنا.

تململ الكونت: تلك تفاصيل دقيقة للغاية.

- هناك ما هو أفضل في الواقع، لقد صعدنا إلى قمة البرج، ومن هناك رأينا، على حافة برج آخر بعيد جدًّا عن القلعة، جثتين. هيكلين عظميين في الواقع.. رجلًا وامرأة لا يزالان مغطيين بثيابهما التي كانا يرتدينها عند اغتيالهما..

- آه! اغتيالهما؟ تخمين مباشر..

- بل يقين. ولهذا جئنا لنزعجك. ألم تكُن هذه المأساة، التي ربما وقعت قبل عشرين عامًا، معروفة آنذاك؟

أعلن الكونت: في الواقع، لا. لم أسمع قط عن جريمة قتل أو اختفاء.

قال رِنين والاندهاش يبدو على محياه: خسارة! كنت آمل في الحصول على بعض المعلومات..

- أعتذر.

- في تلك الحالة، اعذرني.

نظر إلى أورتِنس وسار نحو الباب، لكن السرور كان باديًا عليه وهو يقول: ألا يمكنك على الأقل يا سيدي العزيز أن ترشدني إلى أناس حولك.. من أسرتك؛ ربما يعرفون؟

- من أسرتي؟ لماذا؟

- لأن منطقة آلينجر كانت ملك، وربما لا تزال، أسرتك. شعار النبالة كان يحمل صورة نسر يتشبث بكتلة حجر.. يقف على صخرة.

على الفور فرض التلميح نفسه.

هذه المرة بدا الكونت مندهشًا، وضع الزجاجة والكأس وقال: ماذا تقول؟ أجهل هذه المعلومة.

أومأ رِنين رأسه مبتسمًا: أُفضِّل أن أميل إلى الاعتقاد، سيدي العزيز، بأنك لست في عجلة من أمرك للاعترَاف بأي درجة من القرابة بينك وبينه. وهذا المالك المجهول.

- إذن هو رجل بغيض؟

- ببساطة هو رجل مقتول.

- ماذا تقول؟

نهض الكونت، وقالت أورتِنس بتأثر ضاغطة على حروفها: هل أنت متأكد حقًّا من وجود جريمة؟ وهذه الجريمة ارتكبها شخص من هذه القلعة؟

- متأكد تمامًا.

- ولكن ما سر هذا التأكد؟

- لأنني أعرف مَن الضحيتان، وسبب قتلهما.

لم يتحدث الأمير سوى بأدلة وتأكيدات، لدرجة تجعل مَن يُحدِّثه يظن أنه يملك أقوى القرائن. ذرع الكونت الغرفة جيئةً وذهابًا، وأخيرًا قال: كان لديَّ حدس دائمًا أن شيئًا ما قد وقع، لكنني لم أحاول أبدًا معرفة ما وقع.. في الواقع، قبل عشرين عامًا، عاش أحد أقارب والدي، قريب بعيد، في آلينجر. كُنت آمل، بسبب الاسم الذي أحمله، أن تبقى تلك القصة، وأكرر أنني لم أعرفها ولكن خمنتها، طي النسيان.

- مفهوم، إذن هذا القريب قتل؟

- نعم، أُجبِر على القتل.

أومأ رِنين.

- آسف، لكن عليَّ تصحيح تلك العبارة يا سيدي. قريبك قتل، قام بفعل القتل بدم بارد، وبخسة. لم أشهد جريمة قط تمت برباطة الجأش تلك وهذا الخداع.

- ماذا تعرف؟

آن الوقت لرِنين أن يُفسر نفسه. لحظة خطيرة، مثقلة بالألم، بفضلها فهمت أورتِنس سبب الجدية التي ارتسمت على وجه الأمير، رُغم أنها لم تخمن بعد أي شيء عن تلك المأساة التي وقعت، والتي شاركت الأمير تقصيها خطوة بخطوة.

قال الأمير: المغامرة بسيطة للغاية. هناك كل الأسباب التي تدفع للاعتقاد أن هذا السيد قريبك كان متزوجًا. وأنه في محيط قلعة آلينجر، كان هناك زوجان آخران. حافظ اللوردان على علاقة صداقة. ماذا حدث؟ أيٌّ من هؤلاء الأشخاص الأربعة جلب المتاعب لعلاقة الأسرتين؟ لا أستطيع الجزم. ولكن هناك تخمين يتبادر إلى ذهني على الفور، وهو أن زوجة قريبك، تواعدت مع اللورد في القلعة ذات اللبلاب، والتي لها مخرج مباشر إلى الريف. بعد أن علم بالمؤامرة، قرر قريبك الانتقام، لكن بطريقة لا تجلب الفضيحة، أو بالأحرى لا يعرف الناس حتى أن هناك جناة قتلوا. الآن - لاحِظ ما سبقت أن ذكرته - هناك قمة في القلعة يمكن من خلالها رؤية برج اللبلاب، البرج الذي يقع على بعد ثمنمئة ياردة، وأنه فقط من هذا المكان يسيطر المرء على قمة البرج؛ لذلك قام بعمل ثقب من خلال الحاجز، في موقع ثغرة قديمة، ومن هناك، عن طريق تلسكوب يقع بالضبط في أسفل الأخدود المحفور، حضر تواعُد الجناة. ومن خلال هذا أيضًا، بعد أن أخذ جميع قياساته بشكل جيد، بعد حساب جميع مسافاته، فإنه يوم الأحد الخامس من سبتمبر، وكانت القلعة فارغة، قُتِل العاشقان بطلقتين من البندقية.

ظهرت الحقيقة، بدَّد الظلام ضوء النهار.

تمتم الكونت: نعم.. هذا ما يجب أن يكون قد حدث.. هذا ما فعله قريبي..

استمر الأمير في حديثه: القاتل، ردم بعناية الكوة، مَن كان ليعرف أن جثتين كانتا تتعفنان أعلى البرج الآخر حيث لا يذهب أحد على الإطلاق؟ وكان عليه هدم السلالم الخشبية. كل ما كان عليه فِعله هو

شرح اختفاء زوجته وصديقه. شرح سهل. اتهمهما بالفرار معًا.

تراجعت أورتِنس فجأة. كما لو كانت هذه الجملة الأخيرة كشفًا كاملًا لكل شيء. لشيء، بالنسبة لها، غير متوقع على الإطلاق، فهمت ما كان رِنين يسرده.

- ماذا تقول؟

- أقول إن الكونت اتهم زوجته وصديقه بالفرار معًا.

بكت أورتِنس: لا.. لا.. لا أصدق، هذا قريب عمي، لماذا تخلط القصتين؟

كرر الأمير قولها: لماذا أخلط تلك القصة مع أخرى تم التشكيك فيها آنذاك؟ لكنني لا أخلطهما، سيدتي العزيزة، إنهما قصة واحدة، وأنا أسردها كما وقعت.

التفتت أورتِنس نحو عمها. كان صامتًا، عاقدًا ذراعيه، وأخفى ظلال المصباح رأسه. لماذا لا يحتج؟

استمر رِنين بحزم: هناك قصة واحدة. في الخامس من سبتمبر، في تمام الثامنة، غادر الكونت، ربما متذرعًا - كتمهيد - ببحثه عن فارين، قلعته بعد تحصينها. غادر، تاركًا جميع القطع كما هي، وأخذ البنادق فقط من الدولاب الزجاجي. في اللحظة الأخيرة، كان لديه حدس، يمكن تبريره اليوم، بأن اكتشاف هذا التلسكوب، الذي لعب دورًا كبيرًا في التحضير لجريمته، يمكن أن يكون بمثابة نقطة انطلاق للتحقيق، وألقاه في داخل الساعة حيث أراد منها أن تُقاطِع مسار البندول. هذا العمل الميكانيكي، كما يرتكبه جميع المجرمين حتمًا، خانه بعد عشرين عامًا. كانت الضربات التي أعطيتها لزعزعة باب غرفة المعيشة سببًا لحركة البندول. استأنفت الساعة مسارها، ودقت الساعة الثامنة، و... كان لديَّ طرف الخيط الذي يقودني إلى المتاهة.

قالت أورتِنس: دليل! أريد دليلًا!

- دليل؟ أجاب رِنين بحدة، وأردف: كثرت الأدلة، وأنتِ تعرفينها كما أعرفها. مَن كان بإمكانه أن يقتل على هذه المسافة من ثمنمئة ياردة، إن لم يكُن راميًا ماهرًا، صيادًا متحمسًا، أليس كذلك أيها الكونت؟ دليل؟ لماذا لم يُؤخَذ شيء من القلعة، لا شيء، باستثناء البنادق، تلك البنادق التي لا يمكن لعشاق الصيد الاستغناء عنها، أليس كذلك، أيها الكونت؟ هذه البنادق التي نجدها هنا، مرتبة في مجموعة؟ دليل؟ وهذا التاريخ الخامس من سبتمبر، الذي كان تاريخ الجريمة، والذي ترك في روح المجرم هذه الذاكرة من الرعب لدرجة أنه، كل عام، في هذا الوقت، في هذا الوقت تحديدًا، يلهو وينحرف، وأنه، كل عام، في هذا التاريخ، ينسى عاداته في الاعتدال؟ اليوم هو الخامس من سبتمبر. دليل؟ ولكن، إذا كانت تلك فقط هي الأدلة، أليس هذا كافيًا لك؟

مد رِنين ذراعه وأشار إلى الكونت، الذي، قبل الاستحضار المرعب للماضي، كان قد انهار على كرسيه وأخفى رأسه بين يديه.

لم تُثِر أورتِنس أي اعتراض. لم تحب أبدًا عمها، في الواقع هو عم زوجها، واعترفت على الفور بالتهمة الموجهة له.

مرت دقيقة.

مرة تلو أخرى تجرع الكونت النبيذ المعتق، أنهى كأسين ثم نهض نحو رِنين.

- لتكُن القصة صحيحة يا سيدي، نحن لا يمكننا أن نسمي الزوج الذي ينتقم من شرفه ويقمع الزوجة الخائنة مجرمًا.

- لا، ولكنني لم أسرد سوى النسخة الأولى من الحكاية. هناك على الأرجح نسخة أخرى.. نسخة أشد خطورة.. ولن أتوصل إليها إلا بالتحقيق الشامل.

- إلام ترمي؟

- قد لا يكون زوجًا يقظًا، كما افترضت بحسن نية. قد يكون رجلًا مدمرًا يطمع في ثروة صديقه وزوجته، والذي، لهذا السبب، لتحرير نفسه، للتخلص من صديقه وزوجته، يحيك لهما فخًّا، ينصحهما بزيارة هذا البرج المهجور، ومن بعيد، في حماية كاملة، يقتلهما بالبندقية.

اعترض الكونت: لا، لا. هذا خطأ تمامًا.

- أنا لا أقول لا. إنني أبني اتهامي على الأدلة، وأيضًا على الحدس والمنطق الذي يتسم حتى الآن بالدقة البالغة. على الرغم من ذلك، فإنني أريد أن تكون هذه النسخة الثانية من القصة خطأ. ولكن في هذه الحالة، لماذا الندم؟ ليس لدينا أي ندم عندما نعاقب المذنبين.

- نشعر بالندم حين نقتل. إنه عبء ثقيل.

- هل كان زواج الكونت من أرملة ضحيته غرضه الشعور بمزيد من القوة؟ لأن ببساطة يا سيدي، لماذا هذا الزواج؟ هل دُمِّر الكونت؟ هل كانت زوجته الثانية أكثر ثراءً؟ أم أنهما أحب أحدهما الآخر؟ بل هل اتفق معها الكونت على قتل زوجته الأولى وزوج زوجته الثانية؟ وهناك الكثير من التفاصيل التي لا أعرفها، والتي لا يحين وقتها الآن، لكن العدالة، بكل الوسائل المتاحة، لن تجد صعوبة في البزوغ.

تعثر الكونت، كان عليه أن يتكئ على ظهر كرسي، وقال: هل ستُخطر المحكمة؟

- لا.. لا، أولًا: هناك قانون التقادم. ثم هناك عشرون عامًا من الندم والرعب، وهي مدة كافية لملاحقة ذكرى الجاني حتى ساعته الأخيرة. الخلاف الذي سيقع بلا شك في منزله والكراهية، والجحيم كل يوم.. وأخيرًا: الالتزام بالعودة إلى هناك ومحو آثار الجريمة المزدوجة، والعقوبة الرهيبة المتمثلة في تسلُّق هذا البرج، ولمس هذه الهياكل العظمية، وخلع ملابسها، ودفنها.. هذا يكفي. دعونا لا نسأل كثيرًا، ودعونا لا نخبر كل هذا للجميع ونُحدِث فضيحة من شأنها أن تنعكس على قريبة الكونت. لا، دعونا نترك كل هذه المظالم

شبك الكونت راحتيه، وقال: لماذا؟

- لماذا تدخلين؟ إذا كُنت كشفت كُل شيء فهو لتحقيق غرض ما، أليس كذلك؟ في الحقيقة، يجب أن تقع عقوبة، مهما كانت صغيرة. ويجب أن يكون لمقابلتنا نتيجة، لكن لا تخف؛ سينجو الكونت بثمن

بخس.

انتهى الصراع. شعر الكونت أن كُل ما عليه أن يقوم بإجراء شكلي صغير وتضحية يجب قبولها، استعاد القليل من الثقة، وقال بشيء من السخرية: كم المبلغ؟

أطلق رِنين ضحكة.

- ممتاز. أنت تفهم الموقف. أنت فقط مخطئ في نظرتك. أنا أعمل لأجل المجد.

- في هذه الحالة؟

- إنه مجرد رد.

- رد؟

اتكأ رِنين على المكتب، وقال: يُوجَد في أحد هذه الأدراج سند تم تقديمه لتوقيعك. إنها صفقة مقترحة بينك وبين السيدة أورتِنس دانيال فيما يتعلق بثروتها، وهي ثروة تم تبديدها وأنت مسؤول عنها. وقِّع المعاملة.

أصاب الكونت اضطراب: أتعرف كم المبلغ؟

- لا أريد أن أعرف.

- ماذا لو رفضت؟

- سأطلب مقابلة الكونتيسة.

دون مزيد من التردد فتح الكونت الدرج وأخرج ورقة ختمها ووقَّعها. قال: ها هي ذا. وآمل..

- تأمل، مثلي، أن شيئًا لن يجمعنا؟ أنا متأكد من ذلك. سأرحل الليلة، وسترحل السيدة أروتِنس غدًا، لا شك أنه الوداع يا سيدي.

قبل أن يهبط أحد إلى البهو، سلَّم رِنين المعاملة لأورتِنس. بدت مندهشة من كُل ما جرى، وتشوش ذهنها لسبب أكثر من هذا الضوء الساطع الذي سُلِّط على ماضي عمها، لقد كانت البصيرة الخارقة والوضوح الاستثنائي للرجل الذي ظل لبضع ساعات يسرد أحداث المأساة التي لم يشهدها أحد كما لو كانت تحدث أمام عينيه.

سأل: هل أنتِ مسرورة مني؟ مدت كلتا يديها نحوه، وقالت: لقد أنقذتني من روسيني. ومنحتني الحرية والاستقلالية. أشكرك من صميم قلبي.

- في الواقع تلك لم تكُن رغبتي. كان هدفي في البداية أن تشعري ببعض اللهو، حياتكِ كانت رتيبة وتخلو من الإثارة. أهذا ما منحتكِ إياه اليوم؟

- كيف لك أن تطرح هذا السؤال؟ لقد اختبرت أقوى الدقائق وأغربها.

- هذه هي الحياة. حين تعرفين كيف تفحصين الأمور. المغامرة في كل مكان، في قاع أفقر الأكواخ، وخلف قناع أعقل الرجال. في كُل مكان، إذا صح التعبير، هناك ذريعة للتحرك، لفعل الخير، لإنقاذ ضحية، لوضع حد للظلم.

همست مندهشة من القوة والبأس داخله: مَن أنت؟

- مغامر، ليس إلا. عاشق للمغامرة. الحياة تستحق فقط أن تُعاش في ساعات المغامرات أو مغامرات الآخرين أو المغامرات الشخصية. اليوم الذي لامس أعماق كيانك لا يزعجك. لكن تلك المغامرات الخاصة بالآخرين ليست أقل إثارة. هل تريدين اختبارها؟

- كيف؟

- كوني شريكتي في المغامرات. إذا استدعاني أحدهما، ساعديه برفقتي. إذا دفعتني الصدفة أو الغريزة في أثر جريمة لنكُن شركاء البحث. أتريدين ذلك؟

- نعم. لكن...

ترددت. كانت تفكر في مشروع رِنين السري.

- لكن... قالها وابتسم، وأضاف: أنتِ تفكرين قليلًا: إلى أين يريد محب المغامرات هذا اصطحابي؟ يبدو أنني أروق له، وأنه لن يُعدَم في يوم أو آخر أن يتلقى أتعابه. معكِ حق. نحتاج لعقد معين بيننا.

قالت أورتِنس ممازحة لتُهدِّئ من ذروة الحديث: دقيق للغاية. أنا منصتة لاقتراحاتك.

فكر برهة وأردف: حسنًا! إليكِ الاتفاق. اليوم، هو اليوم الأول من المغامرات، دقت ساعة آلينجر دقات ثمانٍ. هل تريدين أن نقبل بحكمها، ونستمر في شراكتنا لسبع مغامرات أخرى، ولنقُل لمدة ثلاثة أشهر؟ هل تريدين أن تلزمي نفسكِ بمنحي المرة الثامنة؟

- ماذا؟

تلكأ في الإجابة.

- اعلمي أنكِ دومًا حرة في هجري طوال الرحلة، إذا فشلت في إثارة اهتمامك. ولكن إذا تبعتني حتى النهاية، وإذا سمحت لي أن أبدأ وأكمِل معكِ المشروع الثامن، في غضون ثلاثة أشهر، في الخامس من ديسمبر، في نفس اللحظة التي ستضرب فيها الضربة الثامنة لهذه الساعة -وستضرب، بالتأكيد؛ لأن البندول النحاسي القديم لن يتوقف في مساره - ستكونين ملزمة بمنحي...

- ماذا؟ سألت بقليل صبر وضيق من الانتظار.

صمت. نظر إلى الشفاه الجميلة التي أراد أن يطلبها كمكافأة، وكان متأكدًا أن الشابة قد فهمت، لدرجة أنه اعتقد أن الحديث بشكل أكثر وضوحًا غير مجدٍ.

قال: مجرد البهجة برؤيتكِ تكفيني.. الأمر ليس متروكًا لي، أنتِ مَن تضعين الشروط. ماذا تريدين؟ ما طلبكِ؟

شكرته على احترامه وأجابته ضاحكة: ما طلبي؟

- نعم.

- هل يمكنني طلب أي شيء صعب؟

- أي شيء سهل لمَن يرغب في الحصول عليكِ.

- ماذا لو كان طلبي مستحيلًا؟

- لا تسعدني سوى المستحيلات.

- أطلب منك أن تعيد إليَّ قلادة عتيقة من العقيق. ورثتها عن أمي التي ورثتها عن أمها، والجميع كان يعرف أنها تجلب لهما الحديث السعيد، ولي أيضًا. منذ اختفائها من الصندوق الذي وضعتها داخله، وأنا غير سعيدة. أعِدها لي، أيها العبقري.

- متى فُقِدت منكِ تلك القطعة؟

- منذ سنوات سبع.. أو ثمانٍ.. أو تسع، لا أعرف عين اليقين.. ولا أعرف أين فقدتها؟ ولا أعرف كيف؟ أجهل كل شيء..

- سأعثر عليها، وستكونين سعيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

إبريق الماء

بعد مرور أيام أربعة من وصولهما إلى باريس. وافقت أورتِنس دانيل على لقاء الأمير رِنين في الحديقة. جلسا، في صباح مشرق، على شرفة مطعم إمبريال البعيد قليلًا عن مسار الطريق.

كانت السيدة الشابة سعيدة بالحياة، مبتهجة، ملأها شعورا النعمة والإغواء. وخوفًا من ترهيبها، كان رِنين حريصًا ألّا يُلمِّح من قريب أو بعيد إلى الاتفاق الذي اقترحه. حكت له عن مغادرتها لا ماريز، وأكدت أن خبرًا لم يصلها من روسيني.

قال رِنين: عن نفسي، سمعت أحاديث عنه.

- حقًّا!

- نعم. أرسل لي شهوده. تبارزنا هذا الصباح. مجرد لمسة على كتف روسيني وتم تصفية الأمر.

- لنتحدث في شأن آخر.

عادت لا تملك مزيدًا من الأسئلة عن روسيني. طرح رِنين، في التو، على أورتِنس خطة مغامرتين كانتا في ذهنه، وعرض عليها، دون كثير حماس، أن تشاركه إياهما.

قال: المغامرة الأفضل، هي التي لم يتم التخطيط لها. تحدث بشكل غير متوقع، دون أن تعلن عن نفسها، ودون ملاحظة من أحد، عدا المبادرين نحوها، هذه الفرصة للتصرف وبذل الذات، وهي في متناول اليد. يجب الشروع في القبض عليها على الفور. ثانية واحدة من التردد ويفوت الأوان. تحذرنا حاسة خاصة، ذوق الصيد الذي يلتقط الرائحة الطيبة بين جميع أولئك الذين يلتقطونها.

بدأت الشرفة حولهم تعج بالناس. على الطاولة المجاورة جلس شاب له جسد ضئيل وشارب بني كث، رآه رِنين من خلف إحدى الصحف التي يطالعها. خلفهما، ومن خلال واحدة من نوافذ الشرفة، ظهرت القاعة وداخلها الأوركسترا وعدد قليل من الناس يرقصون.

أخذت أورتِنس تفحص الواحد تلو الأخرى بعناية فائقة، كما لو كانت ترغب في التعرف إلى كُل رجل وامرأة؛ مُحاوِلةً اكتشاف أصغر علامة تشير إلى مأساة عاشوها، مصير مؤسف لاقوه، أو جريمة اقترفوها.

التهى رِنين في تنظيم كؤوس الشراب، وانطلقت صرخة من الشاب الضئيل ذي الشارب داعيًا أحد النداء بصوت مختنق.

- كم أدين لك؟ لا تملك فكة؟ يا إلهي! استعجِل!

دون تردُّد أمسك رِنين بالصحيفة وبعد نظرة سريعة قرأ بصوت معتدل: السيد دوردو، المحامي الخاص بـجاك أوبرِيو، وصل إلى قصر الإليزيه. ووصلنا أن رئيس الجمهورية رفض العفو عن

الرجل المدان وأن الإعدام سيُنفذ صباح الغد.

هبط الشاب تحت شرفة الحديقة وصادف رجلًا وامرأة اعترضا طريقه، قال الرجل: أستميحك عذرًا يا سيدي، لكن مشاعرك فاجأتني. الأمر يتعلق بچاك أوبريو، أليس كذلك؟

تمتم الشاب: بلى.. بلى.. چاك أوبريو، چاك صديق الطفولة، أفكر بزوجته.. لا بد أن الألم يعتصرها..

- إذن أعرض عليك مساعدتي؟ أنا الأمير رِنين. وأنا والسيدة سنكون سُعداء بلقاء السيدة أوبريو، وأن نضع خدماتنا تحت تصرفها.

بدا أن الشاب، الذي أصابه استياء شديد لما قرأ، لم يفهم مقصد رِنين. مد يده اليسرى مقدمًا نفسه: دوتريل.. جاستون دوتريل..

أشار رِنين إلى كلِمون، سائقه، الذي كان ينتظر على مقربة، وأرشد جاستون دوتريل نحو السيارة، سائلًا: العنوان؟ عنوان السيدة أوبريو؟

- شارع رول، 23 شارع رول..

كرر رِنين العنوان على مسامع السائق بمجرد أن صعدت أورتِنس إلى السيارة، وفور أن سارت السيارة في طريقها أراد استجواب جاستون دوتريل.

قال: أعرف القليل عن القضية. اشرح لي باختصار. قتل چاك أوبريو أحد أقاربه المقربين، أليس كذلك؟

- إنه بريء يا سيدي. أجابه الشاب وقد بدا عليه عجز تام عن تقديم أقل تفسير. بريء، أُقسِم لك.. أنا صديق چاك منذ عشرين عامًا.. إنه بريء.. وسيكون أمر إعدامه وحشي..

لا يمكن استنباط شيء من كلامه. كما كانت الرحلة سريعة، فقد وصلت السيارة إلى بلدية نويي عبر منفذ سابلون. وبعد دقيقتين وصلوا إلى زقاق ضيق وطويل، على جانبيه اصطفت جدران المنازل، وقادهم إلى منزل صغير من طابق واحد.

رن جاستون دوتريل الجرس.

- السيدة في غرفة المعيشة مع والدتها. أعلن الخادم الذي استقبلهم.

قال الشاب مصطحبًا رِنين وأورتِنس: سأذهب لأقابل السيدتين.

كانت غرفة المعيشة كبيرة نوعًا ما، مؤثثة بأثاث جيد، والتي، في الظروف العادية، كانت تصلح غرفة مكتب أكثر من غرفة معيشة. هناك جلست سيدتان تبكيان، نهضت الأكبر سنًّا، ذات شعر رمادي، لتقابل جاستون والذي بدوره وضح لها وجود الأمير رِنين. بكت السيدة على الفور، وقالت: زوج ابنتي بريء، يا سيدي. چاك! إنه خير الرجال.. قلبه شُكِّلَ من ذهب! أيقتل چاك ابن عمه! لكنه كان يعشقه، ابن عمه هذا! أقسِم لك، يا سيدي، إنه بريء! وسيلحق بنا عار جريمته؟ يا رباه! سيدي، هذا موت ابنتي.

أدرك رِنين ما كان يعيشه هؤلاء الناس، لعدة شهور، في قلق جامح بسبب هذه التهمة، ويشعرون بيقين أنَه لا يمكن إعدام شخص بريء. إن خبر الإعدام، الذي أصبح مؤكدًا اليوم، دفعهم إلى الجنون.

انحنى إلى المخلوقة الرقيقة التي تكومت كجنين، كان لها وجه صغير ودقيق، يحيطه الشعر الأشقر الجميل، كانت تتشنج من فرط اليأس. بالفعل أورتنس كانت قد جلست بجانبها وربَّتت بلطف على كتفها. قال رنين موجهًا لها الحديث: سيدتي، لا أعرف ما يمكنني فِعله لكِ. لكنني أؤكد لكِ بشرفي، إذا كان هناك أَحد قادر على تقديم شيء نافع لكِ، فهذا الشخص هو أنا؛ لذلك أتوسل إليكِ أن تكون إجاباتكِ عن أسئلتي واضحة وصريحة كما لو كانت قادرة على تغيير وجه الأمور، وكأنكِ تريدين مشاركتي رأيكِ في چاك أوبريو. فهو بريء، أليس كذلك؟

قالت بكلمات خرجت من صميم كيانها: بلى يا سيدي!

- حسنًا إذن! هذا اليقين الذي تعجزين عن توضيحه للقضاء، يجب أن توضحيه إليَّ. أنا لا أطلب منكِ الخوض في تفاصيل تجعلكِ تستعيدين المحنة الرهيبة التي تمُرين بها، لكن ببساطة ستجيبين عن عدد من الأسئلة. هل تريدين ذلك؟

- هات ما عندك يا سيدي.

سيطر عليها رِنين. في بضع جمل، نجح في إخضاعها وغرس إرادة الطاعة فيها. ومرة أخرى، أدركت أورتنس كل ما كان في رِنين من قوة تجعله قادرًا على الإقناع.

قال، بعد أن رجا الأم وجاستون دورتيو التزام الصمت التام: ماذا يعمل زوجكِ؟

- وسيط تأمين.

- هل كان سعيدًا بمجال عمله؟

- نعم، حتى السنة الماضية.

- لذا، منذ بضعة أشهر، تعرَّض لضائقة مالية؟

- نعم.

- ومتى وقعت الجريمة؟

- في مارس الماضي، يوم أحد.

- مَن الضحية؟

- واحد من أبناء عمومته، بالأحرى قريبه، السيد جيوم، يعيش في مدينة سوريسن.

- المبلغ المسروق؟

- ستون ألف فرنك، كان ابن عمه قد تلقاها في اليوم السابق كجزء من دين قديم.

- زوجك كان على دراية بذلك؟

- أجل، أخبره ابن عمه بذلك يوم الأحد في أثناء محادثة هاتفية بينهما، وأصر چاك ألا يترك ابن عمه مبلغًا هائلًا كذلك في عهدته، وأن يُودِعه صباح اليوم التالي في المصرف.

- كان هذا النهار؟

- كان على چاك أن يذهب إلى منزل السيد جيوم بدراجته النارية، لكنه، بسبب إعياء مفاجئ، أخبره بتعثر الزيارة. وبقي هنا طوال اليوم.

- وحيدًا؟

- نعم، وحيدًا. كانت عطلة الخادمين. ذهبت إلى سينما ديه تيرنيه رفقة أمي وصديقنا دوتريل. في المساء علمنا بمقتل السيد جيوم، وفي صباح اليوم التالي تم إلقاء القبض على چاك.

- ما التهمة التي وُجِّهت له؟

ترددت السيدة التعيسة في الحديث. على ما يبدو كانت التهم قاطعة، ثم بعد إيماءة من رِنين حثتها، ألقت بكل ما في جعبتها دفعة واحدة: ذهب القاتل إلى سان كلاود على متن دراجة نارية، وكشفت آثار العجلات أن الدراجة من نفس طراز دراجة زوجي. عُثِر على منديل قماشي نُقِش عليه الأحرف الأولى من اسم زوجي، والمسدس الذي استُخدِم في القتل مِلكًا له. وأخيرًا، يدَّعي أحد جيراننا أنه في الساعة الثالثة بعد الظهيرة رأى زوجي يخرج بدراجته النارية، ورآه آخر يعود إلى المنزل في حدود الساعة الرابعة والنصف بعد الظهيرة. وقعت الجريمة في الساعة الرابعة.

- وكيف يدحض چاك أوبريو تلك الأدلة؟

- يؤكد أنه خلد إلى النوم طوال فترة ما بعد الظهيرة. في هذه الأثناء، جاء أحدهم وتمكن من فتح السقيفة وأخذ الدراجة النارية إلى سوريسن. أما عن المنديل والمسدس فقد كانا في صندوق الدراجة، ولا عجب أن القاتل استخدمهما.

- هذا تفسير معقول.

- صحيح، لكن المحكمة قدمت ضده اعتراضين؛ الأول: لا أحد، لا أحد على الإطلاق، كان على دراية أن زوجي يرتاح في المنزل في هذا الوقت، بل على العكس، هو معتاد التنزه على متن الدراجة النارية طوال فترة ما بعد الظهيرة من أيام الآحاد.

- والثاني؟

احمرّ وجه السيدة الشابة وتمتمت: في مكتب السيد جيوم، شرب القاتل نصف زجاجة نبيذ. على هذه الزجاجة، عُثِر على بصمات أصابع زوجي.

يبدو أنها بذلت كل جهدها لتتحدث، وفي الوقت نفسه اختفى الأمل اللاواعي، الذي أثاره في داخلها تدخل رِنين، فجأة قبل تراكُم الأدلة. تكومت على نفسها فيما يشبه نحيب صامتًا حتى رعاية أورتِنس الحنون لم تفلح في تبديده.

قالت الأم:

- هو بريء، أليس كذلك، يا سيدي؟ ولا يمكن معاقبة بريء. لا أحد يملك هذا الحق. لا أحد يملك حق قتل فتاتي. رباه! يا رباه! يا رباه! ماذا فعلنا لنتعرض لهذا الاضطهاد؟ يا فتاتي المسكينة مادلين..

قال دوتريل بصوت يرتعد: ستقتل نفسها.. لن تتحمل أبدًا فكرة إعدام چاك بالمقصلة. ربما.. الليلة.. ستقتل نفسها.

أخذ رِنين يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا.

سألت أورتِنس: أُسقِط في يدك بشأنها، أليس كذلك؟

أجاب بصوت قلق: إنها الحادية عشر والنصف، والإعدام يقع غدًا في الصباح.

- هل تعتقد أنه مذنب؟

- لا أعرف.. لا أعرف، إن إدانة المرأة التعيسة أمر مثير للإعجاب ولا ينبغي إهماله. عندما يعيش مخلوقان جنبًا إلى جنب لسنوات، لا يمكن أن يكونا مخطئين بشأن بعضهما البعض.. وبعد!

تمدد على أريكة وأشعل سيجارة. زفر ثلاثة أنفاس متتالية دون أن يقاطع أحد تأمُّله. في بعض الأحيان كان ينظر إلى ساعته. الدقائق مهمة جدًّا!

في النهاية جلس إلى جوار مادلين أوبريو، أمسك بيديها، وقال بهدوء شديد: لا يصح أن تقتلي نفسكِ. حتى اللحظة الأخيرة، ما زالت الأمور في المتناول، وأعدكِ، من جانبي، أن عزيمتي لن تثبط حتى اللحظة الأخيرة. لكنني بحاجة إلى هدوئكِ وثقتكِ.

قالت بنبرة يُرثَى لها: سأتحلى بالهدوء.

- والثقة؟

- وسأتحلى بالثقة.

- حسنًا إذن! انتظريني. في غضون ساعتين، سأعود إليكِ. هل سترافقنا يا سيد دوتريل؟

فور صعودهم إلى السيارة، سأل رِنين الشاب: أتعرف مطعمًا صغيرًا لا يتردد عليه الكثير من الرواد، وليس بعيدًا، هنا في باريس؟

- حانة (لوتِتيا)، في الطابق الأرضي من المنزل حيث أقطن، ميدان ديه تيرنيه.

- ممتاز، هذا مثالي لنا.

بالكاد تحدثوا في الطريق، مع ذلك، تشكك رِنين في جاستون دوتريل.

- بقدر ما أستطيع أن أتذكر، لدينا أرقام النقود، أليس كذلك؟

- بلى، دوَّن ابن العم جيوم الأرقام الستين في دفتر ملاحظاته.

همس رِنين بعد برهة: هذه هي المشكلة، أين ذهبت النقود؟ دعونا نضع أيدينا عليها، ونصير بعدها على أرض صلبة.

في حانة لوتِتيا، كان الهاتف موضوعًا في قاعة خاصة إليها ذهبوا إلى أن يتم تقديم الغداء. حين صار رِنين وأورتِنس ودوتريل بمفردهم، التقط رِنين سماعة الهاتف بحزم: مرحبًا.. مركز الشرطة.. من فضلك آنستي.. مرحبًا.. مرحبًا.. مركز الشرطة؟ أود الاتصال بمركز الأمن. اتصال في غاية الأهمية. الأمير رِنين يتحدث.

التفت رِنين إلى جاستون دوتريل دون أن يفلت سماعة الهاتف: يمكنني دعوة أحدهما إلى هنا، أليس كذلك؟ سنحظى بكامل الهدوء؟

- بالتأكيد.

أنصت رِنين إلى مهاتفة مجددًا.

- هل أتحدث إلى سكرتير مدير الأمن؟ حسنًا رائع! سيدي السكرتير، إذا أُتيحت لي الفرصة لأكون على تواصُل مع السيد دودوا وتزويده بمعلومات مفيدة عن عدة أمور. لا شك أنه لا يتذكر الأمير رِنين. اليوم يمكنني اطلاعه على مكان الأوراق النقدية التي سرقها القاتل أوبريو من ابن عمه. إذا كان اقتراحي يثير اهتمامه، فيُرجَى إرسال مفتش إليَّ في حانة لوتِتيا في ميدان ديه تِرنيه. سأكون هناك مع سيدة والسيد دوتريل صديق السيد أوبريو. أحييكم سيدي السكرتير.

عندما أغلق رِنين الهاتف لاحظ النظرات المندهشة لأورتِنس وجاستون دوتريل. قالت أورتِنس: أنت تعرف إذن؟ لقد اكتشفت الأمر بالفعل؟

قال ضاحكًا: لا، على الإطلاق.

- إذن؟

- إذن سأتصرف كأنني أعرف، إنها حيلة كغيرها. دعونا نتناول الغداء، أنفعل؟

أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة إلا ربع الساعة بعد الظهيرة.

قال رِنين: في غضون عشرين دقيقة على الأكثر، سيصل. مبعوث مدير الأمن إلى هنا.

اعترضت أورتِنس: ماذا لو لم يحضر أحد؟

- هذا من شأنه مفاجأتي! آه، لو كُنت أخبرت السيد دودوا: «أوبريو بريء» لخسرت تأثيري. في اليوم السابق للإعدام، اذهبوا وأقنِعوا هؤلاء السادة في الشرطة أو العدالة بأن المحكوم عليه بالإعدام بريء! لا چاك أوبريوم، أصبح مِلكًا لجلاده بالفعل. لكن احتمال الوصول إلى الستين ألفًا هي صفقة تستحق العناء؛ لذا لتفكري أن هذه هي نقطة الضعف في الاتهام، هذه الأوراق النقدية التي تعثَّر العثور عليها.

- لكن بما أنك لا تعرف عنها شيئًا..

- صديقتي العزيزة، هل لي أن تسمحي لي أن أدعوكِ بذلك؟ صديقتي العزيزة، عندما لا يستطيع المرء تفسير مثل هذه الظاهرة الفيزيائية، يتبنى المرء بعض الفرضيات حيث تجد جميع مظاهر هذه الظاهرة تفسيرها، ويقول المرء إن كل شيء يحدث كما لو كان كذلك، هذا ما أفعله.

- بعبارة أخرى، أنت تفترض شيئًا؟

لم يُجِب رِنين. في نهاية الوجبة، لم يكُن قد مضى وقت طويل على سؤالها، أجاب: من الواضح أنني أفترض شَيئًا ما. إذا كان أمامي عدة أيام، سأتحمل عناء التحقق أولًا من هذه الفرضية، التي تستند إلى حدسي بقدر ما تستند إلى ملاحظة بعض الحقائق المتناثرة. لكن أمامي ساعتان فقط، وأمضي في الطريق المجهول كما لو كنت متأكدًا أنه يقودني إلى الحقيقة.

- ماذا لو أخفقت؟

- ليس لديَّ خيار آخر. علاوة على ذلك، فقد فات الأوان. أحدهم قد وصل. آه! كلمة أخيرة. مهما كانت كلماتي، لا تنكريها. والقول مُوجَّه لك أيضًا يا سيد دوتريل.

فُتِح الباب. دلف رجل نحيف، له لحية حمراء.

- الأمير رِنين؟

- هذا أنا يا سيدي. بلا شك إنك من طرف السيد دودوا؟

- نعم.

قدَّم الرجل نفسه: المحقق الأول موريسو.

قال الأمير رِنين: أشكركم على اجتهادكم، سيدي كبير المحققين، ويسرني أكثر أن السيد دودوا قد أرسلكم، وأنني أعرف سجل خدمتكم، وأتابع بإعجاب بعض حملاتكم.

انحنى المحقق في بادرة مجاملة: وضعني السيد دودوا رهن إشارتك، وبرفقتي اثنان من المحققين، ينتظران في الميدان، وكلاهما مسؤول عن القضية، مثلي، منذ البداية.

قال رِنين: لن يطول الأمر. لن أدعوك حتى للجلوس. لا بد من حل الأمر في غضون دقائق. أنت تعرفَ عما يدور الأمر؟

- سُرِقت ستون ألف فرنك من السيد جيوم، وها هي أرقام الأوراق النقدية.

فحص رِنين القائمة، وقال: صحيح. نتفق إذن.

بدا المحقق موريسو جادًّا للغاية.

- يُعلِّق الرئيس آمالًا كبيرة على اكتشافك. هل لك أن تخبرني عنه؟

حافظ رِنين على صمته للحظة، ثم أعلن: سيدي كبير المحققين، تحقيقي الشخصي، وهو تحقيق دقيق سأبلغكم بتفاصيله عن قريب، كشف لي أن القاتل، لدى عودته من سوريسن، بعد أن أعاد الدراجة إلى

السقيفة في شارع دو رول، جاء راكضًا إلى تيرينس وصعد إلى هذا المنزل.

- هذا المنزل؟

- نعم.

- لكن ما جاء به إلى هنا؟

- ليخبئ غنيمته، الآلاف الستين.

- كيف؟ أين؟

- في شقة كان يملك مفتاحها، تقع في الطابق الخامس.

صرخ جاستون دوتريل مندهشًا: لكن في الطابق الخامس، هناك شقة واحدة، وأنا أعيش فيها.

- صحيح. ولأنك تغيبت مع السيدة أوبريو ووالدتها حيث ذهبتم إلى السينما، استفاد المجرم من غيابك..

- مستحيل. لا أحد سوايَ يملك المفتاح.

- دلف دون مفتاح.

- لكنني لم أقتفِ أي أثر غريب.

قاطعهما موريسو: دعونا نرى. لنستجلي الأمر. أنت تقول إن النقود مخبأة في منزل السيد دوتريل.

- نعم.

- ولكن، بما أن چاك أوبريو تم اعتقاله صباح اليوم التالي، أتزال النقود في مكانها؟

- هذا رأيي.

عجز جاستون دوتريل عن إخفاء ضحكته، وقال: هذا سُخف. لكنت اكتشفت وجودهم.

- هل بحثت عنهم؟

- لا، لكن كنت لأعثر عليهم في أي لحظة. منزلي صغير، مثل قبضة اليد. أتريد رؤيته؟

- صغير مثل قبضة اليد، لكن يكفي لإخفاء ستين ألف فرنك.

قال دوتريل: على ما يبدو. كُل شيء وارد. ومع ذلك، يجب أن أكرر لكم أن أحدًا لم يدخل إلى المنزل، لم يدخل أحد إلى منزلي، المنزل له مفتاح واحد، وأنا أهتم بتنظيفه بنفسي، لا أفهم..

صارت أورتِنس لا تفهم ما يحدث. تعلقت نظراتها بعينَي الأمير رِنين تحاول فهم ما يدور في خلده. ما اللعبة التي يمارسها؟ هل يجب أن تدعم تأكيداته؟ وأخيرًا قالت: سيدي كبير المحققين، بناءً على ادعاء

الأمير رِنين أن النقود في الطابق الخامس من هذا المنزل، أليس أسهل طريقة لتأكيد قوله هي البحث عنها؟ سيَقودنا السيد دوتريل، أليس كذلك؟

قال الشاب: على الفور. هذا في الحقيقة الحل الأبسط.

صعد الأربعة الطوابق الخمسة من المبنى، وبعد أن فتح دوتريل المنزل، دخلوا إلى مسكنٍ ضيقٍ يتكون من غرفتَي نوم وخزانتين، ومرتب ترتيبًا دقيقًا. خمنوا أن المقاعد الوثيرة والكراسي التي احتلت غرفة المعيشة - كما يبدو - في محلها الصحيح. أنابيب التدفئة مستوية لا اعوجاج بها. وشماعة لها أذرع ثلاثة عُلِّقت على ثلاثة مسامير. على طاولة قاعدة التمثال، أمام النافذة، وُضِعت قبعة، وحافظة مليئة بالمناديل الورقية، وضعها دوتريل هناك بعناية. بجانبهما، وُضِعت قفازاته. لقد تصرف بهدوء وميكانيكية، مثل رجل يحب رؤية الأشياء في مكانها الذي اختاره لها؛ لذلك، بمجرد أن حرك رنين أحد الأغراض، رُسِمت على محيا دوتريل إيماءة احتجاج، ورفع قبعته، وعلَّقها على رأسه، وفتح النافذة، واتكأ على الحافة، واستدار ظهره، كما لو أنه لم يكن قادرًا على تحمُّل مثل هذا التدنيس.

وجَّه كبير المحققين سؤالًا لرِنين: أنتَ متأكد، أليس كذلك؟

- بلى، بلى. أؤكد أن المجرم، بعد ارتكاب الجريمة، أحضر الستين ألفًا إلى هنا.

- لنبحث.

كان البحث سريعًا وسهلًا. في غضون نصف ساعة لم يُترَك رُكن دون بحث، أو قطعة دون النظر خلفها.

قال المحقق موريسو: لا شيء. هل علينا الاستمرار في البحث؟

أجابه رِنين: لا. اختفت النقود من هنا.

- ماذا تقصد؟

- أعني أن أحدهم أخفاها.

- مَن؟ حدِّد اتهامك.

لم يُجِب رِنين. لكن وجه جاستون دوتريل تحوَّل إلى اللون البنفسجي. كان يختنق.

- سيدي المحقق، أتريدني أن أوضح الاتهام، الذي يشير إليه هذا الرجل؟ ما يعنيه أن هناك بيننا رجلًا غير شريف، اكتشف النقود التي أخفاها القاتل وسرقها هذا الرجل، غير النزيه، وأودعها في مكان أكثر أمانًا. هذه هي فكرتك يا سيدي، أليس كذلك؟ وأنا الذي تتهمه بالسرقة؟

تقدَّم إلى الأمام ولطم صدره عدة لطمات قوية: أنا! أنا! أنا وجدت النقود! واحتفظت بها لنفسي! أنت تجرؤ على هذا القول..

حافظ رِنين على صمته. غضب دوتريل أكثر ووجَّه حديثه إلى المحقق: سيدي المحقق، أعترض وبشدة على هذه المهزلة بأكملها. وعلى الدور الذي تلعبه فيها دون علمك. قبل وصولك، أخبرني الأمير رِنين أنا والسيدة أنه لا يعرف شيئًا، وأنه غامر في هذه المسألة بصورة عشوائية، واتبع أول خيط صادف تفكيره، معتمدًا في ذلك على حظه السعيد. أليس هذا صحيحًا يا سيدي؟

لم ينبس رِنين ببنت شفة.

- بربك تحدَّث أيها السيد! فسِّر موقفك؛ لأنك تزعم، في نهاية المطاف، ودون تقديم أي دليل، حقائق غير معقولة!! من السهل جدًّا الادعاء أنني مَن سرق تلك النقود. لكن أوليس علينا في البداية أن نثبت أنها وُجِدت هنا؟ مَن أحضرها؟ ولماذا اختار القاتل شقتي ليخبئ النقود داخلها؟ كُل هذا سُخف، لا منطقي، هُراء.. أريد أدلة يا سيد! دليلًا واحدًا!

بدا الارتباك على المحقق موريسو، رمق رِنين مستفسرًا.

أعلن هذا الأخير بلا مبالاة.

- لأنكم تُريدون أدلة، ستمنحنا إياها السيدة أوبريو. لديها هاتف. لنهبط. في غضون دقيقة سنعرف كُل شيء.

بادره دوتريل: كما تشاءون، لكنها مضيعة للوقت!

بدا غاضبًا للغاية. وقفته الطويلة أمام النافذة، أسفل أشعة الشمس الحارقة، جعلته يتعرق. ذهب إلى غرفته وعاد مع إبريق به ماء، أخذ منه بضع رشفات واستراح على حافة النافذة. ثم قال: لنذهب.

قال الأمير رِنين ساخرًا: مَن يراك سيقول إنك على عَجل لتغادر هذه الشقة؟

أجابه دوتريل وهو يغلق الباب: أنا لا أستطيع الانتظار لأشهد إحراجك.

هبطوا إلى الطابق السفلى، ثم اتجهوا إلى كابينة الهاتف. طلب رِنين من جاستون دوتريل رقم السيدة أوبريو، ضربه، وحمل السماعة.

ردت الخادمة على الهاتف، وقالت إن المدام أوبريو، وبعد نوبة اليأس التي أصابتها، فقدت وعيها، وهي الآن نائمة.

- أحضِري والدتها. الاتصال من جهة الأمير رِنين. الأمر عاجل.

مرر سماعة إلى موريسو. على أي حال، كانت الأصوات واضحة لدرجة أن دوتريل وأورتنس استطاعا سماع كل الحديث المتبادل.

- هذا أنتِ يا سيدتي؟

- نعم. أتحدث إلى الأمير رِنين، أليس كذلك؟ توسلت السيدة العجوز: آه يا سيدي! ألديك ما تقوله لي؟ هل هناك أي أمل؟

- يسير التحقيق بصورة جيدة، ولديكِ الحق في الأمل. في الوقت الحالي أطلب منكِ معلومات غاية في الخطورة. يوم الجريمة، هل جاء جاستون دوتريل إلى منزلك؟

- نعم. عقب الغداء. جاء ليصحبنا، أنا وابنتي.

- هل عرف حينها أن ابن العم جيوم يملك 60000 فرنك في منزله؟

- نعم، أخبرته بذلك.

- وهل عرف أن چاك أوبريو أصابته تلك الوعكة التي منعته عن نزهته المعتادة على متن دراجته النارية بعد الظهيرة؟

- نعم.

- أنتِ واثقة من ذلك يا سيدتي؟

- تمام الثقة.

- وكنتم معًا، ثلاثتكم، في دار العرض؟

- نعم.

- وكانت مقاعدكم متجاورة؟

- آه! لا. لم يخلُ مقعد جوارنا. جلس جاستون بعيدًا!

- في مكان يمكنكم رؤيته؟

- لا.

- ولكن خلال فترة الاستراحة جاء إليكم؟

- لا، لقد رأيناه مرة أخرى في أثناء مغادرة دار العرض.

- لا شك لديكِ في ذلك؟

- أبدًا.

- حسنًا سيدتي، في غضون ساعة سأبلغك بما آلت إليه جهودي. لكن قبل كل شيء، لا تُوقظي السيدة أوبريو.

- وماذا لو استيقظت؟

- طمئِنيها، وامنحيها الثقة. كُل شيء يسير على خير ما يُرام، وأفضل مما تمنيت.

وضع رِنين السماعة واستدار نحو دوتريل مبتسمًا: يا هذا، أيها الشاب، بدأ الأمر يأخذ منعطفًا آخر، ما رأيكَ؟

ماذا تعني تلك الكلمات؟ وما الاستنتاجات التي استخلصها رِنين من اتصاله؟ ساد صمت ثقيل ومؤلم.

- سيدي كبير المحققين، لديك رجالك في الميدان، أليس كذلك؟

- محققان.

- من الأفضل أن يحضرا إلى هنا. أستميحك أيضًا أن تتواصل مع مدير الأمن كي يشاركنا الجلسة.

عندما غادر موريسو أغلق رِنين الباب، ووقف أمام دوتريل هاتفًا بنبرة مرحة: بشكل عام، أيها الشاب، من الساعة الثالثة وإلى الخامسة من عصر هذا الأحد، لم ترَك السيدتان، وهذه حقيقة غريبة نوعًا ما.

أجاب دوتريل: حقيقة طبيعية للغاية. والتي، علاوة على ذلك، لا تثبت أي شيء.

- مَن يثبت، أيها الشاب، ما فعلت خلال تلك الساعتين؟

- قضيت الساعتين في صالة العرض، هذا جلي.

- أو في مكان آخر.

رمقه دوتريل: مكان آخر؟

- نعم، بما أنكَ كُنت حرًّا، كان لديك متسع من الوقت للذهاب في نزهة على الأقدام كما يحلو لك.. إلى نواحي سوريسن، على سبيل المثال.

قال الشاب بنبرة متهكمة: ويحك! ويحك! سوريسن؟ إنها بعيدة.

- بل قريبة! ألم تملك دراجة صديقة چاك أوبريو النارية؟

كسا صمت جديد الدقائق التالية لهذه الكلمات. عبس دوتريل كما لو كان يحاول هضم ما قيل. في النهاية، قال هامسًا: آه! هذا ما كان يحيكه، يا له من بائس!

هوت يد رِنين على كتفه: لا مزيد من الثرثرة. إليك الحقائق! جاستون دوتريل، أنت الشخص الوحيد الذي عرفَ في ذلك اليوم أمرين أساسيين: 1- أن ابن العم جيوم لديه ستون ألف فرنك في منزله. 2- أن چاك أوبريوم عاجز عن مغادرة المنزل. على الفور تراءى لك القيام بالأمر. كانت الدراجة النارية تحت تصرُّفك. تهربت في أثناء عرض الفيلم. زرت سورينس. قتلت ابن العم جيوم. أخذت الستين ألفًا. وحملتها إلى المنزل. وفي الساعة الخامسة قابلت السيدتين.

كان دوتريل يستمع بوجه ممتقع ومرتبك على حد سواء، ونظر من وقت لآخر نحو المحقق موريسو كما لو كان يحتاج إليه شاهدًا.

- إنه مجنون، لا تلوموه.

عندما انتهى رِنين، ضحك.

- مضحك.. مضحك للغاية.. إذن أنا مَن رآه الجيران ذاهبًا وعائدًا على الدراجة النارية؟

- نعم. أنت. مختبئ في ملابس چاك أوبريو.

- وآثار أصابعي هي التي وُجِدت على الزجاجة في مكتب ابن العم جيوم؟

- احتسى من تلك الزجاجة چاك أوبريو نفسه، على الغداء، في منزله، وأنت مَن حملها إلى هناك كدليل.

صاح دوتريل وقد بدا عليه التسلي بأمر مبهج: مضحك، تزداد نكاتك. إذن لفقت تهمتي إلى چاك أوبريو ليُحاكَم على ارتكاب الجريمة؟

- كانت تلك أكثر طريقة تضمن ألَّا تُحاكَم أنت بدورك.

- حسنًا، ولكن چاك صديق طفولتي.

- أنت تحب زوجته.

قفز الشاب عن مقعده، وقد اجتاحه غضب مفاجئ.

- كيف تجرؤ! ماذا؟! ما هذا العار؟

- لديَّ دليل على ذلك.

- كذبة. أنا دائمًا أُكِن الاحترام للسيدة أوبريو، الاحترام والتبجيل..

- ظاهريًّا. لكنك تحبها. تريدها. لا تنفي. لديَّ كل الأدلة.

- كذبة. أنت بالكاد تعرفني.

- حسنًا، كُنت أراقبك في الظل، وأنتظر لحظة الانقضاض عليك.

أمسك الشاب من كتفيه وهزه بعنف: هيا، دوتريل، اعترِف. لديَّ كل الأدلة. ولديَّ شهود سنلتقي بهم لاحقًا أمام القاضي. اقبل بذلك! على الرغم من كل شيء، يجتاحك الندم. تذكر رعبك في المطعم عندما قرأت الصحيفة. هاه! حُكِم على چاك أوبريو بالإعدام.. أنت لم تطلب الكثير! السجن بالنسبة له، كان كافيًا بالنسبة لك. لكن المقصلة.. إعدام چاك أوبريو غدًا، وهو بريء! اعترف بذلك، لإنقاذ رأسك. اقبل بذلك!

انقض عليه بكل قوته محاولًا انتزاع الاعتراف منه، لكن الآخر استقام، وببرود قال: أنت مجنون يا سيدي. ليست كلمة واحدة مما تقوله منطقية. كل اتهاماتك كاذبة. والأوراق النقدية، هل وجدتها في منزلي، كما زعمت؟

أشار رِنين الغاضب بقبضته إلى جاستون متوعدًا: آه! أيها الوغد، سأنال منك، اذهب. ووجَّه حديثه إلى المحقق: حسنًا! ما رأيك؟ شاب مشاغب، أليس كذلك؟

أومأ المفتش برأسه: ربما.. ولكن لا يزال.. حتى الآن.. لا تُوجَد أدلة حقيقية..

قال رِنين: انتظِر سيد موريسو. انتظِر مقابلتنا مع السيد دودوا؛ لأننا سنلتقي في القائمقامية، أليس كذلك يا سيد دودوا؟

- بلى، في غضون ثلاث ساعات.

- حسنًا! سوف تكون راضيًا يا سيدي كبير المحققين! أتوقع ذلك.

تحدَّث رِنين بثقة رجل واثق من الأحداث. كانت أورتِنس على مقربة منه، واستطاعت الحديث إليه دون أن يسمعها الآخرون، قالت بصوت خفيض: أنت تملكها أليس كذلك؟

هز برأسه: لو صدقتِ لأمسكت به! أنا لست متقدمًا في التحقيق أكثر مما كنت عليه في الدقيقة الأولى.

- يا للهول! والأدلة؟

- لا أملك أدنى دليل.. كُنت آمل ترويعه. تماسك بهدوء هذا الوغد.

- مع ذلك أنت واثق أنه المجرم؟

- على الأغلب لا أحد سواه. كان لديَّ الحدس منذ البداية، ومنذ ذلك الحين لا يغمض لي جفن. رأيت قلقه يتزايد، حيث بدا أن تحقيقي يدور حوله ويدنو منه. والآن أنا أعرف.

- هل يحب السيدة أوبريو؟

- منطقيًّا، نعم. لكن كل هذه افتراضات نظرية، أو يقينيات شخصية بالنسبة لي. لا تكفي لتقوده إلى المقصلة. آه! إذا عثرنا على النقود، فإن السيد دودوا سوف يستأنف التحقيق. خلاف ذلك، سيسخر مني في وجهي.

همست أورتِنس بقلب يتألم: ثم؟

لم يُجِب. كان يسير بخطى سريعة في الغرفة فاركًا يديه. كل شيء كان يسير على ما يُرام! حقًّا من الجيد أن تقلق بشأن الأعمال التي تسير على ما يُرام، إذا جاز التعبير.

- إذا ذهبنا إلى القائمقامية سيد موريسو؟ يجب أن يكون المدير هناك بالفعل، وعند هذه النقطة، قد ننهي الأمر. سيد دوتريل، أترى مرافقتنا؟

قال بغطرسة: لِمَ لا؟

ولكن بمجرد أن فتح رِنين الباب، صدح ضجيج في الممر، وركض مالك الحانة بوجه ممتقع.

- ألا يزال السيد دوتريل هنا؟ سيد دوتريل، ألسنة اللهب تلتهم شقتك! حذرنا أحد المارة من الأمر.. رآها من الميدان.

ومضت نظرات الشاب، ربما لمدة نصف ثانية، ابتسم نصف ابتسامة لاحظها رِنين.

- أيها اللعين! لقد خُنت نفسك! أنتَ مَن أشعل النار في شقتك، والآن تحترق النقود!

سد رِنين الطريق على دوتريل.

صاح دوتريل: اتركني بحقك! النار تشتعل، ولا أحد قادر على الولوج إلى الشقة؛ لأن أحدًا لا يملك المفتاح. انظر، ها هو.. دعني أمر أيها اللعين!

انتزع رِنين المفتاح من قبضته، وقبض على عنقه:

- لا تتحرك، يا عزيزي. الآن ربحت اللعبة. ويحك يا وغد! سيد موريسو، هل تأمر المحقق ألَّا يغفل عنه، وأن يفجر رأسه إن حاول التحرك؟ يمكننا الاعتماد عليك، أليس كذلك أيها المحقق؟ رصاصة في الرأس..

صعد الدرج على عَجل متبوعًا بأورتنس وكبير المحققين اللذين امتُعِضا على مضض:

- لنقيس الأمور، ماذا لو لم يشعل دوتريل النار؛ لأنه لم يفارقنا؟

- آه! أشعلها مسبقًا!

- كيف؟ أكرر: كيف؟

- كيف لي أن أعرف؟ لكن حدث كهذا لا يظهر من العدم، وفي الوقت نفسه الذي يحتاج المرء لأن يحرق فيه نقودًا مسروقة.

سُمِعت جلبة من الطابق العلوي. كان رجال الحانة يحاولون كسر الباب. عبق الدرج بالرائحة النفاذة.

وصل رِنين إلى الطابق العلوي: مكانكم أيها الرجال! المفتاح معي.

أدخله في القفل وفتحه.

صفعته موجة، عنيفة جدًّا، من الدخان. كان المرء ليظن أن الشقة بأكملها تحترق. لكن رِنين لاحظ على الفور أن الحريق قد خمد. لا مزيد من الأشياء لتُحرَق، فخفت اللهب.

- سيد موريسو، لا تدع أحدًا يدخل معنا، حسنًا؟ أدنى إزعاج قد يُبعثِر أوراقنا، والأفضل أن تغلق القفل.

دلف إلى الغرفة الأمامية حيث من الجلي أنها مصدر النار. لم تُصِب الأثاث والجدران والسقف سوى سوداء الدخان. في الواقع، لم تبقَ من النار سوى شعلة صغيرة تأكل في كومة أوراق في منتصف الغرفة لا تزال تحترق أمام النافذة.

لطم رِنين جبهته.

- يا لحماقتي! أنا غبي!

تساءل كبير المحققين: ما الأمر؟

- صندوق المناديل الورقية، الذي وُضِع على طاولة التمثال. هناك أخفى النقود. كانوا هناك حينها، في أثناء بحثنا.

- مستحيل!

- نعم، نحن نغفل ذلك دائمًا، هذا المكان المختبئ المرئي للجميع، في متناول اليد! كيف تعتقد أن اللص سيترك مبلغ ستين ألف فرنك في صندوق مفتوح، يشتتنا، نحن لا نبحث عن شيء واضح.. أحسنت يا سيد دوتريل!

قال كبير المحققين في تشكُّك: لا، لا مستحيل. كُنا برفقته، مستحيل أن يكون قد أشعل النار بنفسه.

- أُعِد كُل شيء مسبقًا في حالة وجود أخطار.. الصندوق، المناديل، الأوراق النقدية، كُل هذا.. لا بد أنه استخدم سائلًا قابلًا للاشتعال وغمص داخله تلك الأغراض. ربما ألقى بعود ثقاب في غفلة، أو شيء من هذا القبيل، أنَّى لي أن أعرف؟

- لكن لا، كُنا لنرى هذا، اللعنة! وهل يُعقَل أن رجلًا قتل في سبيل سرقة ستين ألف فرنك، أن يبددها بتلك الطريقة؟ إذا كان يخبئها في مكان جيد - وهذا أكيد لأننا لم نكتشفه - فلماذا هذا الدمار، غير الضروري؟

- أصابه الخوف يا سيد موريسو. لا ننسَ أنه يقامر برأسه. كُل شيء جائز عدا أن تُطيرها المقصلة. وكانت النقود لتكون دليلنا الوحيد ضده. كيف يتركه لنا؟

أصاب موريسو شعور صاعق.

- كيف؟! الدليل الوحيد..

- بالطبع!

- لكن ماذا عن شهودك؟ أدلتك؟ كُل ما كُنت تريد قصه على مسامع الرئيس؟

- خدعة.

تذمر المحقق المدهوش: حسنًا، صحيح.. لديك جرأة كبيرة!

- هل كُنت لترافقني من دونها؟

- لا.

- إذن فيم استياؤك؟

انحنى رِنين لتحريك الرماد. ولكن لم يتبقَّ من هذا الرماد الورقي ما يمكن الاحتفاظ به.

قال: لا شيء، الأمر يبدو مرحًا! كيف أمكنه أن يشعل الحريق؟

نهض وأخذ يفكر، بدت عيناه متوهجتين. شعرت أورتِنس أنه يبذل قصارى جهده، وأنه بعد معركته الأخير إما ليفوز أو يعلن هزيمته.

سألته بقلق: ضاع كُل شيء، أليس كذلك؟

أجاب بذهن شارد: نعم.. نعم.. لم يضع أي شيء، منذ ثوانٍ كان يتبدد، لكن الآن هناك بصيص يرتفع ويمنحني الأمل.

- وَي! يا إلهي! أهذا ممكن!

- دعونا لا نتعجل، إنها مجرد محاولة، ولكنها محاولة لطيفة جدًّا.. وقد تنجح.

صمت للحظة، ثم ابتسم، وقال بأنفة: وقح للغاية، يا دوتريل. تلك الطريقة لإحراق النقود.. ما هذا الاختراع؟! ويا لها من رباطة جأش! لقد جعلني أمُر بوقت عصيب هذا الحيوان! إنه متمرس!

بحث عن مكنسة ودفع بعض الرماد إلى الغرفة المجاورة ومنها جاء بصندوق مناديل بنفس حجم ومظهر الصندوق الذي تم حرقه، وضعه على المنضدة بعد نزع المناديل الورقية التي ملأته، وأشعل النار مستخدمًا عود ثقاب.

اندلعت ألسنة اللهب، التي خفتت بعد التهام نصف الورق المقوى، وكل المناديل الورقية تقريبًا. من جيب داخلي من معطفه، أخرج عددًا من الأوراق النقدية، وأخذ ستًّا منها، أحرقها بالكامل تقريبًا وجمع رمادها، وأخفى الباقي في الجزء السفلي من الورق المقوى بين الرماد والورق المحترق.

في النهاية قال: سيد موريسو، أسألك، للمرة الأخيرة، المساعدة. اذهب وأحضِر دوتريل. فقط أخبِره تلك الكلمات: «لقد كُشِفت، لم تحترق الأوراق النقدية، اتبعني» وأحضِره إلى هنا.

رُغم تردُّده، وخوفه من تجاوُز حيثيات المهمة التي أناطها إليه مدير الأمن، لم يستطِع كبير المحققين التخلص من سلطة وهيمنة رِنين، فخرج.

استدار رِنين للسيدة الشابة.

- هل تدركين خطتي للمعركة؟

قالت: نعم، لكن العواقب وخيمة. هل تعتقد دوتريل سيسقط في هذا الفخ؟

- الأمر يعتمد على ثباته الانفعالي، ومدى صفاء ذهنه. هجوم مفاجئ قد يشوشه.

- لكن، ماذا لو لاحظ، في أي وقت، الاختلاف بين الصندوقين؟

- آه! أعترف أننا لا نملك الفرص كافة. الرجل أذكى بكثير مما ظننت، وقادر للغاية على الإفلات من المصيدة. ولكن، من جهة أخرى، لكَم هو قلق! كم تندفع الدماء إلى أذنه ورأسه! لا، لا، لا أظنه سيتماسك.. سينهار..

لم يتبادلا كلمة أخرى. لم يتحرك رِنين. استمر الاضطراب داخل أروتِنس. إنها حياة رجل بريء. أي خطأ تقني، القليل من الحظ العسر، سيُعدَم، بعد اثني عشر ساعة، چاك أوبريو. في الآن نفسه، على الرغم من القلق العارم، فقد شعرت بفضول حارق. ماذا سيفعل الأمير رِنين؟ ماذا ستكون نتيجة تلك التجربة؟ كيف سيقاوم جاستون دوتريل؟ كانت تختبر واحدة من تلك اَللحظة غاية في التوتر التي يختبرها الإنسان فيشعر بقيمة الحياة القصوى.

سُمِعت دقات أقدام على الدرج. كانت دقات مسرعة. اقتربت الجلبة. دنت من الطابق العلوي.

نظرت أورتِس إلى رفيقها. نهض. أرهف السمع، تبدلت ملامح وجهه بالفعل. في الردهة، سُمِع صدى دقات الأقدام. ثم، فجأة، كما الزنبرك، استرخى. ركض نحو الباب وصرخ: أسرع! دعونا ننتهي من الأمر!

دلف المحققون ورجلان من الحانة. جذب، من بين المحققين، دوتريل، وجره من ذراعه قائلًا بابتهاج: مبارك! أيها العزيز. طاولة التمثال، والإبريق، ممتاز! تحفة فنية! ولكنها فشلت.

- ماذا؟! ما الأمر؟

- يا إلهي! حسنًا، لم تلتهم النار سوى نصف المناديل الورقية، والورق المقوى، هناك بعض الأوراق النقدية محترقة.. لكن الآخرون هناك.. هل تسمع؟ الأوراق الشهيرة.. الدليل الكبير على الجريمة.. إنها هناك، حيث أخفيتها.. عن طريق الصدفة لم تحترق.. هاك الأرقام.. يمكنك تعرُّفها.. لقد انتهيت تمامًا يا عزيزي.

تصلب الشاب. تحجرت مقلتاه. لم ينظر، كما دعاه رِنين، لم يفحص الورق المقوى أو النقود. الضربة الأولى تلقاها دون أن يأخذ الوقت الكافي للتفكير، ودون أن تحذره غريزته، صدَّق الأمر، وفجأة، إنهار على كرسي يبكي. قد نجح الهجوم المفاجئ، على حد تعبير رِنين. بعد أن رأى جميع خططه قد أُحبِطت وكشف العدو جميع أسراره، لم يعُد لدى الرجل البائس القوة أو البصيرة الكافية للتخلص من الأمر. لقد تخلى عن اللعبة.

لم يسمح له رِنين بالتقاط أنفاسه:

- في الوقت المناسب! أنت فقط تنقذ رأسك يا صغيري؛ لذا اكتب اعترافك؛ لتنقذ نفسك. هاك القلم.. آه! كنت شجاعًا، أعترف. ومع ذلك، لقد كُشِفت خديعتك في اللحظة الأخيرة. أليس كذلك؟ أنت لديك الأوراق النقدية، والتي تزعجك وتريد التخلص منها؟ لا شيء يمكن أن يكون أسهل. وضعت على حافة النافذة إبريقًا كبيرًا زجاجيًّا. ستشكل البلورة عدسة وتُركِّز أشعة الشمس إلى الورق المقوى والمناديل الورقية التي وضعتها في مكان تنعكس عليه الأشعة. بعد عشر دقائق، اشتعلت النيران. اختراع رائع! ومثل كل الاكتشافات العظيمة، يحدث هذا الحريق عن طريق الصدفة، أليس كذلك؟ تفاحة نيوتن؟ ستكون الشمس، التي تمر عبر مياه هذا الإبريق، قادرة أن تشعل الورق أو عودًا من الثقاب، ولأن الشمس ساطعة، قُلت لنفسك: «لنجرب» ووضعت الإبريق في المكان الصحيح. تحياتي يا جاستون. هاك ورقة. اكتب: «أنا قاتل السيد جيوم». واكتب بعد ذلك: «الأحمق».

انكفأ على الشاب، بكل إرادته العنيدة، وأجبره على الكتابة، ووجَّه يده وأملى الجملة. كتب دوتريل المنهك ما أُملِي عليه.

قال رِنين: سيدي كبير المحققين، إليكم الاعتراف. يُرجَى حمله إلى السيد دودوا. ووجَّه حديثه لرجال الحانة: أيها السادة، أنا متأكد أنكم ستوافقون على الشهادة.

لم يتحرك دوتريل. أضاف رِنين: يا هذا! أيها الرفيق، يجب أن نتحرك الآن. كنت أحمق بما فيه الكفاية للاعتراف، استمِر في مهمتك.

رمقه جاستون دوتريل وهو يقف أمامه، فاستأنف رِنين حديثه: أنت مجرد أحمق. أُحرِق الورق المقوى، وكذلك النقود. هذا الصندوق، هو صندوق آخَر. يا عزيزي، تلك النقود، نقودي. حتى إنني أحرقت ست ورقات نقدية لأحيك المصيدة. لم ترَ شيئًا سوى النار. هل عليك أن تكون غبيًّا؟ في اللحظة الأخيرة منحتني دليلًا، ولم يكُن لدينا دليل واحد! وأي دليل! اعترافك المكتوب. اعترافك مكتوب أمامك! اسمع، يا رجلي العزيز، إذا قُطِع رأسك، كما آمل، فأنت تستحقها. الوداع دوتريل!

سأل الأمير رِنين من أورتِنس دانيال وهما في الشارع أن تأخذ السيارة وتذهب إلى مادلين أوبريو لتبلغها ما حدث.

سألت أورتِنس: وماذا عنك؟

- لديَّ الكثير لأفعله، مواعيد عاجلة.

- وكيف ترفض بهجة إعلامها بالخبر؟

- إنها فرحة سئمنا منها. البهجة الوحيدة المتجددة كُل يوم هي بهجة القتال. بعد ذلك، لا يعود للأمر أهمية.

أمسكت بيده واستبقتها في يدها للحظة. كانت تود أن تعرب عن جم إعجابها بهذا الرجل الغريب الذي بدا أنه يقوم بالعمل كالرياضة، والذي فعل ذلك بنوع من العبقرية. لكنها عجزت عن الكلام. كُل هذه الأحداث أزعجتها. شعرت بعاطفتها تتجمع في عَبرَات داخل مقلتيها.

انحنى لها قائلًا: شكرًا لكِ. وصلتني مكافأتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

تيريز وچيرمِن

جاء فصل الخريف لطيفًا لدرجة جعلت سكان منطقة إيترتا، العالقين في فيلاتهم، يهبطون إلى شاطئ البحر في الثاني من أكتوبر. يمكن القول إن بحيرة جبلية تقع خلف تلك السحب المتراصة في الأفق وتحجزها الصخور، كانت لتظهر لولا الغيوم المتكاثفة التي تصبغ السماء بلونٍ رمادي شاحب، وتمنح أيامًا بعينها سحرًا يطغى على تلك البقاع.

قالت أورتِنس: إنها لطيفة، وأضافت بعد لحظة: لكننا لم نأتِ لنتمتع بمناظر الطبيعة، أو لنتساءل ما إذا كانت تلك الصخرة الأسطوانية القائمة على يسارنا كانت بالفعل ذات يوم منزلًا لأرسين لوبين.

أجابها الأمير رِنين: لا، وفي الواقع عليَّ الاعتراف أن الوقت قد حان لأشبع فضولك المشروع.. أو على الأقل جزءًا من الفضول؛ لأن يومين من المراقبة والبحث لم تُفضِ بي لأيٍّ مما أريد الوصول إليه.

- كُلِّي آذان مصغية.

- لن أطيل الحديث على أي حال. ولكن لنبدأ بشيء من الاستطراد.. ستعترفين، يا صديقتي العزيزة، أنني وهبت خدماتي لأقراني من الناس، ولأفعل ذلك؛ عليَّ أن أملك أصدقاء في كُلِ مكان يشيرون إلى حيث يحتاج الناس لخدماتي. عادةً ما تصلني تحذيرات تبدو تافهة أو غير مهمة وأعرض عنها. لكن، الأسبوع الماضي، وصلني تحذير عن طريق مكالمة هاتفية مفاجئة من أحد أصدقاء المراسلة، لن تعدمي تميُّز أهميتها. من شقتها، الواقعة في باريس، كانت سيدة تتواصل مع رجل عابر يقطن فندقًا في مدينة كبيرة قريبة من باريس. اسم المدينة، اسم السيد، اسم السيدة.. كلها لغز. كانا يتحدثان بالإسبانية، لكن بلغة دارجة أشبه بلهجة فرنسية دارجة تُدعَى (جافانيه)، وكذلك كانا يتحدثان بلكنة مدغمة. مهما كانت الصعوبات التي وضعاها لنا كي لا نلاحظ ما يدور في محادثتهما بأكملها، فقد تمكنا من فهم جوهر الأشياء الخطيرة للغاية التي قالاها، والتي حرصا بشدة على إخفائها! ويمكن تلخيص حديثهما في النقاط الآتية: 1- هذا الرجل وهذه السيدة، هما أخ وأخت، كانا ينتظران لقاء شخص آخر، هناك سيدة متزوجة، وراغبة في استعادة حريتها نظير أي ثمن. 2- وكان من المقرر أن يتم التأكيد على هذا اللقاء، المحدد مبدأيًّا في الثاني من أكتوبر، عن طريق إعلان مُشفر، يُنشَر في إحدى الصحف. 3- اللقاء، في الثاني من أكتوبر، ستعقبها، في نهاية اليوم، نزهة على المنحدرات، يحضر إليها الشخص الثالث، المطلوب التخلص منه. هذه هي أساسيات المسألة. وغنيٌّ عن القول إنني راقبت كُل المراسلات والإعلانات على الصحف الباريسية. الآن، في اليوم السابق لصباح أمس، قرأت في أحدها هذا السطر: «نلتقي في الثاني من أكتوبر. منتصف النهار 3- ماتيلد». ولأن الأمر متعلق بالمنحدرات، خمنت أن الجريمة ستقع على ساحل البحر. ولأنني أعرف أن هناك منطقة في إيترتا تُدعَى ليه تروا ماتيلد ([1])، وأنه ليس باسم شائع؛ لذا غادرنا في اليوم نفسه لعرقلة مشروع هؤلاء المجرمين.

سألت أورتِنس: أي مشروع؟ أنت تتحدث عن جريمة. تخمين خطأ ربما؟

- على الإطلاق. أشارت المحادثة التي سمعناها إلى زواج، إما زواج الأخ، أو الأخت، من الشخص الثالث؛ مما يعني إمكانية ارتكاب جريمة، أي في هذه الحالة، سيتم إلقاء الضحية المعنية، هذا الزوج أو الزوجة، الليلة، في الثاني من أكتوبر، من أعلى الهاوية. كل هذا منطقي تمامًا، ولا يدع مجالًا للشك.

كانا يجلسان على شرفة الكازينو، أمام السلالم التي تهبط إلى الشاطئ. وهكذا تمكَّنا من الإشراف على بعض الكبائن القائمة على الشاطئ، بينما تجاذبت مجموعة من السيدات أطراف الحديث في أثناء انشغالهن بأعمال التطريز.

أبعد من ذلك، وإلى الأمام، كانت هناك مقصورة أخرى، معزولة ومغلقة. ونصف دزينة من الأطفال، حفاة السيقان يلعبون في الماء.

قالت أورتِنس: حسنًا! هذا السحر الخلاب للخريف لا يأسرني، بل أعطي انتباهي لأُصدّق جميع افتراضاتك لدرجة تجعلني عاجزة عن صرف انتباهي عن المشكلة المروعة.

- مروعة، أيتها الصديقة العزيزة، الكلمة الصحيحة، وصدقيني أنني منذ أول أمس، أُقلِّب الأمر على كافة الأوجه.. هي: العبث. يا للأسف!

- العبث.. كررتها، ثم سألت: ماذا سيحدث؟ وتابعت بصوت خفيض: مَن منهم مُهدد؟ اختار الموت ضحيته بالفعل. أيهما؟ هل تلك الشقراء الشابة التي تضحك وتتأرجح؟ أم هذا الرجل الضخم الذي يدخن؟ ومَن بين الجميع يُخبئ فكرة الجريمة في رأسه؟ كُل أولئك الناس مسالمون ويحظون بوقت ممتع. مع ذلك يحوم الموت حولهم.

قال رِنين: في الوقت المناسب.. سنعرف. أنتِ شغوفة للغاية. هل سبق وأخبرتك بذلك؟ الأمر برمته مغامرة، ولا شيء أفضل من المغامرة. جميعًا نرتجف شغفًا لنعرف ما سيحدث. أنتِ تشاركين في جميع المآسي التي تدور من حولكِ، ويستفيق إحساسكِ بالغموض. انظري، ما رأيكِ في تلك العائلة القادمة! هل تعرفينها من قبل؟ ربما هذا الرجل النبيل يريد قمع زوجته؟ أو تلك السيدة تحلم بالتخلص من زوجها؟

- آل دامبرفال؟ مستحيل! إنهم أسرة مثالية! يوم أمس، في الفندق، تحدثت طويلًا مع السيدة وأنت..

- آه! أنا لعبت الجولف مع چاك دامبرفال، الذي يتصرف قليلًا كما الرياضيين، ولعبت بالعرائس مع ابنتيه الصغيرتين الرائعتين.

اقتربت أسرة دامبرفال وتبادلوا بضع جمل. حكت السيدة دامبرفال أن طفلتيها عادتا إلى باريس في الصباح مع مربيتهما. زوجها، رجل طويل القامة له لحية شقراء والذي خلع سترته وفتح أزرار قميصه، تذمر من الحرارة.

سأل زوجه: تيريز، هل لديكِ مفاتيح المقصورة؟ كانا قد تركا رِنين وأورتِنس وهبطا بالفعل أولى درجات السلم.

قالت المرأة: ها هو، هل ستقرأ الصحف؟

- نعم. إلّا لو تحبذين التنزه معًا؟

- ربما بعد ظهر اليوم، حسنًا؟ لديَّ عشر رسائل لأكتبها هذا الصباح.

- حسنًا، لنذهب إلى المنحدرات.

تابع أروتِس ورِنين الحديث بدهشة. هل التخطيط لهذه النزهة جاء مصادفة؟ أم أنهما كانا، على عكس التوقعات، في حضرة الرجل والمرأة المنشودين؟

حاولت أورتِس تصنع الضحك وقالت هامسة: قلبي يخفق. مع ذلك، لا أصدق تمامًا أن هذا الشيء معقول. قالت لي: لم يقع بيني وبين زوجي جدال واحد. لا، من الجلي أنهما منسجمان بشكل رائع.

- سنرى قريبًا، في تروا ماتيلد، إذا جاء شخص ثالث ولحق بالزوجين، ليعثر على أخته أو ربما أخيه.

كان السيد دامبرفال قد هبط الدرج، بينما ظلت زوجته متكئة على درابزين الشرفة. كان لديها جسد جميل ممشوق ومرن. برز زوجها بشكل واضح بين الرجال الذين تحركوا أمامها. عندما تخلى عن ابتسامته ظهر على وجهه انطباع بالحزن والمعاناة.

- چاك، هل فقدت شيئًا؟ صاحت موجهة الحديث إلى زوجها حين رأته ينحني نحو الرمال.

- نعم، المفتاح. انزلق من يدي..

انضمت إليه ليبحثا عن المفتاح. استغرق البحث دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم استدارا إلى اليمين واختفيا خلف مجموعة من لاعبي الورق حجبوهما عن عيون أورتِس ورِنين. وحجب صوت الجدال بينهم أصواتهما.

ظهرا بعد بُرهة، تقريبًا في الوقت نفسه. صعدت السيدة دامبرفال إلى الشرفة مجددًا وأشاحت بنظراتها نحو البحر، واتجه السيد، الذي وضع سترته على كتفيه، نحو المقصورة المعزولة. لكن خلال طريقه إلى المقصورة، استوقفه لاعبو البريدج ليكون شاهدًا على لحظة كشف الأوراق على الطاولة. بإيماءة رفض إعطاء رأيه، وابتعد عنهم قاطعًا الخطى الأربعين التي فصلته عن مقصورته، وفتح بابها ودلف.

جلست تيريز دامبرفال لمدة عشر دقائق على مقعد في الشرفة. ثم غادرت المكان. تبعتها أورتِس بنظراتها، فرأتها تدخل أحد الأكواخ الملحقة بفندق أوفيل، ورأتها بعد لحظة تظهر على شرفة ذلك الكوخ.

قال رِنين: إنها الحادية عشرة. سواء كانت هي، أو هو، أو أحد لاعبي الورق، أو واحدة من صديقاتهم، أو أيًّا كان.. لن يمر وقت طويل قبل أن يغادر شخص من هنا إلى الموعد المحدد.

مرت عشرون دقيقة، خمس وعشرون دقيقة.. لم يتحرك أحد.

قالت أورتِنس التي أصابها شيء من التوتر: ربما ذهبت السيدة دامبرفال إلى هناك، اختفت عن شرفتها.

- إذا كانت في تروا ماتيلد، سوف نفاجئها هناك.

كان ينهض، حين استثارت مسألة جديدة لاعبي البريدج، وصاح أحدهم: لنستشير دامبرفال.

قال آخر: فليكن. موافق.. ومع ذلك إذا كُنا سنعيِّنه حَكمًا، فهو يبدو متجهمًا طوال الوقت.

نادى آخر: دامبرفال! دامبرفال!

ثم لاحظوا أن دامبرفال أغلق باب المقصورة مما أبقاه في شبه ظلمة؛ لأن تلك المقصورات تفتقر للنوافذ.

- لقد نام، دعونا نوقظه.

- دامبرفال! دامبرفال!

ذهب الأربعة إلى عتبة باب المقصورة ونادوه دون تلقِّي أي إجابة، ثم طرقوا الباب.

قال أحدهم: حسنًا! ما الأمر يا دامبرفال! هل نمت؟

على الشرفة نهض الأمير رِنين فجأة بقلق أثار دهشة أورتِنس. ضغط على كلماته قائلًا: ما زال الوقت مبكرًا!

قبل أن تسأله أورتِنس، كان قد هبط الدرج بسرعة وركض نحو المقصورة. حين وصل كان لاعبو البريدج الأربعة يحاولون بالفعل كسر الباب.

أمرهم: توقفوا! يجب ألّا نتصرف بهرج.

سأله أحدهم: ماذا تقصد؟

فحص الفتحات في الباب، ولاحظ أن واحدة من الفتحات العلوية مكسورة، زج بنفسه قدر الإمكان إلى الداخل عبر الفتحة.

سأله واحدٌ: ما الأمر؟ أيمكنك أن ترى؟

عاد إليهم وقال للسادة الأربعة: أعتقد، اعتقادًا قويًّا، أن السيد دامبرفال لم يُجبكم؛ لأن حدثًا خطيرًا منعه من ذلك.

- حدثٌ خطيرٌ؟

- نعم، لديَّ أكثر من سبب يدفعني للاعتقاد في أن السيد دامبرفال مصاب.. أو ميت.

صرخ أحدهم: كيف؟! ميت؟! لقد غادرنا للتو!

أخرج رِنين سكينه، وعالج المزلاج، ثم فتح دفتي الباب.

صدحت صرخات رعب. كان السيد دامبرفال مستلقيًا على الأرض، مسطحًا على بطنه، وكلتا يديه مشدودتان إلى سترته وصحيفته والدم يتدفق من ظهره مُخضِّبًا قميصه.

قال أحدهم: لقد قتل نفسه.

قال رِنين: كيف يقتل نفسه؟ الجرح في منتصف الظهر تمامًا، في مكان لا يمكن ليده أن تصل إليه، ولا يُوجَد أي سلاح في المقصورة.

احتج اللاعبون: هي جريمة إذن؟ لكن مستحيل! لم يدلف أحد إلى هنا. كُنا سنرى.. لا يمكن لأحد أن يمر دون أن نراه..

اندفع السادة والسيدات والأطفال اللاهون على الشاطئ محاولين الدخول إلى المقصورة. بينما دافع رِنين عنها وحده. سُمِح فقط للطبيب أن يدلف. ولم يكُن في مقدوره سوى أن يعلن وفاة السيد دامبرفال الناتجة عن طعنة.

في الوقت نفسه وصل الحاكم ورجال الشرطة مع عدد من سكان المدينة، وتمت الإجراءات المعتادة، ثم حُمِلت الجثة بعيدًا.

كان عدد من الناس قد غادروا بالفعل لتحذير تيريز دامبرفال التي رأوها تقف مرة أخرى على شرفتها.

وهكذا وقعت مأساة دون أي إشارة إلى فهم كيف يمكن لرجل محبوس في مقصورة ويحميه باب مغلق، مزلاجه سليم، أن يُقتَل في غضون بضع دقائق وأمام عشرين شاهدًا؛ أي عشرين متفرجًا؟! لم يدخل أحد المقصورة. لم يخرج منها أحد. أما عن الخنجر الذي طُعِن به دامبرفال بين الكتفين، فلم يكُن من الممكن اكتشافه. وكل هذا كان من شأنه أن يثير فكرة خفة اليد التي يتميز بها ساحر ذكي، لو لم تكُن جريمة فظيعة تم تنفيذها في ظل أكثر الظروف غموضًا.

لم تستطِع أورتِنس أن تتبع، كما تمنى رِنين، المجموعة الصغيرة من الناس التي ذهبت إلى السيدة دامبرفال. شلتها العاطفة. كانت المرة الأولى التي تصل بها مغامرتها مع رِنين إلى قلب الحدث، وأنها بدلًا من رؤية عواقب الجريمة أو التورط في مطاردة المذنبين، تشهد الجريمة بأم عينها.

ظلت ترتجف وتتلعثم:

- يا له من رعب! يا للمسكين! رِنين، لم تستطِع إنقاذه، هذا الرجل! وأشد ما يزعجني في الأمر أننا كُنا قادرين على إنقاذه؛ لأننا كنا نعرف المؤامرة..

دفعها رِنين لتستنشق قارورة من الملح، وعندما استعادت رباطة جأشها، قال وهو يراقبها باهتمام: أنتِ تعتقدين إذن في وجود علاقة بين تلك الجريمة والمؤامرة التي أردنا إحباطها؟

قالت مندهشة من هذا السؤال: بالتأكيد.

- حسنًا، بما أن هذه المؤامرة نظَّمها رجل ضد زوجته، أو امرأة ضد زوجها، وبما أن الزوج هو مَن قُتِل، أنتِ تعترفين أن المذنبة هي السيدة دامبرفال؟

قالت: لا.. مستحيل! أولًا، لم تغادر السيدة دامبرفال كوخها.. ثانيًا، لا أظن أبدًا أن تلك المرأة الجميلة قادرة.. لا.. لا.. هناك شيء آخر.. بلا شك..

- ما هو؟

- لا أعرف.. ربما أخطأت في فهم ما دار بين الأخ وأخته.. لقد رأيت بنفسك أن الجريمة وقعت في ظروف مختلفة تمامًا.. في ساعة مختلفة، وبطريقة مختلفة..

خلص رِنين: وبالتالي، القضيتان ليستا ذات صلة؟

- آه! هناك شيء غير مفهوم! الأمر برمته غريب!

تحلى رِنين بقليل من السخرية: تلميذتي لا تُشعِرني بالفخر اليوم.

- بأي طريقة؟

- ما قصدكِ؟! القصة بسيطة جدًّا، تحققت أمام عينيكِ، رأيتِها كيفما نرى مشهدًا سينمائيًّا. وكل هذا يبقى بالنسبة لكِ غامضًا، كما لو كنتِ سمعتِ عن قضية قد تحدث في قبو على بُعْد ثلاثين فرسخًا من هنا!

شعرت أورتِنس بالارتباك: ماذا تقصد؟ كيف! لقد فهمت ما حدث؟ ما أدلتك؟

نظر إلى ساعته، وقال: لم أفهم كل شيء. لكن الجريمة نفسها، بتلك الوحشية، نعم فهمتها. لكن الشيء الرئيس؛ أي سيكولوجية الجريمة، لا أملك إشارات لفهمها. عدا أننا منتصف النهار. الأخ وأخته، يعرفان أن أحدًا لن يظهر للقائهما في تروا ماتيلد، سيهبطان إلى الشاطئ. ألا تظنين أننا ساعتها سنعرف بالمؤامرة التي حاكاها، وأنا أتهمهما بها، وعن العلاقة بين الجريمتين؟

وصلا إلى المتنزه الذي تحده أكواخ فندق أوفيل حيث يرفع الصيادون قواربهم باستخدام الرافعات. كان هناك تجمُّع من الأشخاص الفضوليين عند باب أحد المنازل الريفية. وشرطيان يحميان الباب.

اخترق حاكم المدينة الحشد بسهولة. كان للتو قد عاد بعد مكالمة هاتفية أجراها مع المركز في لوهافر خلالها أفاد مكتب المدعي العام، أن المدعي العام، وقاضي التحقيق سيصلان إلى إيترتا بعد الظهيرة.

قال رِنين: هذا يمنحنا فرصة طوال فترة الغداء. لن يُستأنَف العرض إلا قبل ساعتين أو ثلاث. ولديَّ فكرة يمكن تنفيذها.

أسرعا في التحرك. أورتِنس، المنهكة والمدفوعة برغبة المعرفة، لم تتوقف عن استجواب رِنين الذي أجابها على عَجل بعينين تتحركان في محجريهما نحو المتنزه المترائي لهما عبر زجاج صالَة الطعام.

سألته: هل تتجسس عليهما؟

- نعم، الأخ وأخته.

- هل أنت واثق أنهما سيخاطران؟

- انتبهي! ها هما ذا.

خرج مسرعًا.

عند بداية الشارع الرئيس تقدَّم رجل وامرأة بخطوات مترددة، كما لو أنهما لا يعرفان المكان. كان الأخ رجلًا ضئيل الحجم ونحيفًا له بشرة تميل إلى لون الزيتون ويرتدي قبعة سائق السيارة. والأخت، ضئيلة الحجم أيضًا، قوية البنيان، ترتدي معطفًا ضخمًا، بدت لهما متقدمة في العمر، لكن تحافظ على جمالها، ويغطي وجهها حجاب خفيف.

رأيا الجمع المحتشد فدنيا منه. خانتهما خطواتهما المترددة القلقة.

اقتربت الأخت من أحد البحارة، وعند كلماته الأولى، ربما حين أنبأها بخبر وفاة دامبرفال، انطلقت منها صرخة، وحاولت اختراق الحشد. أما الأخ بدوره وجد طريقه لأحد الشرطيين، وقال: أنا صديق لدامبرفال.. إليك هويتي، فردريك آستيانج.. أختي چيرمِن آستيانج، صديقة مقربة من السيدة دامبرفال! كانا في انتظارنا.. كان بيننا موعد!

سُمِح لهما بالمرور. تبعهم رِنين الذي كان قد لحق بهما ووقف خلفهما مباشرةً دون أن ينبس ببنت شفة ومعه أورتِنس.

في الطابق الثاني من الكوخ كان لآل دامبرفال أربع غرف نوم، وغرفة معيشة. هُرِعت الأخت إلى واحدة من تلك الغرف، وسقطت على ركبتيها أمام السرير الذي أُسجِيت فوقه الجَثة. كانت تيريز دامبرفال في الصالة تبكي وسط عدد قليل من الأشخاص الجالسين في صمت حولها. جلس الأخ بجانبها، احتضن يدها في قوة، وقال بصوت يرتجف: صديقتي المسكينة! يا لصديقتي المسكينة!

رمق رِنين وأورتِنس الثنائي لفترة طويلة، ثم همست أورتِنس: ومن أجل هذا الشخص تقتل؟ مستحيلَ!

علَّق رِنين: مع ذلك، إنهما يعرفان أحدهما الآخر، ونحن على علم أن فردريك آستيانج وأخته كانا على موعد مع شخص ثالث يعرفانه جيدًا. شخص شريك لهما؛ لذلك...

كررت أورتِنس: مستحيل!

ورغم كُل الافتراضات، فقد شعرت بتعاطف كبير مع السيدة الشابة لدرجة أن نهضت، فور نهوض فردريك آستيانج، وجلست إلى جوار السيدة دامبرفال وعزَّت بصوت ناعم. أزعجتها كثيرًا دموع السيدة التعيسة.

من ناحية أخرى، اهتم رِنين بمراقبة الأخ والأخت، كما لو كان لهما الأهمية القصوى، ولم يرفع عينيه عن فردريك آستيانَج الذي، بطريقة غريبة، بدأ يفحص أدق تفاصيل المنزل. ألقى نظرة على الصالة، دلف إلى كُل الغرف، واختلط بالحاضرين، وطرح أسئلة حول كيفية ارتكاب الجريمة. مرتين، جاءت أخته إليه لتخاطبه. ثم عاد إلى السيدة دامبرفال، وجلس من جديد إلى جوارها، والتعاطف والاهتمام جليان عليه. في الأخير اجتمع مع أخته في غرفة الانتظار، ودار بينهما حديث

طويل قبل أن يفترقا، كما لو كانا قد اتفقا على نقاط الخلاف. وغادر فردريك. استمرت تلك الأحداث لمدة ثلاثين إلى أربعين دقيقة.

في هذه اللحظة ظهرت السيارة التي تحمل قاضي التحقيق والمدعي العام. قال رِنين، الذي لم يتوقع حضورها مبكرًا، لأوترِنس: علينا أن نُسرِع، لا تتركي السيدة دامبرفال مهما كلفكِ الأمر.

وطلب من الأشخاص الذين قد يكون لشهاداتهم أي فائدة أن يجتمعوا على الشاطئ الذي يبدأ فيه قاضي التحقيق تحقيقًا أوليًّا. ثم كان عليه أن يذهب إلى السيدة دامبرفال. الآن غادر الجميع المنزل.

لا يُوجَد سوى الشرطيين وچيرمِن آستيانج.

ركعت چيرمِن مرة أخرى بالقرب من الجثة المسجاة، وانحنت أمامها، رأسها بين يديها، وصلت فترة طويلة، ثم نهضت وفتحت الباب المفضي إلى الدرج عندما تقدَّم رِنين.

- لديَّ حديث قصير أريد أن أُفضِي به إليكِ سيدتي.

بدت عليها الدهشة وأجابته: أخبِرني سيدي، أنا منصتة.

- ليس هنا.

- أين إذن يا سيدي؟

- في الجوار، في غرفة المعيشة.

قالت بحدة: لا.

- لماذا؟ رُغم عدم مصافحتكِ لها، أفترض أن السيدة دامبرفال صديقتكِ؟

لم يترك لها الوقت لتفكر وقادها إلى الغرفة الأخرى، التي أغلق بابها، وفي الحال، هُرِع إلى مدام دامبرفال، التي أرادت الخروج والعودة إلى غرفتها، وقال: لا يا سيدتي، أنصتي، أتوسَل إليكِ. إن وجود السيدة آستيانج لا ينبغي أن يزعجكِ، أمامنا مهمة خطيرة للغاية ولا يمكن إضاعة دقيقة واحدة.

وقفت السيدتان أمام إحداهن الأخرى، كلتاهما تبادلتا نظرة الكراهية والمقت ذاتها، نظرات جعلت من السهل تخمين ما في داخليهما من اضطراب وغضب. كانت أورتِنس، التي اعتقدت أنهما صديقتان، يعتريها التوتر، بل وربما اعتقدت أنهما شريكتان، وزاد خوفها من الصدمة التي قد تواجهها، والتي ستحدث حتمًا. جلستا تيريز ودامبرفال، بينما وقف رِنين في منتصف الغرفة، وقال بصوت حازم: الصدفة، التي جعلتني على دراية بالحقيقة، ستسمح لي بإنقاذكما، إذا كنتما ستساعداننني بتوفير شرح صريح من شأنه أن يعطيني المعلومات التي أحتاج إليها. كلٌّ منكما يعرف الخطر؛ لأن كلتاكما، في أعماقكما، تعرفان الشر الذي أنتما مسئولتان عنه. الكراهية تدمر طريقكما والأمر متروك لي وحدي، أنا مَن يملك رؤية واضحة للتصرف. في غضون نصف ساعة، سيكون قاضي التحقيق هنا. وقبل تلك اللحظة، يجب التوصل إلى اتفاق.

كلتاهما ذُهِلت كما لو أخرستهما تلك الكلمات.

كرر بصوت أكثر حدة: نعم، الاتفاق. طوعًا أو كرهًا سيتم ذلك. أنتِ لستِ وحدكِ يا سيدة دامبرفال، هناك فتاتان صغيرتان، وبما أن الظروف قد وضعتني على طريقهما، فإنني أتدخل للدفاع عنهما وخلاصهما. خطأ واحد، كلمة واحدة، ستتسبب في ضياعهما، وهذا لن يحدث.

عند ذِكر أطفالها، انهارت السيدة دامبرفال وغرقت في الدموع. تجاهلتها جيريمن آستيانج، وتحركت نحو الباب لكن رِنين اعترضها مرة أخرى.

- أين تذهبين؟

- قد استدعاني قاضي التحقيق.

- لا لم يفعل.

- نعم فعل، وكذلك جميع مَن يتعين عليهم الإدلاء بشهاداتهم.

- لم تكوني حاضرة. لا تعرفين شيئًا عما جرى. أحدٌ لا يعرف شيئًا عن هذه الجريمة.

- أنا أعرف مَن ارتكبها.

- مستحيل!

- تيريز دامبرفال.

ألقت الاتهام وقد اعتراها موجة من الغضب وبإيماءة تهديد واضحة.

صرخت السيدة دامبرفال وهي تُهرَع نحو تيريز: بائسة! تعالي إلى هنا! يا للكِ من امرأة بائسة!

حاولت أورتِنس احتواءها، لكن رِنين أمرها بصوت خفيض: اتركيهما، هذا ما أريده.. أن يتراشقا التهم، وبالتالي ستظهر الحقيقة.

تحت وطأة الإهانة بذلت السيدة آستيانج جهدها لتضحك، وقالت ساخرة: بائسة؟ لماذا؟ لأنني أتهمكِ؟

- بسبب كل شيء! كل شيء! أنتِ بائسة! أتسمعيني يا چيرمِن، أنتِ بائسة!

كررت تيريز دامبرفال إهانتها كما لو كان لترديدها فضل في راحتها. هدأ غضبها. وربما أيضًا فقدت قواها، حان دور السيدة آستيانج الآن لتُسدِّد هجمتها، قبضتاها متأهبتان، ووجهها متشنج.

- أنتِ! أنتِ تجرؤين على إهانتي، أنتِ! أنتِ! بعد ما اقترفتِه من جريمة! تجرؤين على رفع رأسكِ بينما الرجل، الذي قتلتِه، هنا، مُلقًى على سريره جثة هامدة؟! آه! إذا إحدانا بائسة، فهو أنتِ بالتأكيد يا تيريز! لقد قتلتِ زوجكِ! قتلتِ زوجكِ!

قفزت مدفوعة بلهب الكلمات التي قالتها، وكادت أن تلمس أظفارها وجه صديقتها.

ثم صرخت: آه.. لا تقولي إنكِ لم تقتليه! أنا أدافع عنكِ. لا تقولي ذلك! الخنجر موجود في حقيبتكِ، لمسه أخي بينما كان يتحدث إليكِ، وتلطخت يده ببقع دماء، دماء زوجكِ يا تيريز. وعلى أي حال، حتى لو لم أكُن قد اكتشفت الأمر، هل تعتقدين أنني، من اللحظة الأولى، لم أكُن لأخمن؟ لقد عرفت

الحقيقة على الفور يا تيريز، عندما أخبرني بحار حين وصلت: «السيد دامبرفال؟ لقد قتِل». قلت لنفسي على الفور: «إنها هي، إنها تيريز. لقد قتلته».

لم تُجِب تيريز. لم تعُد قادرة على الاعتراض. أورتِنس، التي أخذت تراقبها بقلق، خمنت أن شعور الضياع يتملكها. امتُقِع وجهها، وبدا عليه علامات اليأس، لدرجة جعلت أورتِنس تشعر بالأسف نحوها، وحثتها لتدافع عن نفسها قائلة: وضِّحي الأمر أرجوكِ. خلال وقوع الجريمة كُنت هنا، على الشرفة؛ لذا، هذا الخنجر، كيف يمكنكِ؟ كيف تفسرين ذلك؟

سخرت چيرمِن آستيانج قائلة: تفسيرًا! هل يمكنها أن تعطي تفسيرًا؟ ناهيكِ عن ظهور الجريمة! لا يهم ما رأيته أو لم ترَه! الشيء الرئيس هو الدليل.. إنها حقيقة أن الخنجر موجود، في حقيبتكِ، يا تيريز. نعم، نعم، إنه أنتِ! أنتِ مَن قتله! انتهى بكِ المطاف أن تقتليه! آه! كم من مرة قُلت لأخي: «ستقتله!» حاول فردريك الدفاع عنكِ، دومًا ما كنتِ نقطة ضعف فردريك. لكنه في النهاية شهد الحدث.. والآن تم إنجاز شيء فظيع! طعنة في الظهر. جبانة! يا لكِ من خسيسة! وما كُنت لأتحدث؟ لكنني لم أتردد للحظة.. وكذلك لم يتردد فردريك! على الفور بحثنا عن الدليل.. وبكل عقلي وكذلك عزيمتي سأدينكِ.. انتهى الأمر يا تيريز. انتهيتِ. لا شيء يمكنه إنقاذكِ بعد الآن. الخنجر في حقيبة يدكِ. سيعود القاضي وسيعثر عليه هنا، مُلطخًا بدماء زوجكِ. وكذلك سيجد محفظته. سنعثر عليها..

اكتسحها هذا الغضب لدرجة أعجزتها عن الاستمرار، وشعرت بتشنجات عصبية تجتاحها. أمسك رِنين بلطف حقيبة تيريز دامبرفال. تشبثت الشابة به. لكنه أصر وقال لها: دعيني أفعلها يا سيدتي. صديقتكِ چيرمِن على حق. سيأتي قاضي التحقيق، وحقيقة أن الخنجر بين يديكِ ستُودِي بكِ إلى الاعتقال الفوري. يجب ألَّا يكون هذا هو الحال. دعيني أفعلها.

صوته المُوحِي خفف من مقاومة تيريز. وتحررت أصابعها الواحد تلو الآخر عن الحقيبة. أخذ رِنين الحقيبة وفتحها وأخرج خنجرًا صغيرًا بمقبض من خشب الأبنوس، ومحفظة رمادية، بهدوء وضع كلاهما في الجيب الداخلي لسترته.

رمقته چيرمِن آستيانج مصعوقة، وقالت: هل أنت أحمق يا سيدي! بأي حق؟

- هذه هي الأشياء التي لا ينبغي أن تبقى ملقاة هنا. بهذه الطريقة الهادئة حين يأتي القاضي لن يبحث في جيبي.

قالت بسخط: لكنني سأدينك يا سيدي! سيتم إخطار العدالة.

قال رِنين ضاحكًا: لا، لن تقولي أي شيء! والعدالة لا علاقة لها بالأمر. يجب تسوية الصراع الذي يقسم بينكما، يا لها من فكرة لخلط العدالة مع كُل حوادث الحياة!

شعرت السيدة آستيانج بالاختناق.

- لكن ليس لديك أي صفة لتتحدث هكذا يا سيدي! مَن أنت؟ صديق لهذه المرأة؟

- لأنكِ هاجمتِها؛ نعم.

- ولكن إذا هاجمتها فذلك لأنها مذنبة؛ لأنه لا يمكنك إنكار ذلك.. قتلت زوجها.

قال رِنين بهدوء: لا أنكر ذلك. ونحن جميعًا نتفق على ذلك. قُتِل چاك دامبرفال على يد زوجته، ولكنني أكرر أن العدالة لا يجب أن تعرف الحقيقة.

- ستعرف ذلك، سأخبرها يا سيدي. يجب معاقبة هذه المرأة.. لقد قتلت.

دنا منها رِنين وأمسك بكتفها: سألتني منذ لحظات بأي صفة أتحدث. ماذا عنكِ يا سيدتي؟

- كُنت صديقة چاك دامبرفال.

- صديقته فقط؟

فُوجِئت قليلًا، لكنها استقامت على الفور واستأنفت الحديث: كُنت صديقته، وواجبي أن أنتقم له.

- مع ذلك، ستبقين صامتة كما فعل.

- لم يكُن يعرف حتى مات.

- هذا ما يفوتك. كان بإمكانه أن يتهم زوجته، بل كان لديه متسع من الوقت ليفعل. ولم يقُل شيئًا.

- لِمَ؟

- لخاطر أطفالهما.

لم تتراجع السيدة آستيانج، بل بقي أسلوبها يشي بذات الحدة. لكن على الرغم من كل شيء، فقد حاك رِنين خيوطه حولها. في تلك الغرفة الصغيرة التي تعبق بالكراهية بدأ رِنين تدريجيًّا يُمسِك بزمام الأمور، وفهمت چيرمِن آستيانج أن تيريز دامبرفال بدأت تشعر بشيء من الراحة لدعم رِنين لها غير المتوقع، بينما كانت على حافة الهاوية.

قالت تيريز: أشكرك يا سيدي؛ لأن لديك بصيرة لفهم الأمور، أعي أنك تعرف أنني لم أتقدم إلى العدالة خوفًا على أطفالي. في وضع آخر.. لقد سئمت كل شيء!

تغير المشهد، واتخذت الأمور مجرًى مختلفًا. بفضل بضع كلمات أُلقِيت في النقاش، حدث أن رفعت الجانية رأسها وطمأنت نفسها، بينما ترددت مَن اتهمتها وبدت قلقة. وعجزت الأخيرة على الكلام، بينما الأولى شعرت في تلك اللحظة بالحاجة إلى الخروج من هذا الصمت والتحدث بشكل طبيعي يخفف وطأة الأمر.

- الآن، خاطبها رِنين بالرقة نفسها: أظن أنه يمكنكِ التفسير، بل وعليكِ ذلك.

- نعم.. نعم، أوافقك الرأي. عليَّ أن أجيب على هذه المرأة. الحقيقة بسيطة للغاية.. أليس كذلك؟

بكت مرة أخرى وتهاوت على كرسي له ذراعان، وبدا وجهه مسنًّا دمره الألم، وبصوت منخفض دون غضب وفي جمل صغيرة متقطعة قالت: كانت عشيقته لمدة أربع سنوات.. هذا ما عانيت منه.. وهي التي كشفت لي عن علاقتهما.. بخبث.. لقد كرهتني أكثر مما أحبت چاك.. وكل يوم كان يأتي

بجراح جديدة.. تخابرني هاتفيًّا لتخبرني عن مواعيدهما الغرامية.. كانت تجعلني أعاني.. كانت تأمل أن أقتله.. فكرت في الأمر في بعض الأحيان، لكنني تماسكت من أجل أطفالي.. لكن چاك تهاوى. طلبت منه أن يُطلِّقني.. وسمح لنفسه بالوقوع تحت سلطتها شيئًا فشيئًا. تهيمن عليه هي وشقيقها، وهو أكثر انحرافًا منها، وخطير أيضًا. شعرت بكل هذا.. كان چاك ضعيفًا.. لم تكُن لديه الشجاعة للمغادرة، وكنت أنا العقبة، كان يستاء مني.. يا إلهي! يا له من عذاب!

صاحت چيرمِن آستيانج: كان عليه أن يستعيد حريته، لا تقتل امرأة رجلًا لأنه يريد الطلاق.

هزت تيريز رأسها، وقالت: لم أقتله لأنه أراد الطلاق. إذا كان يريد ذلك حقًّا، لكان قد غادر، وماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك؟ لكن خططكِ قد تغيرت يا چيرمِن، لم يكُن الطلاق كافيًا بالنسبة لكِ، وكان شيئًا آخر حصلت عليه منه، وهو شيء آخر أكثر خطورة طالبتِ به أنتِ وأخوكِ.. شيء وافق هو عليه؛ بدافع الجبن..

- إلامَ تُلمِّحين؟ أي شيء؟

- موتي.

- أنتِ تكذبين!

لم ترفع تيريز صوتها. لم يبدُ عليها أي بادرة كراهية أو سخط. وكررت ببساطة: موتي يا چيرمِن. قرأت رسائلكِ الست، ست رسائل منكِ كان أحمق كفاية لينساها داخل حافظة أوراقه، ست رسائل لا تُخبريه فيها الفكرة الرهيبة صراحةً، لكن كل سطر يشي بذلك بوضوح، قرأت هذا وأنا أرتجف! وصل الأمر بچاك لتلك المرحلة! مع ذلك، لم تخطر ببالي فكرة قتله لثانية واحدة. امرأة مثلي يا چيرمِن، لا تقتل طواعية.. إذا كنت قد فقدت عقلي.. في وقت لاحق.. فهو خطؤكِ.

أدارت رأسها نحو رِنين كما لو كانت تريد سؤاله عن خطورة استمرارها في الحديث.

قال: لا تقلقي. أنا سأحل كُل شيء.

مررت يدها على جبينها. المشهد الرهيب عاد ليحيا فيها ويعذبها. لم تتحرك چيرمِن آستيانج، وتقاطعت نظراتهما، العيون مضطربة، وأورتِنس دانيال تنتظر بجنون لتعرف الاعتراف بالجريمة، وتُفسِّر اللغز الغامض.

تابعت: حدث الأمر في وقت سابق، وبسبب خطئك يا چيرمِن. وضعت حافظة الأوراق مرة أخرى في الدُرج حيث كانت مخبأة، وهذا الصباح لم أقُل شيئًا لجاك. لم أُرِد أن أخبره أنني أعرف.. كان الأمر فظيعًا للغاية.. مع ذلك، كان عليَّ أن أسرِع.. أعلنت رسائلك عن وصولكِ السري اليوم، فكرت أولًا في الهرب والقفز في أول قطار.. أخذت هذا الخنجر في البداية لأدافع عن نفسي، ولكن عندما جئت أنا وجاك إلى الشاطئ، تراجعت. نعم، قبلت الموت.. لأموت. وينتهي هذا الكابوس كله! فقط، بالنسبة لأطفالي، سيبدو أن موتي عرضيًّا، وأن جاك ليس متهمًا. ولهذا السبب بدت خطتك بإلقائي من الجرف تناسبني، السقوط من أعلى جرف يبدو أمرًا طبيعيًّا.. تركني جاك وذهب لمقصورته وفي الطريق أسقط المفتاح، هبطت إليه وبحثت معه.. وهناك.. وهذا خطؤك.. نعم چيرمِن. انزلقت محفظة

النقود من جيب سترته دون أن يلاحظ، ورأيت صورة تعرفت إليها على الفور، صورة تعود إلى هذا العام، صورة لي مع طفلتَيَّ. حملتها.. وشعرت بالحياة.. تعرفين ما أمُر به يا جيرمِن. لقد محوتِني ووضعتِ نفسكِ يا چيرمين! كُنتِ أنتِ في الصورة وليس أنا. ذراعكِ تحيط ابنتي الكبرى، والأخرى مرتخية على ركبتكِ.. أنتِ يا جيرمِن، زوجة زوجي.. أنتِ الأم المستقبلية لطفلتَيَّ.. أنتِ مَن ستربيهما.. أنتِ! لذلك فقدت عقلي. كان الخنجر معي.. وجاك منحني.. سددت إليه الطعنة.

كان اعترافها صحيحًا وفي غاية الدقة.

ثلاثتهم، مَن أنصتوا لها، انتابهم انطباع عميق بذلك، وشعر أورتِنس ورِنين بتأثر وأسى لا مثيل له.

كانت قد جلست منهكة. ومع ذلك، استمرت في الحديث بكلمات غير مفهومة، ولم يكُن بالإمكان سماع ما تقول إلا بصعوبة، لقد ضغطت على كلماتها لتقول ما يلي: اعتقدت أنهم سيصرخون من حولنا ويعتقلونني.. لكن الأمر حدث بطريقة وفي ظروف صعبة التمييز، علاوة على ذلك استقام جاك في وقفته تمامًا حين استقمت ولم يسقط! لا لم يسقط! لقد طعنته وبقي واقفًا! من الشرفة التي صعدت إليها، رأيته. كان قد وضع سترته مرة أخرى على كتفيه، ومن الواضح أنه فعل ذلك ليخفي جرحه، وسار بعيدًا دون تردُّد.. أو بقليل من التردد يمكنني أنا فقط إدراكه. حتى إنه تحدَّث مع أصدقائه الذين كانوا يلعبون البريدج، ثم سار إلى مقصورته واختفى. بعد فترة من الوقت، عُدت إلى المنزل. كُنت مقتنعة بأن كل ذلك ما هو إلا حلم سيئ.. أنني لم أقتل.. أو على الأقل كانت إصابة طفيفة. سيخرج جاك.. كنت متأكدة من ذلك. من شرفتي شاهدت.. لو كان بإمكاني أن أعرف أنه بحاجة إلى مساعدة، لكنت ركضت إلى هناك.. ولكن، حقًّا، لم أكُن أعرف.. لم أخمن.. نحن نتحدث عن حدس.. إنه ليس حقيقيًّا. كنت هادئة تمامًا، حيث إن المرء على وجه التحديد بعد كابوس تتلاشى ذاكرته. لا، أقسِم، لم أكُن أعرف أي شيء.. حتى الآن..

توقفت عن الحديث. خنقها البكاء.

قال رِنين: حتى اللحظة التي جاءوا فيها لتحذيركِ، أليس كذلك؟

قالت تيريز: بلى.. عندها فقط علمت بفعلتي.. وشعرت أن الجنون مسَّني، وأنني سأصرخ في كل هؤلاء الناس قائلة: لكن هذا أنا! لا تبحثوا. هنا الخنجر.. أنا الجاني. نعم، كنت سأصرخ بذلك عندما رأيته فجأة، جاك المسكين. لكن فهمت واجبي، كما فهمه، نحو الأطفال. صمت. وسأكون صامتة. كلانا مذنب بالقتل الذي كان هو ضحيته. كان على كلانا أن يفعل كل شيء حتى لا تقع الجريمة على عاتق أطفالنا.. في خضم ألمه كان لديه رؤية واضحة لهذا.. كان لديه شجاعة لا تُصدَّق ليسير وهو مطعون، والحديث مع أولئك الأصدقاء وإغلاق المقصورة عليه حتى الموت. لقد فعل ذلك محيًا لكل عيوبه دفعة واحدة، وبالتالي منحني غفرانه لأنه لم يُدِني. وأنه أمرني بالصمت. وأنا أدافع عن أبنائنا.. ضد الجميع.. ضدكِ خاصةً يا جيرمِن.

لقد تحدثت بهذه الكلمات الأخيرة بحزم أكبر. مستاءة أولًا من فِعلها اللاواعي الذي ارتكبته بقتل زوجها، ثم استعادت بعض القوة حين فكرت فيما فعله. وسلحت نفسها بهذه الطاقة أمام المخطط الذي قادتهم إليه كراهيتهم؛ فقادهم إلى الموت والجريمة. أمسكت بقبضتها على استعداد للمقاومة مجددًا.

لم تتراجع جيرمِن آستيانج. لقد استمعت دون أن تتحدث بكلمة واحدة، وبوجه لا هوادة فيه، يقسو تعبيره أكثر فأكثر مع كل اعتراف دقيق لتيريز. لم يبدُ أن أي عاطفة خفقت في وجدانها أو خففت من حدتها، ولم يعتريها أي ندم. بل، قُرْب نهاية الحديث، ابتسمت شفتاها الرقيقتان قليلًا، كما لو أنها ابتهجت للطريقة التي تحولت بها الأحداث. وأمسكت بفريستها.

ببطء نظرت نحو الزجاج، عدَّلت قبعتها، وسارت نحو الباب. اعترضت تيريز: إلى أين؟

- إلى حيث شئت.

- ستقابلين قاضي التحقيق؟

- ربما.

- لن تمري!

- ليكُن. سأنتظره هنا.

- وماذا ستخبرينه؟

- أيتها الحمقاء! كل ما قولتِه. لقد منحتِني أدق التفاصيل. كيف سيُشكِّك في قولي؟

أمسكت تيريز بكتفيها.

- نعم، لكنني سأعطيها للآخرين، يا جيرمِن. إذا انتهيت، ستنتهين معي.

- لا تملكين شيئًا ضدي.

- أستطيع أن أدينكِ. سأُظهِر الرسائل.

- أي رسائل؟

- تلك التي تتحدثين فيها عن موتي.

- أكاذيب! تيريز، أنتِ تعرفين أن هذه المؤامرة الشهيرة ضدكِ موجودة فقط في خيالكِ، لا جاك ولا أنا أردناكِ ميتة.

- كنتِ تريدين ذلك. رسائلكِ تدينكِ.

- أكاذيب. كانت رسائل من صديق إلى صديق.

- رسائل من عشيقة وشريك.

- أثبتي ذلك.

- الرسائل هنا، في حافظة أوراق جاك.

- لا.

- ماذا تقولين؟

- أقول إن هذه الرسائل تخصني.. واستردتها. أو بالأحرى أعادها أخي.

- لقد سرقتِها أيتها اللعينة! وسوف تعيدانها إليَّ.

صرخت تيريز وهي تحاول الإمساك بها.

- لا أملك الرسائل. أخذها أخي. احتفظ بها بعيدًا.

- سيعيدها لي.

- لقد ذهب.

- سنجده.

- سنجده بلا شك، لكن لن نجد الرسائل. مُزِّقت الرسائل.

ترنحت تيريزا ومددت يديها إلى رِنين في يأس.

قال رِنين: إنها تقول الحقيقة. تابعت جولة الأخ المرحة، بينما كان يبحث في حقيبتكِ. أخذ حافظتكِ، وزار أخته، وعاد لوضعها في مكانها، وغادر مع الرسائل.

صمت رِنين لوهلة واستكمل حديثه: أو على الأقل غادر مع خمس رسائل. نطق كلماته بلا مبالاة، لكنهم جميعًا أدركوا أهميتها الكبرى. اقتربت المرأتان منه. ماذا كان يقصد؟ إذا كان فردريك آستيانج قد أخذ خمس رسائل فقط، فأين السادسة؟

قال رِنين: أفترض أنه عندما انزلقت الحافظة على الشاطئ، انزلقت تلك الرسالة في الوقت نفسه الذي انزلقت فيه الصورة التي رأتها السيدة دامبرفال.

سألت السيدة آستيانج بصوت متشنج: ماذا تعرف؟ ماذا تعرف؟

- وجدتها في جيب السترة البيضاء الخاص به، المُعلَّقة بجانب السرير. ها هي ذا. تم توقيعه باسم «جيرمِن آستيانج»، وهو أكثر من كافٍ لإثبات نيات الشخص الذي كتبها ونصيحة القتل التي قدمتها لحبيبها. بل إنني في حيرة من أمري؛ لأن مثل هذا التهور ما كان يمكن أن ترتكبه امرأة ماهرة كهذه.

بُوغِتت السيدة آستيانج لدرجة أنها لم تحاول الدفاع عن نفسها، وتابع رِنين مخاطبًا إياها: بالنسبة لي يا سيدتي، أنتِ مسئولة عن كل ما حدث. بددتِ، بلا شك، ثروتكِ، وكنتِ راغبة في الاستفادة من العاطفة التي منحها إياكِ السيد دامبرفال لتحصلي على ثروته. هذه الروح من الربح، هذه الحسابات البغيضة، لديَّ دليل عليها وسأكون قادرًا على تقديمه. بحثت في جيب السترة تلك. كُنتِ تبحثين بحماس، لقد حصلت مسبقًا على الرسالة السادسة، ولكنني تركت قطعة ورق أخرها هي كانت غرضكِ. كان شيكًا لحامله بقيمة مئة ألف فرنك، مُوقَّعًا من قِبل السيد دامبرفال لصالح أخيكِ.. هدية زفاف بسيطة.. وهذا ما يُسمَّى الصفقة الرابحة. وفقًا لتعليماتكِ، قاد أخوكِ سيارته إلى لوهافر، ولا شك أنه وصل قبل الساعة الرابعة إلى البنك الذي تم فيه إيداع هذا المبلغ. يجب أن أحذركم، بالمناسبة، من أنه لم يلمس

المبلغ؛ لأنني اتصلت بهذا البنك وأعلنت مقتل السيد دامبرفال، وبالتالي تَعلق جميع المدفوعات. ويترتب على كل هذا أن العدالة ستكون بين أيديكما، إذا استمررتما في خططكما الانتقامية، فكل الأدلة اللازمة ضدكِ وضد أخيكِ حاضرة. ويمكنني أن أضيف، كشهادة بناءة، رواية المحادثة الهاتفية التي سمعتها بينكِ وبين أخيكِ في الأسبوع الماضي، والتي تحدثتما فيها بالإسبانية الدارجة. لكنني متأكد من أنكِ لن تجبريني على اتخاذ هذه التدابير المتطرفة، متفقين، أليس كذلك؟

تحدَّث رِنين بهدوء مثير للإعجاب. وبأسلوب رجل نبيل يعرف أن أحدًا لن يثير أدنى اعتراض على كلماته. لَم يكُن يبدو مخطئًا. وأشار إلى الأحداث كما وقعت، واستخلص الاستنتاجات الحتمية التي تنطوي عليها منطقيًّا. كل ما عليه فِعله هو تفنيدها، وإيصال رسالته.

وقد فهمت السيدة آستيانج ذلك. الطبائع مثل طبيعته، العنيفة، الشرسة في المعركة الممكنة، لا تتنازل عن القليل من الأمل، وتهيمن بسهولة على الآخرين في حالة الهزيمة. كانت جيرمِن ذكية جدًّا لدرجة أنها لم تشعر بأي رغبة في التمرد. تعرف أن أي محاولة سيضحدها هذا الخصم. كُل ما تملك في هذه الحالات أن تنحني إعجابًا.

لذلك لم يصدر منها أي تهكُّم، ولم تعترض أو تهدد أو تنفجر غضبًا أو تُصَب بانهيار عصبي.. إلخ. بل انحنت.

قالت: نحن متفقون، ماذا تطلب؟

- ابتعدي.

- وإذا استخدمت شهادتك ضدي؟

- لن أستخدمها..

- لكن...

- سأقول إنكِ لا تعرفين أي شيء.

سارت نحو الباب وعلى عتبته ترددت، ثم ضغطت على أسنانها قائلة: الشيك؟

نظر رِنين للسيدة دامبرفال التي أعلنت: دعها تحتفظ به. لا أريد هذا المال.

بعدما أعطى رِنين تعليماته الدقيقة لتيريز دامبرفال حول كيفية تصرُّفها والإجابة عن الأسئلة التي ستُطرَح عليها، غادر الكوخ، برفقة أورتنس دانيال. هناك، على الشاطئ، واصل القاضي والمدعي العام تحقيقاتهما، وأخذا القياسات، واستجوبا الشهود، وتشاورا مع بعضهما البعض.

قالت أورتِنس: عندما أفكر أنك تملك خنجر الجريمة وحافظة السيد دامبرفال!

قال رِنين ضاحكًا: هذا يبدو خطيرًا للغاية بالنسبة لكِ؟ هذا في رأيي كوميدي.

- لا ينتابك الخوف؟

- ممَّ؟

- من أن يشك أحدهم بك؟

- يا رباه! لن يشك أحد في أي شيء! سنخبر هؤلاء الناس الطيبين بما رأيناه، شهادة لن تؤدي إلا إلى زيادة إحراجهم؛ لأننا لم نرَ شيئًا على الإطلاق. بدافع الحذر، سنبقى يومًا أو يومين لمراقبة الشاطئ. لكن المسألة محسومة. لن يروا أبدًا أي شيء سوى النار.

- ومع ذلك، خمنت أنت أسباب الجريمة، ومنذ الدقيقة الأولى. لماذا؟

- لأنه بدلًا من الانتظار من الظهر إلى الثانية بعد الظهيرة، كما هو الحال عادةً، أسأل دائمًا السؤال كما ينبغي طرحه، والحل يأتي بشكل طبيعي. رجل نبيل دخل مقصورته وأغلق بابها من الداخل. عُثِر عليه ميتًا هناك بعد نصف ساعة. لم يقتحم أحد المكان. ماذا حدث؟ بالنسبة لي، الجواب فوري. لا حاجة حتى للتفكير. وبما أن الجريمة لم تُرتكَب في المقصورة؛ فذلك لأنها ارتُكِبت من قبل، وكان الرجل، عند دخوله مقصورته قد تعرَّض بالفعل للطعن. وعلى الفور، في هذه الحالة، ظهرت لي الحقيقة. أخذت السيدة دامبرفال، التي كان من المقرر أن تقتل الليلة، زمام المبادرة، وبينما انحنى زوجها، في ثانية من الحيرة، قتلته. كل ما تبقَّى هو البحث عن دوافع فِعلتها. عندما التقيت بهما، رجَّحت كفتها بقوة. هذه هي القصة الكاملة.

كان المساء يهبط. أصبحت زرقة السماء أكثر قتامة، والبحر أكثر سلامًا.

سأل رِنين بعد فترة: بم تفكرين؟

قالت: أفكر، أنني لو كُنت ضحية لبعض المكائد بدوري، فسأحافظ على ثقتي بك، مهما حدث، ثقة ضد الجميع. أعلم، كما أعلم أنني أراك الآن، أنك ستنقذني، بغض النظر عن العقبات. لا يُوجَد حد لإرادتك.

قال بصوت منخفض جدًّا: لا يُوجَد حد لرغبتي في إرضائكِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

الفيلم الكاشف

- راقبي مَن يؤدي دور الخادم الشخصي.. قالها الأمير رِنين.

سألته أورتِنس: ما الذي يميزه؟

كانا في الصباح، في سينما دي بوليفار حيث حثت السيدة الشابة الأمير رِنين على مشاهدة فيلم لمسها. كانت روز- آندريه، التي ظهرت على الملصق الدعائي للفيلم، أختها غير الشقيقة. تزوج والدهما مرتين. ولبضع سنوات، بسبب غضبهما من إحداهن الأخرى، لم يتبادلا حتى الرسائل. روز- آندريه، المخلوقة الجميلة الباسمة ذات الوجه الضاحك، فشلت في المسرح، لكنها للتو تختبر طريقها في السينما كممثلة. في هذا المساء، كان لحماسها وجمالها المتقد الفضل في إثراء فيلم متواضع نوعًا ما: الأميرة السعيدة.

دون إجابة مباشرة، استأنف رِنين حديثه خلال فترة الاستراحة: أنا أُسرِّي نفسي عن الأفلام السيئة بمتابعة مؤديي الأدوار الثانويةَ. كيف لأولئك الشياطين المسكينة التي تُجبَر على إعادة مشاهد بعينها عشر أو عشرين مرة، ألَّا تخطر ببالهم ولو لمرة، خلال (المشهد الأخير)، أي فكرة عدا ما يؤدونه من أدوار؟ إنها تلك الانحرافات الصغيرة، حيث يخترق القليل من أرواحهم أو غريزتهم المشهد، وهذا من الممتع مشاهدته؛ لذا انتظري دور هذا الخادم..

أظهرت الشاشة الآن طاولة فاخرة ترأسها الأميرة السعيدة محاطة بجميع عشاقها. جاء نصف دزينة من الخدم وذهبوا، بقيادة الخادم الشخصي، وهو رجل طويل القامة ذو دثار سميك، ووجه مبتذل، رسم حاجبيه سطرًا متصلًا.

قالت أورتِنس: وجه غاشم. ماذا تراه مُميِّزًا له؟

- راقبي الطريقة التي يرمق بها أختكِ، وراقبي ما إذا كان ينظر إليها أطول مما ينبغي..

اعترضت أورتِنس: في رأيي، حتى الآن، لا شيء مميز يبدو لي..

أكد الأمير رِنين: على العكس. من الواضح أن لديه مشاعر شخصية، في الحياة الواقعية، تجاه روز- آندريه لا علاقة لها بدوره بصفته خادمًا مجهولًا. لا أحد قد يشك في ذلك في الواقع، لكن على الشاشة، عندما لا يتحكم في نفسه، أو عندما يعتقد أن زميله في تجارب الأداء لا يمكنه رؤيته، فإن سره يفلت منه. ها هو الأمر..

لم يكُن الرجل يتحرك. كانت نهاية الوجبة. شربت الأميرة كأسًا من الشمبانيا، وحدَّق فيها بعينيه اللامعتين اللتين كانتا نصف محجبتين بجفونه الثقيلة.

فاجأهم، مرتين، بتلك التعبيرات الفريدة التي عدَّها رِنين ذات تأويل عاطفي وشككت أورتِنس في ذلك.

قال أورتِنس: إنها طريقته في النظر.

انتهى المشهد. ظهر مشهد آخر. أُعلِن «أن عامًا قد مر وأن الأميرة السعيدة تعيش في كوخ جميل في نورماندي تحيطه نباتات الظل رفقة الموسيقي البائس الذي اخترته زوجًا». سعيدة دائمًا كما نرى على الشاشة. دائمًا جذابة، ويحاصرها الخاطبون من كل الطبقات. البرجوازيون، النبلاء، المقاولون، وحتى الفلاحون، وعلاوة عليهم هناك رجل بائس وحيد، حطاب مشعر، جامح، قابلته في جميع نزهاتها. مسلحًا بفأسه، مخيفًا، مخادعًا، كان يتجول حول الكوخ؛ مما أثار الشعور بدنو خطر من الأميرة السعيدة.

همس رِنين: هاك، أتعرفين مَن رجل الفأس؟

- لا.

- الأمر بسيط، إنه الخادم. يؤدي دورين.

رغم تبدُّل شكله، وتحوُّل مشيته إلى مشية ثقيلة، وانحناء كتفيه، تعرَّف رِنين إيماءات الخادم ونظراته، وكذلك أسفل لحيته الكثة وشعره الكثيف الطويل، تعرَّف الوجه الحليق بفَضل حواجبه الكثيفة المميزة.

على مبعدة خرجت الأميرة من الكوخ. كان الرجل يختبئ خلف كومة. من وقت لآخر، أظهرت الشاشة، عينيه الشرستين أو يده القاتلة.

قالت أورتِنس: إنه يخيفني. الأمر مرعب في الواقع.

قال رِنين: لأنه يؤدي دوره. يبدو أن هناك فترة فصلت بين المشهدين، ثلاثة أو أربعة أشهر. تطور حبه. وبالنسبة له، ليست الأميرة هي التي أمامه، بل روز أندريه.

جلس الرجل القرفصاء. اقتربت الضحية، المبهجة والمطمئنة.

مرت، سمعت ضوضاء، توقفت، ونظرت بابتسامة تحولت لانتباه، ثم قلق. تصاعد القلق أكثر فأكثر. كان الحطَّاب قد تخطى الكومة وعبر الكتلة الصخرية.

وهكذا تواجه أحدهما الآخر.

فتح ذراعيه كما لو كان يمسك بها. أرادت أن تصرخ، وأن تطلب المساعدة، لكنها كانت تختنق، وقبض ذراعيه عليها دون أن تتمكن من إبداء أدنى مقاومة. وبسهولة حملها على كتفه وبدأ في الركض.

تمتم رِنين: هل اقتنعتِ؟ هل تعتقدين أن هذا الممثل المغمور يملك هذا الشغف وتلك الطاقة في التمثيل إلّا لو كان أمام امرأة أخرى سوى روز- آندريه؟

وصل الحطَّاب إلى حافة نهر واسع، بالقرب من قارب قديم تقطَّعت به السبل في الوحل. وضع جسد روز- آندريه الخامل هناك، وبدأ في الابتعاد عن الضفة صاعدًا النهر.

في وقت لاحق شوهِد وهو يهبط، ثم يعبر حافة غابة ويغرق بين الأشجار العالية وأكوام الصخور. بعد أن أودع الأميرة، قام بتنظيف مدخل كهف، حيث بدأ النهار يسقط أمامهما عبر فتحة الكهف.

أظهرت سلسلة من المشاهد ذعر الزوج، وعمليات البحث، واكتشاف الفروع الصغيرة التي كسرتها الأميرة السعيدة والتي أشارت إلى مسارها الأخير.

ثم كانت الخاتمة، والصراع المخيف بين الرجل والمرأة، وفي اللحظة التي يتم فيها الإطاحة بالزوجة، المهزومة، المنهكة، والمقاطعة المفاجئة للزوج والطلقة التي تُسقِط الوحش الأسمر.. كانت الساعة الرابعة عندما غادرا السينما.

أشار رِنين، الذي كانت سيارته تنتظره، والسائق يتبعه. سارا عبر الطرقات حتى شارع رو دو لا باه، وسألهاَ رِنين، بعد صمت طويل قلقت منه الشابة دون إرادة: أتحبين أختكِ؟

- نعم، كثيرًا.

- لكن هل أنتِ غاضبة منها؟

- كنت كذلك أيام زواجي. روز تغازل الرجال. كنت أشعر بالغيرة، ودون سبب حقًّا. لكن لماذا هذا السؤال؟

- لا أعلم.. هذا الفيلم يطاردني، وكان تعبير هذا الرجل غريبًا جدًّا!

أخذت ذراعه بخفة، وقالت: حسنًا، ماذا تقترح؟! ماذا تفترض؟

- ماذا أفترض؟ كل شيء ولا شيء. لكن لا يسعني إلا أن أصدق أن أختكِ كانت في خطر.

- فرضية بسيطة.

- نعم، ولكنٍ فرضية تستند إلى الحقائق، التي تثير إعجابي. في رأيي، لا يمثل مشهد الاختطاف عدوان الحطّاب علي الأميرة السعيدة، بل هجومًا عنيفًا ومحمومًا من قِبل الممثل ضد المرأة التي يطمع فيها. من المُسلّم به أن وقوع هذا الحدث ضمن أحداث الفيلم كان سببًا في ألَّا يلاحظ أحد ذلك، لا أحد باستثناء - ربما - روز- آندريه. لكنني فُوجِئت بومضات من العاطفة التي لا تدع مجالًا للشك، وتظهر في مشاهد الغيرة وحتى إرادة القتل، ومشهد تقلُّص يديها التي بدت جاهزة للخنق، وعشرات من التفاصيل أخيرًا تثبت لي أنه في ذلك الوقت دفعته غريزة هذا الرجل لقتل هذه المرأة التي لا يمكن أن تنتمي إليه.

قالت أورتِنس: ربما يكون الأمر هكذا، لكن التهديد تم تجنُّبه منذ مرور أشهر.

- حسنًا، من الواضح. لكن على أي حال.. أريد معرفة ذلك.

- الاقتراب مِن مَن؟

- الاقتراب من شركة الجمعية العالمية التي أنتجت الفيلم. ها هي مكاتبهم. هل تريدين الانتظار في السيارة لبضع دقائق؟

نادى كليمون، سائقه، ومشى بعيدًا.

في أعماقها، لم يغادر الشك أورتِنس. كل مظاهر الحب هذه التي لم تتكر الحماس والوحشية بدت لها مجرد أداء عقلاني لفنان جيد. لم تستوعب أيًّا من الدراما المروعة التي ادعى رِنين استشرافها، وتساءلت عما إذا كان لا يُخطِئ في جانب الخيال.

عندما عاد قالت له بمسحة سخرية: حسنًا! أين أنت؟ لغز؟ أحداث درامية؟

قال بقلق: كفى. مما أصابها بالاضطراب على الفور.

- ماذا تقول؟

ألقى حديثه دفعة واحدة: يُدعَى هذا الرجل دالبريك. إنه مخلوق غريب نوعًا ما، منطوٍ، قليل الكلام، ودائم الابتعاد عن رفاقه. لم يُلاحَظ أبدًا أنه كان مهتمًّا بشكل خاص بأختك. مع ذلك، بدا أداؤه، في نهاية المشهد الثاني، رائعًا لدرجة أن تم إسناد فيلم جديد له؛ لذا تغيَّر في الآونة الأخيرة. قام بجولة في ضواحي باريس. كانوا سُعداء به، عندما وقع فجأة حدث غير عادي. في يوم الجمعة، الثامن عشر من سبتمبر، في الصباح، خرج من مرآب الشركة في سيارة ليموزين رائعة، بعد أن سرق مبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك. تم تقديم شكوى، وعُثِر على السيارة الليموزين يوم الأحد بالقرب من درو.

استفهمت أورتِنس التي كانت تُنصِت إلى الحديث بوجه يشوبه الشحوب: حتى الآن.. لا تُوجَد مشكلة..

- نعم. استفسرت عن روز- آندريه. سافرت أختكِ هذا الصيف، ثم مكثت حوالي خمسة عشر يومًا في مقاطعة أورو حيث تمتلك عقارًا، على وجه التحديد الكوخ حيث تم تصوير الأميرة السعيدة. دُعِيت إلى حفل خطوبة في أمريكا فعادت إلى باريس، ثم إلى محطة سان لازار التي غادرتها يوم الجمعة الثامن عشر من سبتمبر إلى لوهافر عازمة على المبيت هناك والصعود على متن الباخرة يوم السبت.

رددت أورتِنس: الجمعة الثامن عشر من سبتمبر.. اليوم نفسه حيث هذا الرجل.. سيكون قد اختطفها.

قال رِنين: سنعرف. كليمون انطلق نحو شركة ترانس أتلنتيك.

رافقته أورتِنس تلك المرة واستفسرت عن الأمر بنفسها.

انتهى البحث بسرعة.

حجزت السيدة روز- آندريه مقصورة على متن السفينة لا بروفنس، لكن الباخرة رحلت دون أن تصعد الراكبة على متنها. في اليوم التالي، استلمت الشركة برقية من روز- آندريه، إلى لوهافر، تُعلِن عن تأخيرها وتطلب الحفاظ على أمتعتها. وصلت البرقية من درو.

غادرت أورتِنس مترنحة. لا يبدو من الممكن تفسير كُل هذه المصادفات إلا عند اعتبارها اختطافًا. تم تحليل الأحداث وفقًا لحدس رِنين العميق.

تكومت في السيارة، سمعته يعطي السائق عنوانًا لمركز الشرطة. مرت السيارة عبر وسط باريس. ثم فُوجِئت أنها وحدها في قفص الاتهام لبضع لحظات.

قال وهو يفتح الباب: تعالي.

سألت بقلق: مرة أخرى؟ هل استقبلوك؟

- لم أسعَ أن يتم استقبالي. أردت فقط الاتصال بالمفتش موريسو الذي قابلناه من قبل وقت قضية دوتريل. إذا عرفنا أي شيء فسيكون من خلاله.

- حسنًا وبعد؟

- في هذه الساعة هو يجلس في مقهى صغير، يمكنكِ رؤية المقهى من هنا، ها هو في الميدان.

دلفا إلى المقهى وجلسا إلى طاولة منعزلة؛ حيث يجلس كبير المحققين ويقرأ جريدته. تعرَّف إليهما على الفور، صافحه رِنين ودون ديباجة قال: سأعرض عليك مسألة مثيرة أيها المحقق، قضية يمكنك أن تحلها. ربما كنت عَلى علم بها؟

- أي قضية؟

- دالبريك.

بدت الدهشة واضحة على موريسو. تردد وبصوت تائه قال: نعم، أنا.. تحدثت الجرائد عن الأمر.. سرقة السيارة.. وسرقة خمسة وعشرين ألف فرنك.. ستتحدث الصحف غدًا عن اكتشاف توصلنا إليه لتونا في مركز الشرطة، الاكتشاف: أن دالبريك هو مُنفِّذ جريمة قتل هزت الرأي العام السنة الماضية، مقتل الصائغ بورجيه.

قال رِنين: هناك شيء آخر.

- ما هو؟

- عملية اختطاف ارتكبها صبيحة السبت التاسع عشر من سبتمبر.

- آه! أنت تعرف؟

- أعرف.

قال المحقق بشيء من العزم: في هذه الحالة، فليكُن. يوم السبت التاسع عشر من سبتمبر، في وضح النهار، ومن الشارع، تم اختطاف سيدة كانت تتسوق، قام بخطفها ثلاثة قُطَّاع طُرُق في سيارة وفرَّت سيارتهم بأقصى سرعة. كتبت الصحف عن الحادث، لكن دون أن تكتب اسم الضحية أو الخاطفين، ولهذا السبب الوجيه، لم يكُن هناك دليل ملموس. فقط يوم أمس تم إرسالي إلى لوهافر مع ثلة من المحققين، وتمكنت من تعرُّف أحد الخاطفين. سرقة الخمسة وعشرين ألف فرنك، وسرقة السيارة، واختطاف السيدة الشابة، كلها حوادث نفَّذها رجل واحد. مذنب واحد: دالبريك. أما عن الشابة، فلا نملك معلومات. كل عمليات بحثنا ذهبت أدراج الرياح.

أورتِنس لم تقطع حديث المحقق. كانت مستاءة حين ختم حديثه. عندما انتهى زفرت وقالت: إنه أمر مخيف.. المسكينة اختفت.. لا يُوجَد أمل..

قال رِنين: الضحية هي أخت، أو لأكون أكثر دقة، الأخت غير الشقيقة للسيدة أورتِنس.. إنها ممثلة سينمائية مشهورة.. روز- آندريه.. وفي جُمل قليلة شرح رِنين الشكوك التي اعترته عند مشاهدة فيلم الأميرة السعيدة والتحقيق الذي قام به منفردًا.

خيَّم صمت قصير حول الطاولة الصغيرة. كبير المحققين، ولمرة أخرى، أربكته براعة رِنين، وانتظر كلماته. ناشدته أورتِنس بنظرتها، كما لو كان قادرًا على الانتقال من المقدمات إلى حل اللَغز.

سأل موريسو: هل أكيد أن ثلاثة رجال كانوا في السيارة؟

- نعم.

- وثلاثة أيضًا في درو؟

- لا في درو لم نقتفِ سوى أثر اثنين.

- بينهما دالبريك؟

- لا أعتقد، لا تتطابق أي مواصفات مع مواصفاته.

فكر للحظة، ثم أفضى خارطة طريق كبيرة أمامهم على الطاولة.

حلّ صمت جديد بعده قال رِنين للمحقق: هل تركت زملاءك في لوهافر؟

- نعم. زميلين.

- هل يمكنك مهاتفتهم الليلة؟

- نعم.

- وتتصل بمحققين آخرين من مركز الأمن؟

- نعم.

- حسنًا، لنلتقِ غدًا عند الظهيرة.

- أين؟

- هنا.

وبإبهامه، أشار إلى نقطة على الخريطة، وُضِعت عليها علامة، وكُتِب: «لو شان كو□» المنطقة التي تقع في غابة بروتون في مقاطعة لور.

قال: هنا. في مساء يوم الاختطاف لجأ دالبريك إلى هذا المكان. أراك غدًا، سيد موريسو. كن دقيقًا، خمسة رجال ليسوا كثيرين ليقبضوا على وحش مثل هذا.

لم يتكاسل المحقق. هذا الجهنمي الفذ يذهله. دفع ثمن شرابه، ووقف. أدى التحية العسكرية بآلية وخرج يتمتم: سنكون هناك يا سيدي.

في اليوم التالي، في تمام الثامنة صباحًا، غادر رِنين رفقة أورتِنس باريس في سيارة ليموزين يقودها كليمون. كانت رحلة صامتة. أورتِنس، على الرغم من إيمانها بقوة رِنين غير العادية، فقد قضت ليلة سيئة تفكر بقلق في نتيجة المغامرة.

حين اقتربوا. قالت له: أي دليل تملكه على لجوء دالبريك إلى هذه الغابة؟

فض رِنين الخريطة على ركبتيه، وحدد لأورتِنس، محركًا إصبعه، أنه إذا رُسِم خط من لوهافر، أو بالأحرى من كيبوف، (حيث يعبر نهر السين) وإلى درو (حيث عُثِر على السيارة)، فإن هذا الخط يلامس الحواف الغربية لغابة بروتون.

وأضاف: علاوة على ذلك، في غابة بروتون، وفقًا لمعلومات شركة الإنتاج، تم تصوير فيلم الأميرة السعيدة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: دالبريك، مجنون روز- آندريه، حين مر يوم السبت قُرْب الغابة، ألم تساوره فكرة إخفاء فريسته هناك، بينما بقي المتواطئان في درو ثم عادا إلى باريس؟ الكهف هناك، قريب جدًّا. كيف لا يذهب إليه؟ ألم يحدث قُرْب هذا الكهف، قبل بضعة أشهر، أن أمسك بين ذراعيه المرأة التي يحبها وكان على بُعْد قُبلة منها، المرأة التي اختطفها للتو؟ في نظره من المنطقي وحتمًا أن تبدأ المغامرة مرة أخرى. ولكن هذه المرة بمزيد من الواقعية.. روز- آندريه أسيرة. لا مساعدة محتملة لها. الغابة شاسعة ومهجورة. في تلك الليلة، أو إحدى الليالي التالية، سيتحتم على روز- آندريه أن تُسلِّم نفسها..

ارتجفت أورتِنس: أو تموت. يا إلهي! وصلنا بعد فوات الأوان يا رِنين.

- لماذا؟

- فكِّر في الأمر! ثلاثة أسابيع.. أنت لا تفترض أنه كان يحتجزها هناك لفترة طويلة!

- بالتأكيد لا. الكهف، كما قيل لي، على مفترق الطرق وليس آمنًا. لكننا سنكتشف هناك بالتأكيد بعض القرائن.

تناولا الغداء على الطريق، قبل الظهيرة بقليل، ودخلا غابات بروتون العالية، وهي غابة قديمة وشاسعة مليئة بالأطلال الرومانية وبقايا العصور الوسطى. وجَّه رِنين، الذي كان يسافر عبرها كثيرًا، السيارة نحو شجرة بلوط شهيرة على بُعْد عشرة فراسخ حولها، والتي شكَّلت فروعها شكلًا يشبه الوعاء الكبير. توقفت السيارة عند المنعطف الأمامي وسارا إلى الشجرة. كان موريسو ينتظرهما بصحبة أربعة محققين عتيدين.

قال رِنين موجهًا الحديث لهما: تعاليا، الكهف في الجوار، بين الأجمة.

وجدوه بسهولة. تطل الصخور الضخمة على مدخل منخفض حيث ينزلق داخله المرء عبر طريق ضيق بين أجمة كثيفة.

دخل رِنين وفتش بمصباحه الكهربائي زوايا وشقوق الكهف الصغير التي اكتظت على جدرانه رسومات وتوقيعات.

قال لأورتِنس وموريسو: لا شيء في الداخل. ولكن إليكم الدليل الذي أبحث عنه. إذا كانت ذكرى الفيلم قد أعادت دالبريك حقًّا إلى كهف الأميرة السعيدة أنه كان ليفعل الشيء نفسه مع روز- آندريه. مع ذلك، فإن الأميرة السعيدة في الفيلم كسرت أطراف الفروع المحيطة بالكهف. وهنا، على يمين الكوة، الفروع تم كسرها مؤخرًا.

قالت أروتِنس: حسنًا، أمنحك موافقتي على وجود دليل محتمل على مرورهم، لكنه يعود إلى ثلاثة أسابيع، ومنذ ذلك الحين...

- منذ ذلك الحين تم حبس أختك في مكان أكثر عزلة.

- أو ماتت ودُفِنت تحت كومة من الأوراق..

قال رِنين وهو يدق بقدمه: لا.. لا، من غير المعقول أن هذا الرجل تكبد عناء كُل ما فعله من أجل تنفيذ جريمة قتل غبية. سينتظر. سيراوغ ضحيته لتستسلم، سيستخدم التهديد والتجويع..

- ثم؟

- سنبحث.

- كيف؟

- للخروج من هذه المتاهة، لدينا خيط محتمل وهو حبكة الأميرة السعيدة. دعونا نتبعها، ذهابًا وإيابًا، إلى البداية. في الدراما، عبر الحطّاب الغابة؛ لإحضار الأميرة إلى هنا، بعد التجديف على طول النهر. يقع نهر السين على بعد كيلومتر واحد. دعونا ننزل إلى نهر السين.

غادر الكهف. تحرك دون تردُّد، يرقب الأفق مثل كلب صيد متمكن ترشده حاسته لليقين. تبعتهم السيارة من بعيد، ووصلوا إلى مجموعة من المنازل تقع على حافة النهر. ذهب رِنين مباشرةً إلى منزل رجل تأجير القوارب واستجوبه.

دار حديث سريع. قبل ثلاثة أسابيع، صباح يوم الاثنين، لاحظ هذا الرجل اختفاء أحد قواربه. هذا القارب عُثِر عليه فيما كان مغروسًا في الوحل على بُعْد نصف فرسخ.

سأله رِنين: ليس بمبعدة عن الكوخ الذي تم تصوير فيلم سينمائي داخله هذا الصيف؟

- نعم.

- وهذا هو المكان الذي وصلوا فيه إلى امرأة مخطوفة؟

- نعم. الأميرة السعيدة، أو بالأحرى الممثلة روز- آندريه التي تملك منزلًا يُدعَى كلوا-چولي.

- هل المنزل مفتوح الآن؟

- لا، السيدة ليست هنا، غادرت منذ شهر، بعدها أُغلِق المكان.

- لا يُوجَد بستاني؟

- نعم.

عادت رِنين وقال لأورتِنس: بلا شك. هذا هو السجن الذي اختاره.

استأنفت المطاردة. ساروا بمحاذاة السين بهدوء على عشب الطريق. تفرع الطريق إلى الطريق الرئيس حيث غابات كثيفة في نهايتها رأوا المنزل أعلى التل. ميّزت أورتِنس ورِنين على منزل الأميرة السعيدة. كانت النوافذ محاطة بمصاريع، والمسارات نمت فوقها الأعشاب. ظَلوا هناك لأكثر من ساعة، مجتمعين في الغابة. بدأ صبر المحقق ينفد، وفقدت الشابة ثقتها غير مصدقة أن كولي-چولي قد يكون بمثابة سجن لأختها. لكن رِنين استمر في إيمانه.

- إنها هنا. هذه كلمتي لكم. الأمر منطقي. من المستحيل أن دالبريك لم يختَر هذا المكان لاحتجازها. يأمل، في بيئة تعرفها، أن يجعلها أكثر انقيادًا.

أخيرًا، في وقفتهم على الجهة المقابلة للمنزل، سُمِعت خطوة بطيئة مكتومة. ظهر خيال على الطريق. من هذه المسافة كان من الصعب رؤية وجه صاحبه. لكنها كانت مشية ثقيلة بوتيرة تشبه الرجل الذي شاهده رِنين وأورتِنس على شاشة السينما.

وهكذا، في غضون أربع وعشرين ساعة على المؤشرات الغامضة التي ظهرت على الممثل، وصل الأمير رِنين، مستعينًا بمنطق بسيط في التحليل النفسي، إلى قلب الدراما. ما اقترحه الفيلم، أو فرضه على دالبريك. كان دالبريك قد تصرَّف في الحياة الواقعية كما تصرَّف في الحياة الخيالية للسينما، ورِنين، الذي كان يسير خطوة بخطوة مقتفيًا الطريق الذي ساره دالبريك تحت تأثير الفيلم، وصل إلى نفس المكان الذي احتجز فيه الحطَّاب الأميرة السعيدة.

كان دالبريك يرتدي زي رجل السكك الحديدية، ثيابًا مرقعة وأسمالًا. وحمل حقيبة كرتونية خرج منها عنق زجاجة وطرف رغيف فرنسي، وعلى كتفه تعلَّق فأس حطَّاب.

وجد قفل الباب مفتوحًا، ودخل البستان، وسرعان ما أخفاه خط من الشجيرات قاده إلى الواجهة الأخرى للمنزل.

أمسك رِنين ذراع موريسو كابحًا إياه من الاندفاع.

سألت أورتِنس: لكن لِمَاذا؟ يجب ألَّا نسمح لهذا اللص بالدخول.. خلاف ذلك...

- ماذا لو كان لديه شركاء؟ ماذا لو حذَّره أحد؟

- سيكون أمرًا سيئًا. بادئ ذي بدء دعونا ننقذ أختي.

- ماذا لو وصلنا متأخرين جدًّا للدفاع عنها؟ في غضبه، يمكنه قتلها بالفأس.

انتظروا. مرت ساعة أخرى. التقاعس عن العمل أغضبهم. بكت أورتِنس في بعض الأحيان. لكن رِنين صمد، ولم يجرؤ أحد على عصيانه.

هبط الليل. بالفعل كانت ظلال الشفق الأولى تمتد فوق أشجار التفاح، عندما، فجأة، فتِح باب الواجهة التي رأوها، وانطلقت صرخات رعب وانتصار، قفز زوجان، تعانقا، استطاعوا تمييز ساقَي الرجل وجسد المرأة التي حملها بين ذراعيه واستندت على صدره.

تلعثمت أورِتنس: إنها! إنها.. روز! بربك رِنين أنقذها..

بدأ دالبريك يركض بين الأشجار مثل رجل مجنون. يضحك، ويصرخ. قام، على الرغم من حمله، بالقفز قفزات ضخمة؛ مما منحه شعورًا كأنه وحش رائع في حالة نشوى مسكرة مع الفرح. إحدى يديه، محررة، تُلوِّح بالفأس الذي يتلألأ سطحه.. كانت روز تصرخ في رعب. عبر البستان، وركض بمحاذاة السياج، ثم توقف فجأة أمام بئر، وتصلبت ذراعاه، وانحنى صدره، كما لو كان يريد أن يقذفها في الهاوية.

كانت لحظة فظيعة. هل سيعقد العزم على القيام بهذا العمل الرهيب؟ لكن هذا كان، بلا شك، مجرد تهديد. يجب أن يدفع رعب الشابة إلى طاعته. غادر فجأة، وعاد في ذات الخط المستقيم نحو الباب الرئيس، واندفع إلى الدهليز. سُمِع صوت القفل. أُغلِق الباب.

لسبب غير مفهوم، لم يتحرك رِنين، بكلتا ذراعيه، سد الطريق أمام المفتشين، بينما توسلت إليه أورِتنس متشبثة بثيابه: أنقِذها.. هذا جنون.. سيقتلها.. أتوسل إليك..

ولكن، في اللحظة ذاتها، قام الرجل بهجمة جديدة على فريسته. ظهر عند كوة اخترقت قش السقف. أرجح روز- آندريه في الفراغ كما لو كان عازمًا على إلقائها.

ألا يستطيع أن يأخذ قراره؟ أم أنه مجرد تهديد؟ هل يعتبر روز مروضة بما يكفي؟ عاد إلى الداخل.

هذه المرة فازت أورِتنس. ضغطت يداها الناعمتان على يد رِنين، وشعر بها ترتجف بشدة.

- وي! أتوسل إليك.. أتوسل إليك.. ماذا تنتظر؟

قال مستسلمًا: حسنًا، لندخل. ولكن ليس على عَجل. علينا أن نفكر.

- نفكر! لكن روز.. روز ستُقتَل! هل رأيت الفأس؟ إنه مجنون.. سيقتلها.

أكدّ رِنين: لدينا وقت، سأصل للحل على الفور.

احتاجت أورِتنس للاتكاء على رِنين. خارت قواها وأصبحت غير قادرة على السير. وهكذا هبطوا من التل واختاروا مكانًا مخفيًّا بين الأشجار. ساعد رِنين الشابة على عبور السياج. على أي حال، خبأتهم ستائر الظلام.

دون كلمة، التف رِنين حول البستان، وتبعوه وصولًا إلى الجهة الخلفية من المنزل. كان هذا المكان هو الذي دلف منه دالبريك. في الواقع، رأوا بابًا صغيرًا رجَّحوا أنه باب المطبخ.

قال رِنين للمحققين: سندفع الباب بكتفنا. يمكنكم أن تدخلوا حين تسنح لكم الفرصة.

- لقد حان الوقت. قالها موريسو بنبرة أسف على الوقت الذي راح هباءً.

- ليس بعد. أريد أن أتأكد أولًا مما يحدث في الداخل. حين أطلِق صافرة، اقتحِم وهدِّد الرجل حاملًا مسدسك. لكن ليس قبل صافرتي، حسنًا؟ وإلَّا فإننا نخاطر بشكل كبير..

- ماذا لو قاوم؟ إنه غاشم مجنون.

- أطلِق النار على ساقه. بالتأكيد سنلقي القبض عليه وهو على قيد الحياة. إنكم خمسة رجال أمام رجل بحق الجحيم!

على عَجل درَّب أورِتنس وتبادل معها كلمات قليلة:

- أسرع! لا نملك الكثير من الوقت. ضعي ثقتكِ الكاملة بي.

تنهدت قائلة: لا أفهم.. لا أفهم.

قال رِنين: وأنا كذلك. هناك شيء خطأ حيال الأمر برمته يربكني. لكن ما أفهمه يكفي لأخشى حدوث ما لا رجعة فيه.

قالت: ما لا رجعة فيه.. موت روز.

قال: لا. إنها العدالة. ولهذا السبب أريد أن آخذ زمام المبادرة.

التفوا حول المنزل واصطدموا بأجمة الأشجار. ثم وقف رِنين أمام أحد النوافذ في الطابق الأرضي..

قال: أنصتِ.. أحدهم يتحدث.. الصوت قادم من تلك الغرفة هناك في الأعلى.

رجَّح هذا الصوت ضرورة حضور ضوء في الغرفة ينير العتمة لمَن يتحدث، أو يتحدثون. بحث رِنين، نحَّى الشجيرات جانبًا التي حجبت الرؤية الواضحة عبر المصاريع، ورأى ضوءًا خافتًا يتَسرب من بين المصراعين المغلقين كيفما اتُّفِق.

استطاع أن يمرر عبر مصراعَي الدور الأرضي نصل سكينه والذي انزلق بلطف، وبواسطته تمكن من رفع المزلاج الداخلي. فُتِحت المصاريع. كان هناك في الأعلى ستائر ثقيلة من القماش على النافذة منسدلة.

همست أورتِنس: هل ستصعد على الحافة؟

- نعم، وسأنزع إحدى البلاطات. إذا وقعت حالة طارئة، سأسدد مسدسي نحو الرجل، وستتلقين الصافرة ليهاجم بقية الرجال كما اتفقنا. انتظري، ها هي الصافرة.

تسلَّق بحرص وخطوة بخطوة وصل إلى النافذة التي انسدلت ستائرها. مد يدًا إلى المسدس المُعلَّق في حزامه، وبالأخرى تمسك بحافة النافذة.

سألته أورتِنس: ترى شيئًا؟

ضغط جبهته إلى النافذة، وعلى الفور انطلقت منه صيحة قصيرة خافتة.

- آه! أهذا يُعقَل؟

حثته أورتِنس: أطلِق النار! أطلِقه!

- لكن، لا..

- حسنًا هل أُطلِق الصافرة؟

- لا.. لا.. على العكس..

وضعت إحدى ركبتيها على الحافة وهي ترتجف، شدَّها رِنين نحوه؛ حتى تتمكن من رؤية ما يحدث.

- انظري.

قرَّبت وجهها.

- يا للهول! قالتها بصوت مأخوذ من الصدمة.

- إليكِ! ماذا قُلت؟ اشتبهت في شيء مريب، لكن ليس هذا!

أضاء مصباحين، وربما عشرين شمعة، غرفة معيشة فاخرة، مؤثثة بآرائك وسجاد شرقي. على إحدى هذه الآرائك، كانت روز- آندريه نصف مستلقية، مرتدية فستانًا من القماش الناعم ارتدته في فيلم الأميرة السعيدة، وكتفها الجميل عارٍ، وشعرها مُضفَّر بالجواهر واللآلئ.

كان دالبريك عند قدميها راكعًا على وسادة في ثيابه الداخلية ويُحدِّق فيها بنشوة. ابتسمت روز، سعيدة هي، وداعبت شعر الرجل. انحنت عليه مرتين، قبَّلت جبهته أولًا، ثم قبَّلت فمه قُبلة طويلة، بينما كانت عيناها تبرق بما تشعر به من نشوة.

مشهد حميمي! متحدان جسديًّا، شفاهما متلاصقة، وأيديهما ترتعش، كُل رغباتهم الشابة واضحة، هذان المخلوقان أحبَّا بعضهما البعض حبًّا حصريًّا وعنيفًا. شعروا أنهم في عزلة وسلام داخل هذا المكان، لا شيء يهمهما أكثر من قُبلاتهما ومداعباتهما.

لم تستطِع أورتِنس أن تبعد عينيها عن هذا المشهد غير المتوقع. هل مَن ترى هما نفس الرجل والمرأة؟ أحدهما، قبل بضع دقائق، كان يدفع الآخر إلى رقصة أشبه برقصة الموت! هل كانت أختها حقًّا؟ لم تميزها. رأت امرأة أخرى، تنبض بجمال جديد، بدَّلها شعور، خمَّنته أورتِنس، ينبض بالقوة والحماس.

تمتمت أورتِنس: يا إلهي، لكَم تحبه! هذا المخلوق! أهذا ممكن؟!

قال رِنين: يجب منعها، والحديث معها..

- نعم.. نعم، لا يجب أن تتورط، بأي ثمن، في فضيحة أو الأسوأ: اعتقالها. اسمح لها بالذهاب! ليبقى أمرهما مجهولًا للجميع..

لسوء الحظ، كانت أورتِنس في حالة من الإثارة المفرطة دفعتها للتصرف على عَجل. بدلًا أن تطرق بلطف على الزجاج، كسرت النافذة ودفعت المصراعين بقبضتيها. نهض العاشقان، مفزوعين،

وأعينهما ثابتة، وأرهفا السمع. أراد رِنين أن يدلف على الفور إلى الغرفة ليشرح لهما الأمر. لكن لم يسعفه الوقت. روز- آندريه، التي كانت تعرف بلا شك أن حبيبها في خطر، ومطلوب من قِبل الشرطة، دفعته نحو الباب في محاولة يائسة.

أطاعها دالبريك. كانت نية روز بالتأكيد أن تجبره على الفرار من باب المطبخ. اختفيا. عرف رِنين بوضوح ما سيحدث. سيقع الهارب في الكمين الذي أعده رِنين بنفسه. ستحدث معركة. وربما يموت إنسان..

هبط إلى الأرض وركض ملتفًّا حول المنزل. لكن الطريق كان طويلًا، ومظلمًا، ومزدحمًا بالأشجار والأجمة. في الجهة الأخرى من المنزل كانت الأحداث تتسارع بشكل يفوق المفترض والمتوقع. عندما وصل رِنين إلى الجهة الأخرى، دوت طلقة، تلتها صرخة ألم.

على عتبة المطبخ، على ضوء مصباحين يدويين، وجد رِنين دالبريك مستلقيًا، يمسك بثلاثة من رجال الشرطة، ويئن. كُسِرت ساقه.

داخل المطبخ، وقفت روز- آندريه، مذهولة، يداها ممدودتان أمامها، ووجهها متشنج، وكلماتها متلعثمة لا تُسمَع.

جذبتها أورتِنس نحوها وهمست في أذنها: هذا أنا.. أختكِ.. أريد إنقاذكِ.. هل تعرفتِ إليَّ؟

لم تظهر علامات الفهم على وجه روز. كانت عيناها شاخصتين.

سارت بخطوة متشنجة نحو المحققين، وقالت: هذا أمر بغيض.. الرجل المُلقَى هناك لم يفعل شيئًا..

لم يتردد رِنين. تصرف معها كما يتصرف المرء مع امرأة مريضة فقدت عقلها. أمسكها بين ذراعيه، وتبعته أروتِنس التي أغلقت الأبواب، وأعاداها إلى غرفة المعيشة.

قاومتهما بشراسة، واحتجت بصوت يلهث: هذه جريمة.. لا أحد يملك الحق.. لماذا يعتقلونه؟ نعم، قرأت الأمر.. مقتل الصائغ بورجو.. قرأت الأمر اليوم صباحًا، لكنها كذبة. يمكنه إثبات ذلك.

أجلسها رِنين على الأريكة، وبحزم قال: أرجوكِ أن تهدأي. لا تتفوهي بأي شيء قد يُعرِّضك للخطر.. ماذا تريدين؟! هذا الرجل سرق.. سرق السيارة.. ثم خمسة وعشرين ألف فرنك..

- لقد أصابه رحيلي إلى أمريكا بالذعر. ولكن عُثِر على السيارة.. وسيتم إعادة الأموال.. لم يلمسها. لا، لا، ليس لديهم الحق.. كنت هنا بمحض إرادتي. أنا أحبه.. أحبه أكثر من كل شيء.. كما لو أن المرء لا يحب سوى مرة واحدة في عمره.. أحبه.. أحبه.

خارت قوى المسكينة. تحدثت كما لو كانت داخل حلم، تؤكد حبها بنبرة متهالكة. في النهاية، استُنفِدت قواها، أصابتها هزة قوية، وسقطت. فقدت الوعي.

بعد ساعة، مستلقيًا على سرير في غرفة، فتح دالبريك عينيه. معصماه مربوطان بإحكام. أدار عينيه في المكان، كان الطبيب بقربه. أوصلته سيارة رِنين إلى هنا. أخبره أيضًا أن ساقه قد ضُمِّدت وطلب منه الراحة الكاملة حتى اليوم التالي. أوقف موريسو رجاله للحراسة.

أما رِنين، فقد ذرع الغرفة جيئة وذهابًا أكثر من مرة، ويداه خلف ظهره. بدا مبتهجًا للغاية، ومن وقت لآخرَ شاهد الشقيقتين تبتسمان، كما لو أنه وجد الصورة التي قدموها لعيون فنانة ساحرة.

سألته أورتِنس عندما لاحظت بهجته الواضحة: ماذا هنالك؟

التفت إليها نصف التفاتة وفرك يديه، ثم قال: الأمر مضحك.

قالت أورتِنس بنبرة موبخة: ما المضحك في الأمر؟

- بربك! الموقف. روز- آندريه حرة، تعيش قصة حب مثالية، ومع مَن؟ رجل الغابة! رجل غابة مستأنس، يرتدي ملابسه الداخلية، وهي تلثم فمه، ماذا تريدين أكثر؟ كنا نبحث عنها في قاع بئر أو قبر.

واستمر: آه! لكنها عرفت آلام الأسر بالتأكيد، وأؤكد أنها في الليلة الأولى، حين تم إلقاؤها في الكهف نصف ميتة، استيقظت في اليوم التالي لا تصدق أنها على قيد الحياة! كانت ليلة واحدة فقط كافية لتُروَّض، وتتشوه نفسها، ويظهر لها أن دالبريك وسيمًا مثل أمير الأحلام. ليلة واحدة فقط! ليلة منحتهما شعورًا أنهما خُلِقا لأحدهما الآخر، وأنهما قررا ألَّا يفترقا، ويبحثا عن ملجأ في هذا العالم. أين؟ هنا. سُحقًا! مَن سيتبع روز- آندريه إلى هنا؟ لكن هذا لم يكفِ. يستغرق العاشقون وقتًا أطول. شهر عسل لبضعة أسابيع؟ ها هو الأمر! سيُكرِّسان كُل حياتهما لأحدهما الآخر. كيف؟ باتباع طريق ساحر وخلاب شرعا فيه بالفعل؛ أي عن طريق (تحويل) إبداعات جديدة! ألم ينجح دالبريك في الأميرة السعيدة بما يتجاوز كل الآمال؟ المستقبل! لوس أنجلوس! الولايات المتحدة الأمريكية! الثورة والحرية.. لا نملك دقيقة لنخسرها. الحق في العمل! وهكذا، نحن، المتفرجون المذعورون، فاجأناهم، الآن فقط تكتمل تجربة الأداء. نؤدي دراما مجنونة. سأعترف، لأكون صريحة، أنه من قبل كانت لديَّ بعض الشكوك؛ بسبب الفيلم على ما أظن. ولكن بالنسبة لتخمين مؤامرة الحب تلك، لا! كنت على بُعْد مئة فرسخ. ماذا تريد؟! على الشاشة، وكذلك في المسرح، تقاوم الأميرات السعيدات، أو يقتلن أنفسهن. كيف يمكننا أن نفترض أنها فضَّلت العار على الموت؟

استمتع رِنين بسرده واستأنف حديثه بعد صمت: هذه ليست الطريقة التي تحدث بها الأشياء في الأفلام! وهذا ما جعلني أخطئ. منذ البداية، كنت أتبع فيلم الأميرة السعيدة، واقتفيت خطواته. قلت: لقد تصرَّف رجل الغابة بهذه الطريقة؛ لذا عندما يُحاكِي كل شيء مرة أخرى، دعنا نتبعهم. حسنًا! أعتذر. على عكس جميع القواعد، تأخذ روز- آندريه المسار الخطأ، في غضون ساعات قليلة، تتحول الضحية إلى أكثر الأميرات رومانسية! يا لدالبريك المقدس! لقد هزمتنا جيدًا؛ لأنه أخيرًا، عندما يظهر في السينما بشكل وحشي، يحق لنا أن نتخيل أنه سيظهر ذات الوحشية في الحياة. بربك! إنه (دون خوان) المخادع.

لقد تصرف رجل الغابة بهذه الطريقة؛ لذا عندما يبدأ كل شيء مرة أخرى، دعنا نتبعهم. حسنًا! عفوًا. على عكس جميع القواعد، تأخذ روز- آندريه المسار الخطأ، وفي غضون ساعات قليلة، تتحول الضحية إلى أكثر الأميرات غرامية! آه! هولي دالبريك، لقد حبكتها جيدًا؛ لأنه على أي حال، عندما

يظهر في السينما وحشيًا، وحش له الشعر الطويل ووجه الغوريلا، يحق لنا أن نتخيل أنه، في الحياة، هو شيء من الوحشية الغاشمة الهائلة. هيا! إنه (دون جوان) المخادع، اذهب!

مرة أخرى فرك رِنين يديه. لكنه لم يستمر في الحديث؛ لأنه أدرك أن أورتِنس توقفت عن الإنصات إليه. استيقظت روز من غفوتها. أحاطتها أورتِنس بذراعيها وهي تهمس: روز.. روز، هذا أنا.. ليس هناك داعٍ للخوف الآن.

أخذت تتحدث إليها بصوت منخفض، وتهدهدها بمودة. لكن روز، تدريجيًّا، بينما كانت تنصت إلى أختها، تحولت ملامح وجهها للمعاناة، وظلت بلا حراك، بعيدة، جالسة على الأريكة، تنفُّسها جامد، وشفتاها مشدودتان.

شعر رِنين أن هذا الألم لا ينبغي أن يؤذي وأنه لا يمكن لأي منطق أن يسود ضد قرار روز- آندريه المدروس.

اقترب منها، وقال برِقة: أوافقكِ الرأي يا سيدتي، واجبكِ، مهما حدث، هو الدفاع عن الرجل الذي تحبين، وإثبات براءتَه. لكنا لسنا على عجلة من أمرنا، وأعتقد أنه من الأفضل لمصلحته، التأجيل لبضع ساعات، وأن نحافظ على منحه الانطباع بأنك ضحيته. صباح الغد، وإذا لم تُغيِّري رأيكِ حينها، فسوف أنصحكِ بأفضل طريقة للتصرف. حتى ذلك الحين، اصعدي إلى غرفتكِ رفقة أختكِ، واستعِدي للمغادرة، واتركي أوراقكِ؛ حتى لا يكشف البحث أي شيء ضدك. صدِّقيني.. وثِقي بي.

اضطر رنين للإصرار على ما قال لبعض الوقت؛ حتى تمكن من إقناع السيدة الشابة. وعدته أن تنتظر.

استقروا على قضاء الليل في كلوا- جولي. كانت هناك وعود تكفي للانتظار. أعَد أحد المحققين العشاء.

في المساء نامت أورتِنس مع أختها في الغرفة. ونام رِنين وموريسو واثنان من المحققين على الآرائك، بينما استيقظ المحققون الآخرون ليحرسوا المصاب.

مضى الليل دون أحداث.

في الصباح، وصل رجال الشرطة، الذين أبلغهم كليمون في اليوم السابق، في وقت مبكر. تقرر نقل دالبريك إلى مستوصف سجن المقاطعة. عرض رِنين سيارته، التي أحضرها كليمون.

الشقيقتان، بعد أن أدركتا ما يحدث، نزلتا إلى الطابق السفلي. ارتسم على وجه روز- آندريه تعبير قاسٍ لأولئك الذين يريدون التصرف. نظرت إليها أورتنس بقلق ولاحظت وجه رِنين الهادئ.

كل شيء جاهز، كل ما تبقَّى هو إيقاظ دالبريك وحارسيه.

ذهب موريسو إلى هناك بنفسه. لكنه وجد الرجلين نائمين والسرير فارغًا. هرب دالبريك.

لم يتسبب هذا الانقلاب في الأحداث في اضطراب كبير بين الشرطة والمحققين؛ لأنهم كانوا على يقين أن الهارب، بساقه المكسورة، سيتم القبض عليه بسرعة. لغز هذا الهروب، الذي تم دون أن

يسمع الحراس أدنى ضوضاء، لم يُثِر اهتمام أحد. حتمًا اختبأ دالبريك في البستان.

في التو بدأ تنظيم الصفوف. وكانت هناك ثقة كبيرة في العثور عليه، دفعت روز- آندريه، التي استاءت مرة أخرى، إلى الذهاب إلى كبير المحققين.

همس إليها رِنين الذي كان يراقبها: اخرسي.

تلعثمت: سيعثرون عليه.. ويقنصونه بأسلحتهم.

أكد رِنين لها: لن يعثر أحد عليه.

- ماذا تعرف؟

- أنا، بمساعدة سائقي، مَن ساعده على الهرب ليلة أمس. القليل من المنوم في قهوة المحققين، لم يشعروا بشيء.

ذُهِلت واعترضت: لكنه جريح، سيموت قريبًا.

- لا.

سمعت أورتِنس، دون أن تفهم. لكنها كانت واثقة في رِنين ومطمئنة له.

قال بصوت منخفض: أقسِمي لي يا سيدتي. أقسِمي لي أنه في غضون شهرين، بعدما يُشفَى، وتظهر العدالة، ستغادرين معه إلى أمريكا.

- أُقسِم لك.

- وأنكما ستتزوجان؟

- أُقسِم لك.

- إذن تعالي. لا تنبسي بكلمة، ولا تسمحي للفتة دهشة بالظهور. لحظة من السهو قد تُفقِد كل شيء.

تحدَّث مع موريسو الذي بدا يأسًا: سيدي كبير المحققين، يجب أن نأخذ السيدة إلى باريس ونُقدِّم لها الرعاية اللازمة. على أي حال، مهما كانت نتيجة بحثك - وليس لديَّ شك في أنه سينجح - كن مطمئنًا أنك لن تقع في مشكلة بسبب هذه الحالة. هذا المساء، سأذهب على الفور إلى المحافظة حيث تربطني علاقات جيدة.

مد ذراعه لروز- آندريه وقادها إلى السيارة. بينما كان يمشي، شعر أنها تترنح وتتشبث به.

همست: يا إلهي، لقد أُنقِذ.. أنا أراه.

على المقعد، مقعد كليمون، وفي زي سائق، تعرفت إلى العيون المخبأة خلف نظارة كبيرة، تعرفت إلى حبيبها.

قال رِنين: اصعدي.

جلست جوار دالبريك. وجلس رِنين وأورتِنس على الأريكة الخلفية. لوَّح لهم كبير المحققين بقبعته وهو يدور حول السيارة.

غادروا. ولكن على بعد كيلومترين، في وسط الغابة، كان من الضروري التوقف. دالبريك، الذي تمكن، بجهد خارق، التغلب على آلامه، خارت قواه. أجلسوه على الأريكة. جلس رِنين خلف عجلة القيادة وأورتنس إلى جانبه. قبل لوفييه توقفوا في محطة جديدة ليصعد السائق كليمون الذي يرتدي ثياب دالبريك.

ثم كانت هناك ساعات من الصمت. السيارة تسرع بعيدًا. لم تنبس أورتنس، لم يكُن لديها حتى نية لتسأل رِنين عن أحداث الليلة السابقة. ما أهمية تفاصيل المهمة والطريقة الدقيقة التي شرع بها في إخفاء دالبريك؟! هذا لم يشغل أورتنس. فكرت فقط في أختها، التي كانت متأثرة بالكثير من الحب والكثير من العاطفة! قال رِنين ببساطة وهم يقتربون من باريس: تحدثت تلك الليلة مع دالبريك، هو بالتأكيد بريء من قتل الصائغ. إنه رجل شجاع وشريف يختلف جوهره تمامًا عن مظهره، معطاء ومخلص ومستعد لفِعل أي شيء لأجل روز- آندريه.

وأضاف رِنين: إنه على حق. عليك أن تفعل كل شيء من أجل مَن تحب. يجب أن تعرف كيف تكتب إليها، وتُقدِّم لها كل ما هو جميل في العالم، تُقدِّم لها الفرح، والسعادة.. وإذا شعرت بالملل، تمنحها مغامرات جميلة تبدد انتباهها، تثيرها وتجعلها تبتسم.. أو حتى تبكي.

ارتجفت أورتنس وزارت الدموع عينيها. لأول مرة، تعيش المغامرة العاطفية التي وحَّدتهم، كانت حتى الآن هشة، ولكن كل المغامرات التي عاشوها معًا في الكرب والضيق أعطت المزيد من القوة والمزيد من المقاومة لها. بالقرب من هذا الرجل الاستثنائي، الذي أخضع الأحداث لإرادته، وبدا أنه يلعب بمصير أولئك الذين حاربهم أو حماهم، شعرت بالضعف والقلق. أخافها وجذبها. كانت تفكر فيه كما تفكر جارية في سيدها، وأحيانًا تراه عدوًّا عليها أن تدافع عن نفسها ضده، ولكن في كثير من الأحيان تفكر فيه كصديق مزعج، مليء بالسحر والإغراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

قضية چان لويس

حدث الأمر بأكثر طريقة مبتذلة، وبسرعة أربكت أورتِنس. بينما كان الثنائي يتنزه على ضفاف السين ظهر ظِل امرأة تُهرَع عابرة حاجز الجسر، ثم سقطت في الفراغ. انطلقت الصرخات من كافة الأرجاء، ونداءات الاستغاثة، ثم، فجأة، أمسكت أورتِنس بذراع رِنين.

- ماذا؟ لن تقفز! أنا أمنعك..

بقيت سترة رفيقها بين ذراعيها. رِنين قفز فوق الحاجز، ثم.. ثم لم ترَ أي شيء. بعد دقائق ثلاث، انجرفت مع طوفان الناس الراكضين نحو حافة النهر. كان رِنين يحمل امرأة شابة سوداء الشعر وجهها حزين.

أكد لهم: لم تمُت.. أسرعوا، لنذهب للصيدلي.. لا خوف عليها..

وضع الشابة بين ذراعين رجلين، ودفع المتفرجين جانبًا والصحفيين الذين أخذوا يسألونه عن اسمه. ثم دفع بأورتِنس، التي كانت تهتز من فرط المشاعر، داخل سيارة أجرة.

بعد برهة تأفف، وقال: يا للعجب! سباحة أخرى! اعذريني يا صديقتي العزيزة، الأمر أقوى مني. حين أرى إنسانًا يسقط يجب أن أُنقِذه. لا شك أن أحد أجدادي نيوفاوندلاند ([2]).

عاد إلى منزله ليبدل ملابسه. كانت أورتِنس تنتظره في السيارة. ثم أمر السائق: شارع تيلسيت.

سألت أورتِنس: إلى أين سنذهب؟

- نتحقق من أمر الشابة.

- لديك عنوانها؟

- نعم، كان لديَّ الوقت لأقرأه على سوارها، وكذلك اسمها: چينِيڤ آيمارد. وإليها سنذهب. آه! ليس لأتلقى المكافأة المستحقة للنيوفاوندلاند! لا. بدافع فضول خالص. بل فضول سخيف. أنقذت عشرات المنتحرين في السين. دومًا دافعهم واحد: انكسار القلب، وفي كُل مرة يكون الحب سبب الانكسار. سترين ذلك بنفسكِ يا صديقتي العزيزة.

حين وصلا إلى منزل شارع دي تيلسيت، كان الطبيب يغادر الشقة التي تقطنها الآنسة آيمارد مع والدها. أخبرهما الخادم أن الفتاة نائمة. قدَّم رِنين نفسه بصفته منقذ چينِيڤ آيمارد، وطلب أن يمرر الخادم بطاقته إلى الأب. في التو ركض الأب نحوه بيديه الممدودتين والدموع في عينيه.

كان رجلًا مسنًّا، ضعيف المظهر، وبدأ في الحال، دون أن يتوقع أي سؤال، يقص بنبرة من الضيق الشديد: إنها المرة الثانية يا سيدي! الأسبوع الماضي أرادت الانتحار باستخدام السم، يا لها من طفلة مسكينة! أنا وهبتها دمي! «لا أريد الحياة بعد الآن! لا أريد الحياة بعد الآن!» هاك! كُل ما تملكه من

إجابة. آه! أخشى كثيرًا أن تَكرر التارة. يا له من رعب! تقتل نفسها، يا چينِ□ي□ المسكينة! ولماذا يا ربي؟!

سأله رِنين: نعم، لماذا؟ بلا شك، زواج محطم؟

- نعم! زواج محطم.. ابنتي العزيزة في غاية الحساسية!

قاطعه رنين. طالما شرع الرجل في طريق الثقة به، لم يكُن من الضروري إضاعة الوقت في كلمات عديمة الفائدة؛ لذا استخدم كل سطوته ليقول: لنتحدث بالترتيب يا سيدي، هلَّا نفعل؟ الآنسة چينِ□ي□ كانت مخطوبة؟

لم يخجل السيد آيمارد، وأجاب:

- نعم.

- منذ؟

- منذ الربيع. تعرفنا إلى چان لويس دورمي□ال في نيس حيث كنا نقضي إجازة عيد الفصح. بعد عودتنا إلى باريس بفترة قصيرة، هذا الشاب، الذي يسكن في الريف مع أمه وخالته، جاء واستقر في حينا، وكان الخطيبان يلتقيان كل يوم. من ناحيتي أعترف أن چان لويس □ابوا لم يعاملني بكثير لُطْف.

قال رِنين: عفوًا، قُل للتو إن اسمه چان لويس دورمي□ال.

- وهو اسمه.

- لديه اسمان؟

- لا أعلم. هناك لغز في الأمر.

- بأي اسم قدَّم نفسه إليكم؟

- چان لويس دورمي□ال.

- ولكن ماذا عن چان لويس □ابوا؟

- هو الاسم الذي قدَّم نفسه به لابنتي عبر وسيط يعرفه. □ابوا أو دورمي□ال، لا يهم. عشقته ابنتي. وبدا أنه يحبها بشغف. هذا الصيف، على ضفاف البحر، لم يبتعد عنها قط. ثم الشهر الماضي عاد چان لويس إلى منزله ليعيش مع أمه وخالته، حينها تلقت منه ابنتي هذه الرسالة: «چينِ□ي□، الكثير من العقبات تواجه سعادتنا. أتخلى عنها بيأس مجنون. أحبك أكثر من أي وقت مضى. الوداع! سامحيني». بعد عدة أيام حاولت ابنتي الانتحار للمرة الأولى.

- ولماذا هذا الانسحاب؟ حب آخر؟ مسألة من الماضي؟

- لا سيدي، لا أظن ذلك. لكن في حياة چان لويس - هذه قناعة چينِ□يِ□ الراسخة - لغز. أو بالأحرى سلسلة من الألغاز تعيقه وتطارده. وجهه يحمل أكثر الملامح المُعذَّبة التي رأيتها في حياتي، ومنذ الساعة الأولى شعرت فيه بحزن، واستمر الحزن دائمًا، حتى في اللحظات التي استسلم فيها لحبه بأكبر قدر من الثقة.

- مع ذلك، فقد تأكد لديك انطباعك بفضل التفاصيل الصغيرة، الأشياء التي صدمك اختلافها على وجه التحديد؟ لذلك هذا الاسم المزدوج.. ألم تسأله عنه؟

- بلى، سألت. المرة الأولى أجابني أن خالته مَن تناديه □ابوا، وأمه تناديه دورميـ□ال.

- والثانية؟

- العكس. قال إن أمه تناديه □ابوا وخالته دورميـ□ال. حين ذكرتُ له ما قال في المرة الأولى، احمر وجهه. لم أُصِر على سؤالي.

- هل مسقط رأسه قريب من باريس؟

- في جنوب بريتاني.. قصر دِلسـ□ن، على بُعد ثماني كيلومترات من كاري.

تأمل رِنين الموقف لبضع دقائق. ثم بعد أن حسم قراره قال للعجوز: لا أريد إزعاج الآنسة چينِ□يِ□، لكن كرِّر لها ذلك نصًّا: «چينِ□يِ□، السيد الذي أنقذكِ يتعهد بشرفه أن يُحضِر لكِ خطيبكِ في غضون ثلاثة أيام. اكتبي رسالة لچان لويس سيعطيها له منقذكِ».

بدت الدهشة على وجه العجوز. سأله: هل تستطيع؟ سوف تنجو ابنتي المسكينة من براثن الموت؟ ستصير سعيدة؟

ثم أضاف بصوت بالكاد يُسمَع، وإحساس يشبه الشعور بالعار: آه! يا سيدي، أرجو أن تُسرِع؛ لأن سلوك ابنتي يقودني إلى افتراض أنها نسيت جميع واجباتها، وأنها لا تريد أن تنجو من العار.. الذي سيعرفه الجميع قريبًا.

أمره رِنين: اصمت يا سيدي. هناك كلمات لا يصح النطق بها.

في الليلة ذاتها استقل رِنين وأورِتِس القطار إلى بريتاني. في العاشرة صباحًا وصلا إلى كاري، وفي الثانية عشرة والنصف ظهرًا، قُرْب حلول موعد الغداء، صعدا إلى سيارة استعاراها من أحد الوجهاء المحليين.

قال رِنين مبتسمًا وهما يهبطان أمام حديقة دِلسـ□ن: أنتِ شاحبة قليلة يا صديقتي العزيزة.

قالت: أعترف بذلك. هذه القصة تؤثر بي كثيرًا. فتاة صغيرة تواجه الموت مرتين.. ما الشجاعة التي يتطلبها الأمر؟! لذلك، يتملكني الخوف..

- الخوف مِمَّ؟

- من ألَّا تستطيع أن تنجح. ألست قلقًا؟

أجابها: صديقتي العزيزة، ربما سأفاجئكِ بلا حدود إذا قلت إنني أشعر بالبهجة إلى حد ما.

- لماذا؟

- لا أعرف. القصة التي تحركك بحق، تبدو لي، بنسبة ما، هزلية. دورميـ□ـال.. □ابوا.. لها رائحة قديمة الطراز وعفنة نوعًا ما.. صدقيني يا صديقتي العزيزة. واستعيدي رباطة جأشكِ. هلَّا تأتين؟

اجتاز البوابة المركزية. كانت محاطة ببوابتين مميزتين، إحداهما باسم السيدة دورميـ□ـال والأخرى باسم السيدة □ابوا. تُفضِي البوابات الثلاث إلى مدقات متفرعة حول المسار الرئيس إلى القصر ومحففة بالأجمة.

أدى المسار الرئيس إلى قصر قديم مهيب خلاب، لكن له جناحان قبيحان ومختلفان على الجانبين يُفضِي إليهما المسارات الجانبية. على اليسار جناح السيدة دورميـ□ـال وعلى اليمين جناح السيدة □ابوا.

أوقفت جلبة من الأصوات خطوات رِنين وأورِتنس. أرهفا السمع. تشاجرت أصوات عالية سريعة متدفقة من إحدى نوافذ الطابق الأرضي الذي تُظَلِّله الكروم الحمراء والورد الأبيض.

قالت أورتِنس: لا، لا يمكننا المُضي قُدمًا، إنه شجار طائش.

تمتم رِنين: وهذا سبب آخر يدفعنا للمضي قُدمًا. هذا واجبنا؛ لأننا نأتي لنستفهم الأمر. اسمعي، إذا مشينا بشكل مستقيم لن يرانا مَن يتشاجرون.

في الواقع لم تهدأ جلبة الشجار أبدًا، وحين وصلا قُرْب النافذة المفتوحة القريبة من باب المدخل استطاعا أن يريا عبر أوراق الشجر والأزهار سيدتين كبيرتين في السن تصرخان بأعلى صوتيهما وتهددان بعضهما البعض بقبضاتهما.

كانا في غرفة طعام واسعة، الطعام لا يزال موضوعًا على طاولتهما، وخلف هذه الطاولة هناك شاب، چان لويس بالتأكيد، يدخن غليونه ويقرأ صحيفة دون أن يبدي أي اهتمام بالشجار.

إحداهن، نحيفة وطويلة، ترتدي الحرير الأحمر ولها شعر مجعد شديد الشقرة ووجه ذابل. الأخرى، أصغر حجمًا، ترفل في ثوب النوم ولها شعر أحمر ووجهها يلتهب غضبًا.

قالت: أيتها الحشرة! لستِ شريرة فحسب بل وسارقة من السوق.

ردت الأخرى: أنا سارقة!

- وبيع البط بعشرة فرنكات للواحدة ليست سرقة!

- اخرسي أيتها الوغدة! النقود على طاولة الزينة الخاصة بي، مَن سرقها؟ أيها الرب الإله، كيف أعيش مع مثل هذه القذارة؟!

قفزت الأخرى غاضبة ووجهت حديثها إلى چان قائلة: يا للعجب! ماذا يا چان؟! ستتركني أتعرض للإهانة من شقرائك دومريـ□ـال التي تشبه اليشب ([3]).

- اليشب! أتسمعها يا لويس؟ ها هي السيد □ابوا ووجهها الذي يشبه طاجن الطعام! ولكنك تصمت أمامها!

فجأة لطم چان لويس الطاولة بقبضته؛ فاهتزت الأطباق: امنحاني السلام كلتاكما، أيتها العجوزتان المخبولتان!

على الفور انقلبت كلتاهما عليه ووجَّها له السباب: فاسق! منافق! كاذب! ابن سيئ! ابن شقي!

انهالت الإهانات عليه كالمطر. وجاهد نفسه أمام الطاولة، بدا كرجل ينفد صبره، فتراجع كي لا ينهال على خصميه بالضرب.

قال رِنين بصوت منخفض: ما الذي سبق وقلتِه عن الأمر؟ في باريس، قلتِ إنها مأساة. إليكِ الكوميديا. لندخل.

اعترضت السيدة الشابة: في خضم هذا الشجار الهمجي؟

- بالضبط.

- ولكن...

- صديقتي العزيزة، لم نحضر إلى هنا لنتجسس، بل لنتصرف! دون أقنعة سنراهم بشكل أفضل.

وبخطوة حازمة، سار نحو الباب، وفتحه. دخل إلى الغرفة وتبعته أورتِنس.

تسبب ظهوره في التوتر. توقفت المرأتان، بوجهيهما الأحمر، عن الشجار. ووقف چان لويس والدمار قد غادر وجهه تمامًا.

مستفيدًا من حالة الفوضى العامة تلك، تحدَّث رِنين بحدة: اسمحوا لي بتقديم نفسي: الأمير رِنين.. السيدة دانيل.. نحن صديقان للآنسة چينِ□يـ□ آيمارد، وجئنا إلى هنا باسمها.. إليك رسالة كَتبتها الآنسة لك يا سيدي.

فقد چان لويس، الذي أصابته الحيرة بالفعل من هؤلاء القادمين الجدد، رباطة جأشه عندما سمع اسم چينِ□يـ□. دون أن يعرف حقًّا ما يقوله، وليجيب على رِنين وتهذبه، قرر أن يقوم بدوره بتقديم مَن معه: السيدة دومري□ال، أمي.. السيدة □ابوا، أمي..

خيَّم صمت طويل. لم تعرف أورتِنس لمَن تمد يدها مصافحة أولًا: الأم دومري□ال، أم الأم □ابوا. لكن الصمت لم يطُل حين اندفعت كلتاهما، الأم دومري□ال، والأم □ابوا، وفي الوقت نفسه، محاولتان جذب الرسالة من يد چان لويس، وفي الوقت نفسه قالتا: الآنسة آيمارد! يا لها من شجاعة! يا لها من جرأة!

ثم استعاد چان لويس بعضًا من رباطة جأشه، وأمسك والدته دومري□ال، وجعلها تخرج من الباب الأيسر، ثم والدته □ابوا ودفعها لتخرج من الباب الأيمن. وبالعودة إلى الزائرين، فتح الظرف وقرأ بنصف صوت: «چان لويس، أرجوك أن تستقبل حامل هذه الرسالة. ثِق به. أحبك. چينِ□يـ□».

كان رجلًا ثقيل المظهر نوعًا ما، له وجه بني قاتم، ونحيف يكاد جلده يلتصق بعظمه، يحمل وجهه تعبيرًا عن الحزن والضيق الذي أشار إليه والد چينِ□ي□. حقًّا كانت المعاناة جلية عليه، كما المعاناة في تلك العيون المتألمة والقلقة.

ردد أكثر من مرة اسم چينِ□ي□ وهو ينظر حوله بطريقة غريزية. بدا أنه يبحث عن مسار للحديث، وأنه على وشك تقديم تفسير. لكنه لم يستطِع العثور على خيط. كل هذا التدخل قد أصابه بالذهول. هجوم غير متوقع لم يكُن يعرف ما الرد المناسب عليه.

شعر رِنين أن مع المحاولة الأول سيستلم خصمه. لقد كافح كثيرًا لعدة أشهر، وعانى كثيرًا في صمته العنيد الذي لجأ إليه، لدرجة أنه لم يفكر في الدفاع عن نفسه. هل يمكن أن يتغلغل في خصوصيات كيانه البغيض؟

هاجمه رِنين على الفور قائلًا: سيدي، حاولت چينِ□ي□ الانتحار بالفعل منذ انفصالكما، محاولتين. جئت لأسألك إذا كان موتها الحتمي والوشيك يجب أن يكون نتيجة حبك؟

- وي! أرادت قتل نفسها.. وي! هل هذا ممكن!

لم يمنحه رِنين فرصة للتوازن وسدد اللكمة التالية: كن مطمئنًا، سيدي، من مصلحتك أن تثق بنا. نحن أصدقاء چينِ□ي□ آيمارد، ووعدناها بمساعدتنا لها. لا تتردد، أتوسل إليك..

رفع الشاب رأسه: هل يمكنني أن أتردد بعد ما كشفته لي؟ هل يمكن أن أفعل ذلك بعد ما سمعت للتو؟ سأخبرك بكل شيء؛ حتى تتمكن من إيصال السر إلى چينِ□ي□.. هذا السر السخيف والمخيف الذي سيجعلها تفهم لماذا لم أعُد إليها.. ولماذا لا يُسمَح لي بالعودة.

نظر رِنين إلى أورتِنس بطرف عينه. بعد أربع وعشرين ساعة من اعتراف والد چينِ□ي□، حصل، وبنفس البساطة، على ثقة چان لويس. ظهرت المغامرة بأكملها الآن، اعترف الرجلان.

قدَّم چان لويس كرسيًّا بذراعين لأورتِنس. جلس هو ورِنين، وتحدَّث، دون الحاجة إلى مزيد من الرجاء، وكما لو أنه سيشعر ببعض الراحة في الاعتراف: لا تتفاجأ كثيرًا يا سيدي إذا رويت قصتي ببعض السخرية؛ لأنها في الحقيقة قصة كوميدية بصراحة، ولا يمكن أن تفشل في جعْلك تضحك. غالبًا ما يسلي القدر نفسه بهذه الحيل، وهذه المهازل الضخمة التي يبدو أنها تدور في دماغ مجنون أو سكير. احكم أنتَ.

قبل سبعة وعشرين عامًا، كان قصر دِلسـ□ن، حينها لم يتألف سوى من ذلك المبنى الرئيس، يسكنه طبيب عجوز، لزيادة موارده المتواضعة، كان يستقبل مستأجرًا أو اثنين. وهكذا أمضت السيدة دورميـ□ال الصيف هنا، والسيدة □وبوا أمضت الصيف التالي. الآن هاتان السيدتان اللتان لم تعرفا بعضهما البعض، إحداهن كانت متزوجة من قبطان في بريتاني، والأخرى متزوجة من تاجر مسافر، وكلتاهما فقدتا، في الوقت نفسه، زوجيهما، وفي الوقت نفسه كلتاهما كانت حاملًا. ولأنهما كانتا تعيشان في الريف، بعيدًا عن أي مركز حضاري، كتبتا إلى الطبيب أنهما ستأتيان إلى منزله لتضعا مولوديهما.

وافق. وصلتا في نفس الوقت تقريبًا، في الخريف. غرفتان صغيرتان، تقعان خلف هذه الغرفة، كانتا في انتظارهما. كان الطبيب قد استأجر حارسًا ينام هنا. كل شيء يسير على ما يُرام. فضَّت السيدتان الحقائب وتحمستا تمامًا. مصممتان على إنجاب أبناء رجال فقط، اختارتا هذين الاسمين لهما: چان، ولويس.

في إحدى الأمسيات ذهب الطبيب لاستشارة، غادر في سيارته المكشوفة مع الخادم، معلنًا أنه لن يستطيع العودة إلى المنزل حتى اليوم التالي. غاب السيد. فتسللت الخادمة الصغيرة لتلتقي بعشيقها. الكثير من الحوادث التي استغلها الشيطان. قُرْب منتصف الليل شعرت السيدة دومبريـال بالآلام الأولى. القابلة، الآنسة بوسينول، التي كانت تملك قليلًا من الحكمة، لم تفقد أعصابها.

ولكن بعد ساعة، جاء دور السيدة ـابوا، والدراما، دعنا نقول بالأحرى الكوميديا التراجيدية، تكشَّفت بين صرخات آهات المريضتين. ركضت القابلة الخائفة بين سيدة وأخرى، تنتحب، وفتحت النافذة لتنادي الطبيب، وألقت بنفسها على ركبتيها لتتوسل للعناية الإلهية.

أنجبت الأولى، السيدة ـابوا، صبيًّا أحضرته الآنسة بوسينول على عَجل إلى هذه الغرفة، واعتنت به وحممته، وأودعته في المهد المخصص له. لكن الثانية، السيدة دومريـال، صرخت من شدة الآلام، وكانت على القابلة أن تعتني بها أيضًا، بينما كان المولود الجديد مفزوعًا من الصرخات الوحشية التي تشبه صرخات وحش تم ذبحه، والأم، المرعوبة، مسمرة على سرير غرفتها، حتى أُغشِي عليها.

أضِف إلى تلك المأساة الفوضوية والغامضة أن مصباح الزيت الوحيد نفد زيته، والشموع أوشكت على الذبول، وصوت الريح ونقيق البوم، سوف تعي هكذا أن الرعب تملَّك من الآنسة بوسينول. أخيرًا، في الساعة الخامسة، بعد الأحداث التراجيدية، أحضرت إلى هنا صغير دورميـال، صبي هو الآخر، اعتنت به وحممته، وأودعته مهده، ثم عادت لمساعدة السيد باـوا التي فقدت وعيها.

حين انتهت الآنسة بوسينول من عبء الولادتين، كانت في حالة من التعب الشديد، واضطرب رأسها، وعادت إلى الأطفال حديثي الولادة، لتُدرِك برعب أنها لفتهم في حفاضات مماثلة، وألبستهم ذات الثياب الصوفية، وكلاهما مستلقٍ جنبًا إلى جنب، في نفس المهد! هكذا صار من غير الممكن معرفة أي رضيع هو لويس دورميـال وأيهما چان ـابوا.

علاوة على ذلك، عندما حملت أحدهما، وجدت يديه شاحبة ولا يتنفس. كان ميتًا. مَن هذا؟ وكيف نجا الآخر؟

بعد ثلاث ساعات، وجد الطبيب المرأتين في حالة ذهول ووهم، والقابلة تجلس أمام سريرهما وتسألهما المغفرة. في المقابل، قدمتني أنا، الناجي، إليهما. وبدورهما قبَّلاني. مَن كُنت؟ ابن أرملة دورميـال وقبطان المسافات الطويلة الراحل؟ أم ابن أرملة ـابوا والتاجر المسافر الراحل؟ لا تُوجَد أي أدلة تسمح بحسم القرار.

توسل الطبيب لكلتاهما لتضحي إحداهما بحقوقها، على الأقل من الجهة القانونية؛ حتى يتمكن من إطلاق اسم لويس دورميـال، أو چان باـوا. لكن رفضتا بشدة التنازل.

اعترضت إحداهن: لماذا چان باـوا، ماذا لو كان دورميـال؟

وكررت الأخرى اعتراضها: لماذا لويس دورميـال، ماذا لو كان باـوا؟

وهكذا تم تسجيلي باسم چان - لويس ونُسِبت لأب وأم مجهولين.

أنصت الأمير رِنين للحديث صامتًا. لكن أورتِنس، مع اقتراب الخاتمة، سمحت لنفسها أن تترك مجالًا لشيء من الابتسامة الساخرة تظهر على وجهها، وقد لاحظها الشاب.

تلعثمت قائلة والدموع في عينيها: اعذرني، اعذرني، الأمر مؤثر.

أجابها برقة ودون غصة: لا داعي للاعتذار يا سيدتي. أؤكد لكِ أن قصتي قادرة على إضحاككِ، وأنني أعرف أكثر من أي شخص آخر قدر غباء القصة وسخافتها. نعم، الأمر هزلي. لكن، صدقيني إذا أخبرتكِ أنه في الواقع لم يكُن الأمر مضحكًا. الوضع الكوميدي في مظهره، والذي، بالضرورة، ظل مضحكًا، له وجه فظيع. ترين ذلك الآن، أليس كذلك؟ والدتان. لم تكُن أيٌّ منهما متأكدة مَن أمي، لكن لم تكُن أيٌّ منهما متأكدة أنها ليست أمي، تشبثتا بچان لويس. ربما هو غريب، أو ربما ابن من لحمهما ودمهما. لقد أحباه إلى حد الإفراط في الحب، وتجادلا دومًا بغضب. حلت الكراهية بين كلتاهما، كراهية قاتلة. كلتاهما مختلفات في الشخصية والتعليم، مُلزَمات بالعيش بالقرب من إحداهن الأخرى؛ لأن أيًّا منهما لم يرغب في التخلي عن فكرة أمومتها المحتملة، عاشتا كأعداء ولا شيء ينزع سلاحهما. في خضم هذه الكراهية كبرت، كلتاهما علّمتني الكراهية. حملتها في قلبي الطفل، المتلهف إلى الحنان، إلى إحداهما، وإذا لمحته الأخرى، تشعر معه بالازدراء وقُرْب النهاية. في هذا القصر الذي اشترياه بعد وفاة الطبيب العجوز وأسست كُل واحدة جناحًا لها، كُنت جلادهما دون قصد، وضحيتهما في نفس الوقت. طفولة معذبة، مُراهَقة لا تُطاق، لا أعتقد أن مخلوقًا عانى أكثر مني.

قالت أورتِنس بعد أن اختفت الابتسامة عن وجهها: عليك مغادرتهما!

- لا يهجر الإنسان أمه. والمرأتان أمي. وكلتاهما لم تهجر ابنها. وكلتاهما تعتقد أنني ابنها. ثلاثتنا ملتصقون ببعضنا البعض، مثل المعاقبين، يُقيِّدنا الألم، والرحمة، والشك، وفي الحقيقة يُقيِّدنا الأمل كذلك، ربما ستظهر الحقيقة يومًا ما. نحن الثلاثة لا نزال هناك، نسب بعضنا البعض، ونلوم بعضنا البعض على حيواتنا المفقودة. آه! بحق الجحيم! كيف أهرب؟ حاولت ذلك عدة مرات.. ولكن عبثًا. وصلت العلاقات المقطوعة. وفي هذا الصيف حاولت أيضًا، مدفوعًا بحبي لچينِـيـ، أردت التحرر وحاولت إقناع المرأتين اللتين اسميهما أمي. وبعد ذلك ماذا؟ واجهت شكواهما.. وكراهيتهما المباشرة للزوجة المحتملة.. للغريبة التي فرضتها عليهما.. استسلمت.. ماذا كانت ستفعل چينِـيـ هنا بين السيدة دورميـال والسيدة ـابوا؟ هل كان لي الحق في التضحية بها؟

نطق چان لويس، الذي صار منفتحًا نوعًا ما، بهذه الكلمات الأخيرة بصوت حازم، كما لو كان يريد أن يعزي سلوكه إلى الضمير، وإلى الشعور بالواجب. في الواقع - ولم يكُن رِنين وأورتِنس مخطئين في حكمهما - كان ضعيفًا، غير قادر على الرد في هذا الموقف السخيف، عانى من تلك الحياة منذ الطفولة، وفرضت عليه نفسها. حياة لا علاج لها ولا نهاية. لقد حملها كصليب ثقيل لا يحق للمرء

رفضه، وفي الوقت نفسه كان يخجل منها. أمام چينِ□ي□، فقد التزم الصمت؛ خوفًا من التعرض للسخرية، ومذّاك، عاد إلى سجنه، وبقي هناك؛ بدافع العادة والعوز.

جلس أمام مكتب وفي عجلة كتب رسالة سلَّمها إلى رِنين.

قال: سوف تحمل هذه الكلمات القليلة إلى الآنسة آيمارد، وتتوسل إليها مرة أخرى أن تسامحني.

لم يتحرك رِنين قيد أنملة، ولكن مع إصرار الآخر، أخذ الرسالة منه ومزقها.

سأله الشاب: ماذا تعني بتلك الفعلة؟

- تعني أنني لن أتحمَّل مسئولية أي رسالة.

- لماذا؟

- لأنك سترحل معنا..

- أنا؟

- وستكون غدًا بالقرب من الآنسة آيمارد، وغدًا ستعرض عليها الزواج.

رمقه چان لويس بشيء من الازدراء والسخرية، كما لو كان يفكر: «هذا رجل نبيل لم يفهم أي شيء من الحقائق التي كشفتها له».

دنت أورتِنس من رِنين.

قالت: أخبِره أن چينِ□ي□ أرادت أن تقتل نفسها، وأنها ستقتل نفسها بلا شك..

- لا نفع. ستسير الأمور كما أعلنت للتو. سنغادر ثلاثتنا خلال ساعة أو ساعتين. وسيتقدم للزواج منها غدًا.

هز الشاب كتفه في سخرية، وقال: أنت تتحدث بثقة!

- لديَّ دوافع لأتحدث بثقة. سوف نأخذ بها.

- أي دوافع؟

- سأخبرك بواحد، واحد فقط، لكن هذا سيكون كافيًا إذا ساعدتني في بحثي.

- بحثك.. عن ماذا؟

- لأثبت لك أن قصتك ليست دقيقة تمامًا.

رفض چان لويس.

- أريدك أن تفهم يا سيدي أنني لم أتلفظ بأي حرف سوى الحقيقة المطلقة.

- أنا لا أوضح الأمر جيدًا. أعرف أنك بالتأكيد لم تقل كلمة لا تتوافق مع الحقيقة التي تعتقدها. لكن هذه الحقيقة ليست حقيقة، لا يمكن أن تكون ما تؤمن به.

عقد الشاب ذراعيه، وقال: هناك فرص، على أي حال يا سيدي، أنا أعرفها أفضل منك.

- لماذا أفضل مني؟ ما حدث في تلك الليلة المأساوية ليس بالضرورة معروفًا لك كليًّا. ليس لديك دليل. وكذلك لا تملكه السيدة دورميـال والسيدة ـابوا.

صرخ چان لويس بنفاد صبر: دليل على ماذا؟

- لا يُوجَد دليل على الارتباك الذي حدث.

- كيف! هذا يقين مطلق! تم إيداع الطفلين في نفس المهد، دون أي علامة تميزهما عن بعضهما البعض. لم تستطِع القابلة أن تعرف...

قاطعه رِنين: على الأقل، هذه هي القصة التي قدمتها.

- ماذا تقول؟ النسخة التي قدمتها؟ لكنك تتهم هذه المرأة.

- لا أتهمها.

- بل تتهمها بالكذب. الكذب؟ ولماذا؟ ليس لديها أي مصلحة، وماذا عن دموعها، ويأسها؟ الكثير من الشواهد تؤكد حُسْن نيتها؛ لأن المرأتين كانتا هناك، وشاهدتا المرأة تبكي.. استجوبتاها.. ومرة أخرى أكرر: ما مصلحتها؟

كان چان لويس متحمسًا للغاية. وظهرت بالقرب منه، السيدة دورميـال، والسيدة ـابوا، اللتان كانتا بلا شك تستمعان من خلف الأبواب للحديث، ودخلتا بخبث، متلعثمتين، ومندهشتين:

- لا.. لا، هذا مستحيل.. استجوبناها مئة مرة منذ تلك الليلة. لماذا ستكذب؟

قال چان لويس: تحدَّث، تحدَّث يا سيدي. اشرح نفسك. أخبِرنا لماذا تحاول التشكيك في الحقيقة المؤكدة؟

- لأن هذه الحقيقة غير مقبولة. قالها رِنين بصوت مرتفع، وبدوره أخذ يضرب بقبضته على الطاولة، وأضاف: لا، الأشياء لا تحدث بهذه الطريقة. لا، القدر ليس لديه هذه القسوة، ولا تتراكم الصدف بهذا الإسراف! لقد كانت بالفعل مصادفة لا تُصدَّق؛ أن يغادر في نفس الليلة الطبيب وخادمه وخادمة المنزل، وأن تداهم آلام الولادة السيدتين في نفس الوقت، وتنجبا في نفس الوقت صبيين. دعونا لا نضيف إلى هذا حدثًا أكثر استثنائية! كفى عجائب! زيت المصابيح ينفد، والشموع تحترق! لا وألف لا، من غير المعقول أن تختلط على القابلة ما يُعَد جوهر وظيفتها. بقدر ما تشعر بالذعر من الظروف غير المتوقعة، هناك بقايا من الغريزة التي تراقب، وهذا يجعل كلًّا من الطفلين له مكانه المحدد الذي يميزه عن الآخر. حتى إن وضع الصبيين جانب أحدهما الآخر، فواحد سيكون على اليمين والآخر على اليسار. كلاهما ملفوفان في قماط متشابهة، لكن هناك تفاصيل صغير في الثياب تفصلهما، لا شيء يحتاج للكثير من التفكير. التباس؟! أنا أنكر ذلك. استحالة التميز بينهما؟! كذب. في الخيال،

يمكن تخيُّل كل الأوهام وتجميع كل التناقضات. لكن في الواقع، في قلب الواقع، هناك دائمًا نقطة ثابتة، ونواة صلبة تدور حولها الحقائق لتجميع نفسها وفقًا لترتيب منطقي؛ لذلك أؤكد بأكثر الطُّرُق الرسمية أن القابلة بوسينول لا يمكن أن تكون قد خلطت بين الرضيعين.

قال هذا بوضوح كما لو كان قد شهد أحداث تلك الليلة، وكانت قوته في الإقناع كبيرة لدرجة أنه، من ضربة واحدة، حطَّم يقين أولئك الذين لم يشككوا في الأمر أبدًا لمدة ربع قرن.

احتشدت المرأتان وابنهما حوله، واستجوباه بغصة شديدة: في هذه الحالة، وفقًا لك، ستعرف؟ يمكن أن تكشف؟

صحح: أنا لا أدَّعي شيئًا. أنا أقول فقط أن هناك شيئًا في سلوكها خلال تلك الساعات، لا يتفق مع كلماتها أو مع الواقع. كل الغموض الهائل الذي لا يُطاق المثقل لكاهلكم لا ينبع من دقيقة غفلة، بل من شيء لا نميزه، وهي تعرفه. هذا ما أقوله.

انفجر چان لويس من الثورة. أراد الهروب إلى أحضان هذا الرجل.

قال: نعم، صحيح ما تدَّعيه.

قال رِنين بعنف: هذا ما عليه الأمر! ليس عليك حضور الواقعة، أو الاستماع إلى القصة. يعطينا العقل والحدس براهين صارمة مثل الحقائق نفسها. تحمل القابلة بوسينول في ضميرها شيئًا من الحقيقة غير معروف لنا.

بصوت مكتوم قال چان لويس: إنها على قيد الحياة! تعيش في كاري! يمكننا إحضارها!

على الفور صاحت إحدى الأُمين قائلة: سأذهب إلى هناك. سأعيدها.

قال رِنين: لا. ليس أنتِ. ولا أحدًا من بينكم.

اقترحت أورتِنس: أتود لو أذهب أنا؟ سآخذ السيارة وأذهب لأُحضِر هذه المرأة. أين تعيش؟

قال چان لويس: في وسط كاري. تملك متجرًا صغيرًا للهدايا التذكارية. السائق سيرشدك.. الآنسة بوسينول.. الجميع يعرفها..

أضاف رِنين: وبالطبع يا صديقتي العزيزة لا تحذريها من أي شيء. إذا كانت قلقة، فهذا أفضل كثيرًا. لا تعرف ما المطلوب منها، فهذا إجراء احترازي أساسي إذا كنا نريد النجاح.

مرت ثلاثون دقيقة يحفها صمت عميق. ذرع رِنين الغرفة حيث الأثاث العتيق الجميل والمنسوجات البهية، والجلد الطبيعي والحلي الجميلة التي تشير إلى بحث چان لويس عن كُل ما هو فني وأنيق. هذه الغرفة كانت حقًّا له. يمكن من خلال الأبواب نصف المفتوحة للغرفتين المجاورتين أن يرى المرء ذوق الأمهات السيئ. اقترب رِنين من الشاب، وهمس: هل المرأتان ثريتان؟

- نعم.

- وأنت؟

- لقد أرادتا أن يكون هذا القصر مع جميع الأراضي المحيطة به ملكًا لي؛ مما يضمن استقلالي إلى حد كبير.

- هل لديهما عائلة؟

- أخوات. كُل واحدة لديها أخوات.

- أخوات يمكن أن ترثهن؟

- نعم، وفكَّرتا في الأمر أحيانًا. لكن.. سيدي، لا يمكن أن يكون هناك شك في ذلك، أخشى أن تدخُّلك لن ينتهي إلا بالفشل. مرة أخرى، أؤكد لك...

قطعه صوت السيارة. وقفت المرأتان على عَجل، وهما مستعدتان بالفعل للتحدث.

قال رِنين: اتركا الحديث لي. ولا تندهشا من طريقتي في التصرف. إنها ليست مسألة طرح أسئلة، بل مسألةَ إخافتها، وصدمها. سوف يدفعها الخوف للتحدث.

دارت السيارة حول العشب وتوقفت أمام النوافذ. قفزت أورتِنس منها ومدت يدها إلى امرأة عجوز، ترتدي قبعة من الكتان، وسترة مخملية سوداء وتنورة ثقيلة مجعدة. دخلت في خوف. كان لها وجه مدبب وفم خلفه تبرز أسنان صغيرة.

- ما الأمر يا سيدة دورميـ□ـال؟ قالت وهي تدخل بخوف تلك الغرفة التي طردها منها الطبيب ذات مرة. صباح الخير يا سيدة □ابوا.

لم تُجِب السيدتان. تقدَّم رِنين منها، وقال بنبرة حادة: السؤال موجه لكِ يا آنسة بوسينول! سأخبركِ بكل شيء. وأنا أحثكم على تقييم كل كلمة بعناية.

بدا وكأنه قاضي تحقيق لا يملك أدنى شك في ذنب مَن يستجوبه.

قال: آنسة بوسينول، فوضتني شرطة باريس لإلقاء الضوء على مأساة وقعت هنا قبل سبعة وعشرين عامًا. وهذه المأساة التي لعبتِ فيها دورًا كبيرًا، حصلتُ لتوي على دليل يغير الحقيقة، وأنه، نتيجةً لتصريحاتك الكاذبة، فإن الحالة المدنية لأحد الطفلين اللذين وُلِدا في تلك الليلة بقيت غير دقيقة. وفي مسائل الأحوال المدنية، تُعَد التصريحات الكاذبة جرائم يُعاقِب عليها القانون؛ لذلك أنا مضطر لاصطحابك إلى باريس لتخضعي، بحضور محاميكِ، لاستجواب صارم.

انتحبت الآنسة بوسينول: في باريس؟! محامٍ؟!

- لا مفر من الأمر يا آنسة؛ لأنكِ مطلوبة بموجب مذكرة اعتقال. ثم ألمح رِنين: ما لم تكوني مستعدة، الآن، للإدلاء بأي اعتراف قد يُعوِّض عن عواقب خطئكِ.

اهتزت أوصال الآنسة العجوز. كانت أسنانها تصطك. من الواضح أنها لم تكُن قادرة على تحمُّل أصغر مقاومة أمام رِنين.

قال: هل أنتِ عازمة على الاعتراف بكُل شيء؟

خاطرت قائلة: ليس لديَّ ما أعترف به؛ لأنني لم أفعل شيئًا.

قال رِنين: حسنًا، لنرحل.

- لا.. لا يا سيدي، أتوسل إليك.

- هل قررتِ؟

قالت بزفرة هَم: نعم.

- على الفور، أليس كذلك؟ وقت القطار يضغطنا. يجب حل هذه المسألة على الفور. أي تردُّد من جانبكِ سيدفعني لاصطحابكِ معي إلى باريس. اتفقنا؟

- نعم.

- دعينا نمضي قُدمًا مباشرةً، دون لف أو تحايُل.

ورمق چان لويس بطرف عينه. ثم أضاف: ابن مَن هذا الرجل؟ السيدة دومريـ□ـال؟

- لا.

- إذن السيدة □ابوا؟

- لا.

عم صمت الصدمة بعد الإجابتين.

أمرها رِنين: فسِّري قولكِ.

سقطت الآنسة بوسينول على ركبتيها، وقالت، بنبرة منخفضة وبصوت متغير لدرجة أنهم اضطروا جميعًا إلى الانحناء عليها لإدراك معنى تلعثُمها بشكل أو بآخر: جاء شخص ما في المساء.. أحضر طفلًا حديث الولادة ملفوفًا في بطانية، وأراد أن يعهد به إلى الطبيب.. نظرًا لعدم وجود الطبيب؛ بقي طوال الليل في انتظاره، وهذا هو الأمر.

سأل رِنين: ماذا؟ ماذا فعل؟ ماذا حدث؟

كان قد أمسك المرأة العجوز بكلتا يديه، ونظر لها بطريقة ملحة. انحنى چان لويس ووالدتاه عليها، يلهثون وقلقون. حياتهم كلها تعتمد على الكلمات القليلة التي ستنطقها.

لقد نطقت تلك الكلمات وهي شابكة يديها كما يعترف المرء بالجريمة: حسنًا! ما حدث أنه جاء بطفل حي، ولكن الرضيعين الآخرين، رضيع السيدة دروميـ□ـال ورضيع السيدة □ابوا، كانا يحتضران. ثم قال لي الرجل، عندما رأى هذا، أتذكَّر كل جملة، صوته، صورته، كُل شيء.. قال لي: «الظروف تُخبِرني بواجبي. يجب أن أغتنم هذه الفرصة؛ لأضمن لابني حياة سعيدة وعناية كاملة. ضعيه في مكان رضيع من الرضيعين الميتين». عرض عليَّ مبلغًا كبيرًا من المال، قائلًا إنني سأُخلِّصه من رسوم كثيرة سيدفعها كل شهر لطفله، وقبلت. فقط السؤال: في مكان مَن سأضعه؟ هل كان الصبي

سيصبح لويس دروميـ□ال أم چان □ابوا؟ فكر للحظةٍ وأجاب: «لا». ثم شرح لي كيف يجب أن أفعل الأمر، وماذا يجب أن أقول عندما يغادر. وبينما كنت أُلبِس ولده ملابس وقماط تريكو مثل ملابس أحد الموتى الصغار، ذهب هو بعيدًا في الليل.

أخفضت الآنسة بوسينول رأسها وبكت، بعد برهة قال رِنين بصوت أقل حدة: لن أخفي عنكِ أن شهادتكِ تتفق مع التحقيق الذي تابعته من جانبي. سنأخذ ذلكَ في الاعتبار.

- لن أذهب إلى باريس؟

- لا.

- لن تأخذني؟ يمكنني المغادرة الآن؟

- يمكنكِ الرحيل. انتهى الأمر الآن.

- ولن نتحدث عن الأمر؟

- لا! كملة أخيرة. هل تعرفين اسم هذا الرجل؟

- لا. لم يُخبِرني.

- هل رأيتِه مرة أخرى؟

- أبدًا.

- ليس لديكِ شيء آخر لتُخبِريني إياه؟

- أبدًا.

- هل أنتِ جاهزة لتوقيع اعترافكِ مكتوبًا؟

- نعم.

- حسنًا، في غضون أسبوع أو أسبوعين، سيتم استدعاؤك. حتى ذلك الحين، لا تتفوهي بكلمة لأحد.

نهضت ووشمت علامة الصليب، لكن قوتها خانتها، وكان عليها الاعتماد على رنِين. قادها إلى الخارج وأغلق الباب خلفها.

عندما عاد، كان چان لويس بين السيدتين العجوزين، وكان الثلاثة يمسكون بأيديهم. رباط الكراهية والبؤس الذي بينهم انكسر، دون الحاجة للتفكير تحوَّل على الفور للُطف واسترضاء لم يكونوا على دراية بوجوده داخلهم، ولكنهم بدوا جادين ومتحدين.

«دعونا نستعجل الأمور». قال رِنين لأورتِنس: هذه هي اللحظة الحاسمة في المعركة. عليكِ أن تصعدي مع چان لويس إلى السيارة.

بدت أورتِنس مشتتة، همست: لماذا تركت هذه المرأة تذهب؟ هل أنت راضٍ عن شهادتها؟

- لم أكن راضيًا. لكنها قالت ما حدث. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

- لا شيء.. لا أفهم شيئًا.

- سنتحدث عن الأمر في وقت لاحق يا صديقتي العزيزة. الآن، أُكرِّر، علينا أن نصطحب چان لويس. على الفور، خلاف ذلك..

ووجَّه حديثه إلى الشاب قائلًا: أنتم تعتقدون، كما أعتقد، أن الأحداث تفرض عليكم جميعًا، سيدة □ابوا، وسيدة دورميـ□ال، أن الانفصال يسمح لكم جميعًا بالرؤية بوضوح، وتسليم أنفسكم للحرية بذهن صافٍ. تعالَ معنا يا سيدي. الأمر الأكثر إلحاحًا هو إنقاذ خطيبتك چينِـ□يـ□ آيمارد.

بدا التشتت على چان لويس. التفت رِنين إلى المرأتين: هذا هو رأيكما، ليس لديَّ شك، أليس كذلك سيدتايَ؟ أومأتا برأسيهما.

وجَّه حديثه لچان لويس: كما ترى يا سيدي، نحن جميعًا نتفق. في الأزمات الكبرى، نحتاج للتراجُع عن الفرقة.. وي! لم يمضِ وقت طويل، ربما بضعة أيام من الراحة، وبعد ذلك ستكون حرًّا في التخلي عن چينِـ□يـ□ آيمارد والعودة لحياتك. لكن هذه الأيام القليلة ضرورية يا سيدي. فلنسرع.

ودون إعطائه وقتًا للتفكير، صعقه بتلك الكلمات المقنعة العنيدة، ودفعه تجاه غرفته.

بعد نصف ساعة غادر چان لويس القصر.

- لن يعود إلا متزوجًا. قالها رنين لأورتِنس وهم يدخلون إلى محطة جوينجام حيث أوصلتهم السيارة. حين جلس چان لويس على الأريكة الخلفية سألها: هذا للصالح. هل أنتِ سعيدة؟

أجابته بذهن غائب: نعم، المسكينة چينِـ□يـ□ ستكون سعيدة.

بمجرد أن صعدا إلى القطار، ذهب كلاهما إلى عربة الطعام. في نهاية العشاء، وجَّه رِنين لأورتِنس عدة أسئلة لم ترد عليها الشابة إلا بإجابات مقتضبة: بربكِ! ماذا بكِ يا صديقتي العزيزة؟ يبدو عليكِ القلق!

- أنا؟ لا.

- نعم. نعم. أنا أعرفكِ؛ لا تترددين.

ابتسمت.

- حسنًا! لأنك تصر كثيرًا في سؤالك إذا كنت راضية أم لا، يجب أن أخبرك بذلك.. الواضح.. أنا مع چينِـ□يـ□ آيمارد.. لكن، من ناحية أخرى.. وجهة نظري في المغامرة.. أحتفظ بنوع من الانزعاج..

- بصراحة، لم (أدهشك) هذه المرة؟

- ليس كثيرًا.

- بدا دوري (ثانويًّا) في نظركِ؟ لأنه، في النهاية، ماذا فعلت! لقد جئنا. استمعنا إلى مَظلمة چان لويس. وقدَّمت قابلة سابقة للمحاكمة. وهذا كُل شيء، انتهى الأمر.

- بالضبط، أتساءل عمَّا إذا كان الأمر قد انتهى، ولست متأكدة. في الحقيقة، تركت لي مغامراتنا الأخرى المزيد.. كيف يمكنني أن أشرح؟ كانت أكثر صراحة، وأكثر وضوحًا.

- وهذه المغامرة بدت غامضة؟

- نعم، غامضة وغير مكتملة.

- ولكن كيف؟

- لا أعرف. ربما كان الأمر بسبب اعتراف هذه المرأة. نعم على الأرجح.. كان غير متوقع ومختصرًا!

- بحقكِ! ضحك رِنين، وأضاف: تعتقدين أنني اختصرتها. لم يكُن هناك كثير من التفسير.

- كيف؟

- نعم، إذا قدمت لنا تفسيرات مفصلة لكان الأمر انتهى بنا محاطين بشك فيما قالته.

- شك؟

- سيدتي، القصة خيالية بعض الشيء. هذا الرجل الذي يصل ليلًا مع طفل بين ذراعيه، ويغادر مع جثة طفل آخر. يا صديقتي العزيزة، لم يكُن لديَّ الكثير من الوقت لكشف دورها، تلك البائسة.

نظرت أورتِنس إليه مذهولة: ماذا تريد أن تقول؟

- أليس هؤلاء النساء في الريف لديهن رأس صلب. كانت هي وأنا في عجلة من أمرنا؛ لذلك خلقنا هذا السيناريو على عَجل.. إنها لم ترتجل بشكل سيئ بالمناسبة. كان لديها نغمة.. مخيفة.. مهتزة.. وكذلك بكت..

تمتمت أورتِنس: أهذا ممكن؟! أهذا ممكن؟! أنت رأيتها من قبل؟!

- خيرًا فعلت.

- لكن متى؟

- في الصباح، حين وصلنا. بينما كُنتِ تحظين بقسط من الراحة في فندق كاري. كنت أركض للحصول على المعلومات. كانت مأساة دورميـ□ـال - □ابوا معروفة في المنطقة. على الفور تم إرشادي للقابلة، الآنسة بوسينول. لم يستغرق الوقت طويلًا مع الآنسة. ثلاث دقائق كانت كافية لخلْق النسخة الجديدة مما حدث، وعشرة آلاف فرنك دفعتها لها لتوافق على تكرار هذه القصة أمام الكثير.. مع شيء من الإضافات أو الحذف المحتمل.

- الأمر لا يُصدَّق أبدًا!

- ليس تمامًا يا صديقتي العزيزة؛ لأنكِ صدقتِه وكذلك الآخرون. وهذا الشيء الأهم. من الضروري هدم حقيقة عمرها سبعة وعشرين عامًا، وهي حقيقة أكثر صلابة؛ لأنها بُنِيت على الحقائق نفسها؛ لهذا السبب استهدفتها إليها بكل قوتي، وهاجمتها ببلاغة. استحالة تعرُّف الطفلين؟ أنا لا أصدق ذلك! التباس؟ كذب! أنتم الثلاثة ضحايا لشيء لا أعرفه، لكن واجبكم هو توضيحه. صرخ چان لويس: «سهل، دع الآنسة بوسينول تأتي. دعونا نحضرها». عندها تصل الآنسة بوسينول وتُلقي الخطاب الصغير الذي ألقيته عليها. ينقلب المسرح. ذهول. أغتنم الفرصة لاختطاف الشاب.

أومأت أورتِنس، وقالت: لكن ثلاثتهم سوف يعيدون التفكير!

- مستحيل! لديهم شكوك، ربما. لكنهم لن يقبلوا أبدًا باليقين! لن يوافقوا أبدًا على التفكير! كيف؟! هؤلاء هم الأشخاص الذين أخرجتهم للتو من جحيم يكافحون معه منذ ربع قرن. أيرغبون في الغوص مرة أخرى داخله؟ هؤلاء هم الأشخاص الذين، بدافع الجشع، بدافع الشعور الزائف بالواجب، لم يكُن لديهم الشجاعة للهروب. ألن يتشبثوا بالحرية التي أعطيهم إياها؟ هيا! لكنهم كانوا سيبتلعون أخطاء غير قابلة للهضم أكثر من تلك التي قدمتها لهم الآنسة بوسينول. بعد كُل شيء، روايتي ليست أغبى من الحقيقة. على العكس، ابتلعوها بثقة! حسنًا، قبل أن نغادر سمعت السيدة دورميـ□ال، والسيدة □ابوا. تتحدثان عن انتقالهما الفوري. كانتا بالفعل حنونتين مع بعضهما البعض عند التفكير في عدم رؤية إحداهما الأخرى بعد الآن.

- ماذا حيال چان لويس؟

- چان لويس! كان تحت سطوة والدتيه! بربكِ! ليس لدينا أمهات في الحياة! هذا هو الوضع بالنسبة للرجل! عندما تُتاح لك الفرصة للاختيار بين وجود زوج من الأمهات أو عدم وجود أم على الإطلاق، فلا تتردد. ثم چان لويس يحب چينيـ□يـ□. وهو يحبها بما يكفي، وأريد أن أصدقه، لدرجة تجعله غير راضٍ عن منحها حماتين! هيا، يمكنكِ الارتياح. سعادة هذا الشاب مضمونة، أليس هذا ما أردتِه؟ المهم هو الهدف الذي تحققه، وليس الطبيعة الغريبة إلى حد ما للوسائل التي تستخدمها. وإذا كانت هناك مغامرات تتفكك وألغاز يتم توضيحها؛ ذلك بفضل البحث واكتشاف قصاصات السجائر والأباريق الحارقة وصناديق المناديل التي تشتعل، فهناك مغامرات أخرى تتطلب علم النفس لحلها.

صمتت أورتِنس ثم استأنفت حديثها بعد لحظة: لذا، حقًّا، أنت مقتنع بأن چان لويس...

بدا رِنين مندهشًا، وقاطعها: كيف ما زلتِ تفكرين في هذه القصة القديمة. انتهى الأمر! حسنًا! أعترف أن الَرجل لا يهمني الآن على الإطلاق، هذا الرجل ذو الأم المزدوجة.

قالها بنبرة ساخرة وبصدق مسلٍّ ضحكت له أورتِنس.

قال وهو يضحك: في الوقت المناسب، اضحكي يا صديقتي العزيزة. نحن نرى الأشياء أكثر وضوحًا حين نضحك وليس حين تملأ عيوننا الدموع. ثم هناك سبب آخر يُوجِب عليكِ الضحك.

- ما هو؟

- لديكِ أسنان جميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

السيدة ذات الفأس

واحدة من أكثر الأحداث غير المفهومة التي لحقت الحرب كانت قضية تُسمَّى قضية السيدة ذات الفأس. لم يكُن حلها معروفًا، وما كان ليُعرَف أبدًا ما لم تُجبر الظروف، وبأكثر الطُّرُق قسوة، الأمير رنين - هل نقول أرسين لوبين؟ - على التعامل معها، ويمكننا اليوم، وفقًا لثقته، إعطاء القصة الحقيقية.

لنسترجع الوقائع. قبل حوالي ثمانية عشر شهرًا، اختفت خمس سيدات، خمس سيدات ينتمين لطبقات اجتماعية مختلفة، تتراوح أعمارهن بين العشرين والثلاثين عامًا، يقطُنَّ جميعًا في باريس، تحديدًا في الحي الباريسي.

إليكم أسماؤهن: السيدة لادو، زوجة طبيب. الآنسة آردان، ابنة مصرفي. الآنسة كورو، عاملة في غرفة الغسيل في كوربوي. الآنسة أونورين ڤرنيست، خياطة. والآنسة جروليجيه، رسامة. أولئك النساء الخمس اختفين دون أي خيط يشير إلى سبب مغادرتهن لمنازلهن، وسبب عدم عودتهن. مَن أخرجهن؟ وأين؟ وكيف تم احتجازهن؟

بعد ثمانية أيام من اختفائهن، عُثِر على كُل واحدة في مكان مختلف في الضواحي الغربية لباريس، وفي كل مرة، يتم العثور على جثة هامدة، وآثار الفأس واضحة على رأسها. وفي كل مرة، تكون الجثة مربوطة بإحكام، والدماء تكسي دماءها. وأثبتت الآثار على الأرض أن الجثة قد تم إحضارها إلى موضعها بواسطة سيارة.

كان تشابُه الجرائم الخمس سببًا لتقوم على تحقيق واحد يشمل الجرائم الخمس، لكن التحقيق لم يؤدِ إلى أي نتائج. اختفاء امرأة، واكتشاف جثتها بعد ثمانية أيام. هذا كل شيء.

كانت الروابط متطابقة. والعلامات التي خلفتها عجلات السيارة كذلك. وضربات الفأس، كلها على الجزء العلوي من الجبهة، في منتصف الرأس وعمودية.

وقد جُرِّدت النساء الخمس من مجوهراتهن وحقائبهن ومقتنياتهن الثمينة. ولكن يمكن أيضًا أن تعزي السرقة إلى اللصوص والمارة؛ لأن الجثث ملقاة في أماكن مهجورة. هل يُفترَض أن ما يجري هو تنفيذ خطة للانتقام، أو خطة لتدمير سلسلة من الأفراد المترابطين، المستفيدين، على سبيل المثال، من ميراث في المستقبل؟ مرة أخرى، نفس الغموض. تم بناء الفرضيات، والتي تناقضت على الفور من خلال فحص الحقائق. اتبعنا المسارات بمجرد التخلي عنها.

وفجأة، حدث انقلاب في الأحداث. التقطت عاملة النظافة في الشارع دفتر ملاحظات صغير عن الرصيف، وسلمته إلى مركز شرطة قريب.

كانت جميع أوراق هذا الدفتر الصغير بيضاء، باستثناء ورقة واحدة كُتِب عليها قائمة بالنساء المقتولات، وكُتِبت بترتيب زمني وإلى جوار أسمائهن كُتِبت ثلاثة أرقام. لادو، 132. ڤرنيست،

١١٨... إلخ.

بالتأكيد لم نكُن لنضع أي أهمية لهذه السطور؛ لأن أيًّا كان يمكنه كتابتها ببساطة؛ لأن الجميع يعرفون بقائمة النساء المقتولات. لكن بدلًا من وجود خمسة أسماء، كان هناك ستة! نعم، أسفل جروليندجيه، 128. كُتِب: ويليامسون، 114. هل كان هناك عملية قتل سادسة؟

من الواضح أن الأصل الإنجليزي للاسم قيد التحقيقات، والتي جرت في الواقع سريعة. ثبت أنه قبل أسبوعين، غادرت سيدة شابة هربرت ويليامسون، وهي ممرضة لعائلة أوتوي، إلى إنجلترا، وأنه منذ ذلك الوقت، لم تسمع أخواتها عنها أي أخبار، على الرغم من إرسالها رسالة تُبلغهن وصولها الوشيك.

تحقيق جديد. عثر ساعي بريد على الجثة في غابات ميودون. كُسِرت جمجمة الآنسة ويليامسون من المنتصف.

ولا داعي للتذكير بعاطفة المتابعين في تلك اللحظة، كانت لحظة من الرعب، عند قراءة هذه القائمة، التي كتبها بلا شك القاتل، هزت الحشود. ما يمكن أن يكون أكثر ترويعًا من هذا الدفتر المتداول. «في هذا التاريخ قتلت هذه...». والنتيجة كانت: ست جثث.

على الرغم من كل الصعاب، لم يجد الخبراء وعلماء الخط مشكلة في الاتفاق والإجماع على أن الكتابة هي كتابة امرأة «مثقفة، ذات أذواق فنية وخيال وحساسية شديدة». السيدة ذات الفأس، كما أطلقت عليها الصحف، تناولتها آلاف المقالات، وحاولت التعرض لتحليل نفسيتها، وتفسير تصرفاتها.

كان واحد من كاتبي تلك المقالات، صحفي شاب يهوى الاكتشاف، هو الذي جلب عنصر الحقيقة الوحيد، ألقى في هذا الظلام البصيص الوحيد من الضوء ليمر من خلاله. في محاولة لفهم الأرقام الموجودة على يمين الأسماء الستة، تساءل عما إذا كانت هذه الأرقام تمثل ببساطة عدد الأيام التي تفصل الجرائم عن بعضها. كان يكفي التحقق من التواريخ. حينها أدرك على الفور دقة فرضيته وصحتها. وقع اختطاف الآنسة ِرنيست بعد 132 يومًا من اختطاف السيدة لادو، وبعد مرور 118 يومًا تم اختطاف الآنسة كو□رو.. إلخ.

لذلك لم يكُن هناك مجال للتردد، أو ألّا تسعى العدالة لحل ذلك اللغز. الأرقام تتوافق مع الفواصل الزمنية. لم يُقدِّم التحقيق في قضية السيدة ذات الفأس سوى الفشل.

لكن الملاحظة كانت في محلها. الآنسة ويليامسون، آخر ضحية، بعد أن تم اختطافها في 26 حزيران / يونيو الماضي، واسمها كُتِب إلى جواره الرقم 114، ألا ينبغي علينا أن نعترف بأن هجومًا آخر سيحدث بعد 114 يومًا؟ أي في 18 تشرين الأول / أكتوبر. أليس من المُعتقَد أن هذا العمل الرهيب سيتكرر وفقًا لإرادة القاتلة السرية؟ ألا ينبغي علينا أن نذهب إلى نهاية تلك الحجة التي تعتمد على الأرقام ونتعامل مع التواريخ المحتملة؟

مع ذلك استمر الجدل، ونُوقِش الأمر، خلال الأيام التي سبقت 18 أكتوبر، عندما أملى المنطق أنه يجب الإجهاز على هذه المسرحية البغيضة. وهذا هو السبب في أنه من الطبيعي أن يلمح الأمير رِنين

وأورتِنس في صباح ذلك اليوم، عند تحديد موعد لقائهما في المساء عبر الهاتف، إلى الصحف التي قرأها كلٌ منهما للتو.

قال رِنين ضاحكًا: انتبهي! إذا قابلتِ السيدة ذات الفأس في الطريق اعبري إلى الرصيف الآخر.

سألته أورتِنس: وإذا اختطفتني هذه السيدة الطيبة، ماذا أفعل؟

- استمري في طريقكِ وعندما يضيء وميض الفأس اهمسي لنفسكِ قائلة: «ليس لديَّ ما أخشاه، سوف ينقذني». أنا مَن سينقذكِ.. أُقبِّل يدكِ حتى نلتقي الليلة يا صديقتي العزيزة.

في فترة ما بعد الظهر انشغل رِنين في عمله. من الرابعة وحتى السابعة اشترى الطبعات المختلفة من الصحف. لم يتحدث أيٌّ منهما عن عملية اختطاف.

في الساعة التاسعة ذهب إلى صالة الألعاب الرياضية حيث يحظى بحمام دافئ.

وفي التاسعة والنصف، لم تتصل أورتِنس، اتصل بمنزلها، دون أي قلق خفي. أجابت الخادمة: السيدة لم تعُد بعد.

استحوذ رعب مفاجئ على رِنين، وهُرِع إلى الشقة المُستأجَرة التي تقطنها أورتِنس مؤقتًا بالقرب من حديقة مونسو. استجوب الخادمة، التي كانت مكرسة لخدمتها. قالت المرأة إن سيدتها خرجت في الساعة الثانية وفي يدها رسالة مختومة قائلة إنها ذاهبة إلى مكتب البريد وستعود لترتدي ثياب المساء. ومنذ ذلك الحين لا أخبار.

- لمَن كانت مُوجَّهة تلك الرسالة؟

- إلى سيد. رأيت الكتابة: الأمير رِنين.

انتظر حتى منتصف الليل. عبثًا. لم تعُد أورتِنس، وكذلك في اليوم التالي.

أمر رِنين الخادمة: لا تتحدثي بكلمة واحدة عن ذلك. ستقولين إن سيدتكِ في الريف وإنكِ ستنضمين إليها.

بالنسبة له، لم يكُن لديه أي شكوك. تم تفسير اختفاء أورتِنس بتاريخ 18 أكتوبر. أورتِنس هي الضحية السابعة للسيدة ذات الفأس.

قال رِنين لنفسه: «إن الاختطاف يسبق ضربة الفأس بثمانية أيام؛ لذلك لديَّ سبعة أيام كاملة أمامي الآن. دعونا نضع ستة؛ لتجنُّب أي مفاجآت. اليوم هو السبت: يجب أن تكون أورتِنس مُحرَّرة يوم الجمعة المقبل، ظهرًا، ولهذا السبب عليَّ أن أعرف مكانها، على أبعد تقدير، مساء الخميس، الساعة التاسعة».

كتب رِنين بأحرف كبيرة على لافتة سمَّرها فوق مدفأة مكتبه: مساء الخميس الساعة التاسعة. ثم يوم السبت، ظهرًا، في اليوم التالي للاختفاء، حبس نفسه في هذه الغرفة بعد أن أمر خادمه بعدم إزعاجه حتى أوقات الوجبات.

بقي هناك لمدة أربعة أيام، بالكاد تحرك. أحضر مجموعة من جميع الصحف المهمة التي قدّمت تقارير مفصلة عن الجرائم الست الأولى. عندما قرأها وأعاد قراءتها، أغلق المصاريع والستائر، ودون ضوء، وقُفْل الغرفة مغلق، استلقى على الأريكة وتأمل.

مساء الثلاثاء، لم يحرز تقدمًا أكثر مما كان عليه في الصباح. ظل الظلام كثيفًا كما كان. لم يجد أدنى خيط قد يقوده، ولم يلمح أدنى سبب يسمح له بالأمل.

في بعض الأحيان على الرغم من قوته الهائلة في السيطرة على نفسه، وكذلك ثقته غير المحدودة في الموارد المتاحة له، كان يرتجف أحيانًا من الألم. هل سيصل في الوقت المناسب؟ لم يكُن هناك سبب له لرؤية أكثر وضوحًا في الأيام الأخيرة مما كانت عليه في الأيام التي مرت للتو. ثم ستُقتَل الشابة لا محالة.

هذه الفكرة عذبته. كان متعلقًا بأورتِنس بشعور أكثر عنفًا وأعمق بكثير مما يوحي به مظهر علاقاتهما. فضول البدايات، والرغبة الجامحة، والحاجة إلى حماية الشابة، وتشتيت انتباهها، ثم رغبته في منحها طعم الحياة. أصبح حبًّا مجردًا. لم يدرك أيٌّ منهما ذلك؛ لأنهما رأَيا أنفسهما فقط في ساعات الأزمة عندما كانت مغامرة الآخرين تشغلهما وليس مغامرتهما. ولكن، عند أول شعور بالخطر، أدرك رِنين المكان الذي شغلته أورتِنس في حياته، ويئس من معرفتها، صار أسيرًا وعاجزًا عن إنقاذها.

أمضى ليلة من الاضطراب والتوتر، وقلَّب الأمر في كل الاتجاهات. كان صباح الأربعاء مروعًا أيضًا بالنسبة له. كان يفقد توازُنه. تخلى عن الظلام، وفتح النوافذ، وأخذ يذرع شقته جيئةً وذهابًا، وخرج إلى الشارع ثم عاد، كما لو يحاول الهرب من الفكرة التي استحوذت عليه.

«أورتِنس تعاني.. أورتِنس في قاع الهاوية.. ترى الفأس.. تناجيني.. تتوسل إليَّ.. ولا يمكنني فعل أي شيء».

في الخامسة بعد الظهر، عندما فحص قائمة الأسماء الستة، أصابته تلك الصدمة الداخلية الصغيرة التي تشبه إشارة الحقيقة التي يبحث عنها المرء. ومض ضوء في ذهنه. بالتأكيد لم يكُن الضوء العظيم حيث تظهر جميع النقاط، ولكنه كان كافيًا بالنسبة له لمعرفة الاتجاه الذي يجب أن يذهب إليه.

على الفور وضع خطته. أرسل إلى الصحف الرئيسة، بواسطة سائقه كليمون، ملاحظة صغيرة كان من المقرر تمريرها بحروف كبيرة في قسم إعلانات اليوم التالي. كان لدى كليمون أيضًا مهمة الذهاب إلى مغسلة كوربو□ي حيث كانت تعمل الآنسة كو□رو، الضحية الثانية.

يوم الخميس، لم يتحرك رِنين. في فترة ما بعد الظهر، وصلت إليه عدة رسائل أثارها إعلانه. ثم كان هناك برقيتان. لكن لا يبدو أن هذه الرسائل والبرقيات أجابت عما كان يتوقعه. أخيرًا، في الساعة الثالثة، تلقى، من حي تروكادرو، رسالة مختومة بدت مُرضِية له. استدار وعاد، درَس المكتوب، وقلَّب مجموعة الجرائد، ثم همس لنفسه بصوت منخفض: «أعتقد أنه يمكننا السير في هذا الاتجاه».

فتح دليل الشوارع في باريس ووضع إشارة على هذا العنوان: السيد دو لورتيه - □انو، حاكم مستعمرات متقاعد، 47 مكرر جادة كليبر، وهُرِع إلى سيارته.

- كليمون، جادة كليبر، 47 مكرر.

تم استقباله في غرفة مكتب كبيرة، تضم خزائن تحوي كتبًا رائعة وعتيقة ذات أغلفة ثمينة.

السيد دو لورتيه - □انو ما زال شابًّا، له لحية رمادية إلى حد ما، ويتميز بأخلاقه اللطيفة وابتسامته الجذابة التي تدعو للثقة والتعاطف.

بدأ رِنين حديثه: سيدي الحاكم، جئت إليك لأنني قرأت في جرائد العام الماضي أنك كُنت على صلة بواحدة من ضحايا السيدة ذات الفأس، الآنسة أونورين □رنيست.

أجابه السيد دو لورتيه: نعم، كُنا على صلة! وظفتها زوجتي خياطةً تعمل باليومية! فتاة مسكينة!

- سيدي الحاكم، سيدة من أصدقائي اختفت للتو، كما سبق واختفت السيدات الست الضحايا.

قال السيد دو لورتيه: كيف؟! لكننا تابعنا الجرائد بانتباه. لم تقع حادثة في الثامن عشر من أكتوبر.

- نعم وقعت، سيدة شابة، أحبها، الآنسة دانيل، اختُطِفت في الثامن عشر من أكتوبر.

- واليوم هو الرابع والعشرين من أكتوبر!

- في الواقع، ستقع الجريمة بعد غد.

- هذا أمر مروع. يجب علينا منعها بأي ثمن..

- ربما سأفعل ذلك بمساعدتكم، سيدي الحاكم.

- لكن هل حررت شكوى في قسم الشرطة؟

- لا. نحن نواجه ألغازًا، إذا جاز التعبير، مُطلَقة ومتشابكة. لا تسمح بوجود أي ثغرة يمكن من خلالها العثور على شيء. ولا جدوى من التعامل معها بالوسائل العادية، أو التحقيق ودراسة مسارح الجريمة والبحث عن آثار الأقدام.. إلخ. إذا لم تفعل أيًّا من هذه الإجراءات في الحالات السابقة، فسيكون اعتمادها في الحالة السابعة مضيعة للوقت. العدو الذي يُظهِر الكثير من المهارة والبراعة لا يترك وراءه أي أثر حتى يتوقف المحقق المحترف عند المحاولة الأولى.

- إذن ماذا فعلت؟

- قبل التصرف، فكرت لأربعة أيام.

رمق السيد دو لورتيه محاوره، وبنظرة ساخرة قال: ونتيجة هذا التأمل؟

أجابه رِنين: في البداية، دون تحليل، ألقيت نظرة عامة على كُل هذه الأمور، هذا ما لم يفعله أحد من قبل؛ مما مكنني من اكتشاف أهميتها العامة، وتجاهُل كل الفرضيات غير المريحة. ولأنه من الممكن الاتفاق على دوافع كل هذه الجرائم؛ يمكن أيضًا نسبتها إلى الفئة الوحيدة من البشر القادرة على تنفيذها.

- مَن تقصد؟

- فئة المجانين يا سيدي الحاكم.

ذُهِل السيد دو لورتيه.

- المجانين؟ يا لها من فكرة!

- سيدي الحاكم، السيدة التي يُطلَق عليها السيدة ذات الفأس هي امرأة مجنونة.

- لكنها ستُحبَس!

- كيف لنا أن نعرف أنها لم تُحبَس من قبل؟ كيف لنا أن نعرف إذا كانت واحدة من هؤلاء (شبه المجانين) الذين يبدون ظاهريًّا غير مؤذين، وبالكاد يراقبهم أحد لدرجة تسمح لهم بالاستسلام لهوسهم الصغير وغرائزهم الوحشية الشرسة؟ لا مخلوق يمكنه أن يكون أكثر كذبًا منهم. لا مخلوق يكون أكثر مراوغة، وأكثر صبرًا، وأكثر عنادًا، وأكثر خطورة، وأكثر سخفًا ومنطقية في الوقت نفسه، وأكثر اضطرابًا وكذلك أكثر منهجية. كل هذه الصفات، سيدي الحاكم، يُمكِن تطبيقها على عمل السيدة ذات الفأس. الهوس بالفعل وتكراره هي سمة المجنون. لا أعرف حتى الآن الفكرة التي تستحوذ على السيدة ذات الفأس، لكنني أعرف الفعل الناتج عنها، وهو لا يختلف. الضحايا رُبِطن بحبال متطابقة. عدد الأيام متطابق. الإصابات، بنفس الأداة، متطابقة، وفي نفس المكان: في منتصف الجبهة، وبجرح عمودي. أي قاتل قد يختلف في تنفيذه جريمة لأخرى. يده التي تتصرف، وبالتالي قد تنحرف أو ترتجف. السيدة ذات الفأس لا ترتجف. يبدو أنها تتقن ما تفعله، وحافة سلاحها لا تنحرف عن هذا الخط. هل أحتاج إلى تقديم المزيد من الأدلة لك، ومراجعة جميع الحقائق الأخرى معك؟ لا، أليس كذلك؟ كلمة اللغز معروفة لك الآن، وأنت فكِّر مثلي؛ أن شخصًا مجنونًا فقط هو القادر على التصرف هكذا، بغباء، ووحشية، وآلية، مثل ساعة تدق، أو ساطور يسقط..

أومأ السيد دو لورتيه: في الحقيقة.. في الحقيقة.. يمكن رؤية القضية برمتها من هذا المنظور.. بدأت أعتقد أنه يجب علينا أن نرى الأمر من خلاله. لكن إذا اعترفنا أن هذه المرأة مجنونة بنوع من المنطق الرياضي، فلا أرى أي علاقة بين الضحايا. ضربة حظ. لماذا تختار هذه بدلًا من الأخريات؟

صاح رِنين: آه! سيدي الحاكم، أنت تسألني السؤال الذي طرحته على نفسي منذ الدقيقة الأولى، السؤال الذي يُلخِّص المشكلة برمتها، والذي واجهت صعوبة كبيرة في حله! لماذا أورتنس دانيال؟ بين مليوني امرأة ممكنة، لماذا أورتنس؟ لماذا الآنسة رِنيست؟ لماذا الآنسة ويليامسون؟ إذا كانت القضية كما تخيلتها في مجملها؛ أي بناءً على المنطق الأعمى للمرأة المجنونة، كان هناك حتمًا خيار. ولكن ماذا يُشكِّل هذا الاختيار؟ ما الجودة أو العيب أو العلامة اللازمة عند السيدة ذات الفأس؟ باختصار، إذا اختارت فما الذي دفعها إلى الاختيار؟

- هل عثرت على الإجابة؟

صمت رِنين قليلًا، ثم قال: نعم سيدي الحاكم، عثرت عليها، وكان بإمكاني الوصول إليها منذ الدقيقة الأولى. يكفي النظر بعناية في قائمة الضحايا. ومضات الحقيقة هذه تضيء فقط في دماغ محموم بالجهد والتفكير. نظرت عشرين مرة إلى القائمة دون أن تتشكل هذه التفاصيل الصغيرة أمام عيني.

قال السيد دو لورتيه: لا أفهم.

- سيدي الحاكم، يجدر الإشارة إلى أن جمع العديد من الأشخاص في قضية أو جريمة أو فضيحة عامة، وما إلى ذلك، فيكون ذلك بناءً على سبب ثابت إلى حد ما. في حالتنا، لم تستخدم الصحف أبدًا الألقاب فيما يتعلق بالسيدة لادو أو الآنسة آردان، أو الآنسة كو□رو. من ناحية أخرى، ظهر لقب الآنسة ِرنيست، والآنسة ويليامسون وكذلك أسماؤهن الأولى. لو كان الحال هكذا مع الضحايا الست ما كان هناك لغز.

- لماذا؟

- لأننا كنا سنعرف من المحاولة الأولى العلاقة التي تجمع النساء التعيسات. كما عرفت أنا عندما قارنت ألقاب الاثنتين بلقب أورتِنس دانيال. هذه المرة، أنت تفهم، أليس كذلك؟ لديك، مثلي، أمام عينيك، ثلاثة أسماء..

بدا السيد دو لورتيه □انو مضطربًا. قال ووجهه شاحبًا نوعًا ما:

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

أكمل رِنين بصوت صافٍ ونبرة مفصلة: أقول.. أقول إن أمامكم ثلاثة أسماء تبدأ جميعها بنفس الحرف الأول، والثلاثة، بمصادفة ملحوظة، تتكون من نفس عدد المقاطع، كما يمكنك التحقق. من ناحية أخرى، إذا استفسرت عن مغسلة كوربو□ي، حيث كانت تعمل الآنسة كو□رو فستعرف أن اسمها كان إيلاري. مرة أخرى نفس الحرف الأول ونفس عدد المقاطع. لا حاجة للنظر إلى أبعد من ذلك. نحن متأكدون، ألسنا كذلك؟ أن الأسماء الأولى لجميع الضحايا لها نفس الخصائص. وهذه الملاحظة تعطينا بطريقة مؤكدة حل المشكلة التي تواجهنا. وتوضح اختيار المجنونة. نحن نعرف الصلة التي ربطت التعيسات. لا خطأ ممكن في هذا. وطريقة الاختيار تلك هي خير تأكيد لفرضيتي! يا له من دليل على الجنون! لماذا تقتل السيدة ذات الفأس هؤلاء النساء دون سواهن؟ لأن أسماءهن تبدأ بحرف مشترك وتتكون من نفس عدد المقاطع؟ هل يمكنك سماعي أيها الحاكم. نفس عدد المقاطع. الحرف الأول من أسمائهن هو الحرف الثامن في الأبجدية الفرنسية. أما أداة التعذيب فتبدأ بنفس الحرف. هل ستخبرني أن السيدة ذات الفأس ليست امرأة مجنونة؟

صمت رِنين لبرهة واقترب من السيد دو لورتيه □انو: ما الأمر يا سيدي الحاكم؟ يبدو أنك تعاني؟

- لا.. لا. قالها السيد دو لورتيه وجبهته تتصبب عرقًا: لكن هذه القصة بأكملها مزعجة للغاية! وأفكر أنني قد عرفت واحدة من الضحايا.. على كُلٍّ...

أحضر رِنين من فوق الطاولة إبريقًا، وكأسًا ملأها بالماء وسلمها إلى السيد دو لورتيه. أخذ الأخير بضع رشَفات، ثم، استقام، وتابع بصوت سعى إلى ثباته:

- لنفترض صحة تخمينك. مع ذلك، يجب أن يؤدي إلى نتائج ملموسة. ماذا فعلت؟

- لقد نشرت إعلانًا في جميع صحف هذا الصباح مفاده: «طباخة ماهرة. راسِلونا قبل الخامسة مساءً إلى إيرميني، شارع أوسمان». أنت تفهم مغزاه، أليس كذلك يا سيدي الحاكم؟ الاسم يبدأ بنفس

الحرف، وكذلك يتكون من نفس عدد المقاطع، وهي أسماء عفا عليها الزمن، مثل: إيرميني، إيلاري، إربرت (أو هربرت بالإنجليزية).. ومع ذلك، فإن هذه الأسماء؛ لأسباب أجهلها، ذات أهمية للمجنونة. لا يمكنها الاستغناء عنها. للعثور على نساء لديهن هذه الأسماء؛ تجمع كل ما تبقَّى لها من عقل وتمييز وتفكير وذكاء. إنها تبحث، تتساءل. إنها على اطلاع. تقرأ الصحف التي بالكاد تفهمها، ولكن حيث تتشبث عيناها بتفاصيل معينة، بأحرف معينة. وبالتالي، لم أشك للحظة واحدة أن اسم إيرميني هذا، الذي طُبِع على صفحة الجريدة بأحرف كبيرة، لم يلفت انتباهها، وأنها، منذ هذا اليوم، لم يحاصرها إعلاني..

سأله السيد دو لورتيه بقلق: هل راسلتك؟

- العديد من الطاهيات كتبن إلى المدعوة إيرميني، رسائل معتادة في مثل هذه الحالات. لكنني تلقيت رسالة بدت لي مثيرة للاهتمام.

- مَن المُرسِل؟

- اقرأها، سيدي الحاكم.

انتزع السيد دو لورتيه الورقة من يدي رنين ونظر إلى التوقيع. في البداية أومأ بدهشة، كما لو كان يتوقع شيئًا آخر. ثم انطلق في موجة ضحكٍ طويلة.

- لماذا تضحك سيدي الحاكم؟ تبدو عليك السعادة.

- سعيد! لا. لكن هذه الرسالة وقَّعتها زوجتي.

- وكنت تخشى شيئًا آخر؟

- لا! ولكن طالما أنها زوجتي.. لم يُكمِل جملته، وقال لرنين: اعذرني يا سيدي، ولكنك أخبرتني أنك تلقيت عدة ردود. لماذا، من بين كل هذه الرسائل، تظن أنَ هذه الرسالة هي التي تُوفِّر لك دليلًا؟

- لأنها تحمل توقيعها: السيدة دو لورتيه □انو. والسيدة دي لورتيه □انو وظفت إحدى الضحايا لتعمل لديها خياطةً: أونورين □رنيست.

- وكيف عرفت؟

- من صحف تلك الفترة.

- ولم تدعم اختيارك بأي أسباب أخرى؟

- لم أدعمه بأي أسباب أخرى. ولكن لديَّ انطباع، منذ أن وصلت إلى هنا سيدي الحاكم، أنني لم أسلك الطريق الخطأ.

- ولِمَ هذا الانطباع؟

- لا أعرف تحديدًا.. علامات محددة.. بعض التفاصيل.. هل يمكنني لقاء السيدة دو لورتيه يا سيدي؟

- كنت سأقترح عليك ذلك يا سيدي، اتبعني من فضلك.

قاده عبر ممر إلى غرفة رسم صغيرة، حيث تجلس سيدة شقراء لها وجه مليح سعيد ولطيف بين ثلاثة أطفال ترسم معهم.

نهضت المرأة. تولى السيد دو لورتيه تقديمهما لأحدهما الآخر باقتضاب، ثم قال لزوجته: سوزان، هل هذه منكِ، هذه الرسالة؟

- مُرسَل إلى السيدة إيرميني، شارع أوسمان؟ نعم، الرسالة مني. أنت تعرف أن خادمتنا ستغادر وأنني أبحث عن شخص ما.

قاطعها رِنين: اعذريني يا سيدتي، اسمحي لي بكلمة. مِن أين لكِ عنوان هذه السيدة؟

احمر وجهها بينما أصر زوجها على السؤال مُكرِّرًا: أجيبي. سوزان. مَن أعطاكِ عنوان تلك السيدة؟

- عبر الهاتف.

- مَن هاتفَك؟

بعد تردُّد قالت: ممرضتك القديمة..

- فِيلسين؟

- نعم.

قطع السيد دو لورتيه الحديث، ودون أن يسمح لرِنين بطرح مزيد من الأسئلة قاده عائدًا إلى مكتبه.

- كما ترى يا سيدي، هذه الرسالة لها واقعة طبيعية. فِيلسين، ممرضتي القديمة، التي أتكفل بمعاش تقاعُدها، والتي تعيش هنا في باريس بالقرب منا، قرأت إعلانك، وهي التي أخطرت السيدة دو لورتيه. ثم أضاف وهو يحاول الضحك: لأنه على أي حال، لا أفترض أنك تشك أن زوجتي هي السيدة ذات الفأس؟

- لا.

- إذن أُغلِق الأمر.. على الأقل من جانبي.. فعلت ما أستطيع فعله.. تبعتك بالمنطق، وأنا نادم حقًّا أنني لم أكُن ذا نفع لك.

كان حريصًا على إبعاد هذا الزائر الطائش، وأومأ ليريه الباب، لكنه شعر بشيء من الدوار فشرب كوبًا ثانيًا من الماء، وجلس. كان وجهه منهكًا.

نظر إليه رِنين بضع ثوانٍ، كما ينظر المرء إلى خصمٍ فاشل، لا يحتاج سوى لأن يُجهِز عليه، وجلس إلى جانبه، ثم أمسك بذراعه فجأة.

- سيدي الحاكم، إذا لم تتكلم، أورتِنس دانيل ستكون الضحية السابعة.

- ليس لديَّ ما أقوله أبدًا يا سيدي! ماذا تريد أن أعرف؟

- الحقيقة. تفسيراتي جعلتها معروفة لك. كَدرك دليل واضح بالنسبة لي. جئت إليك متعاونًا. ومع ذلك، وبفضل فرصة غير متوقعة، أكتشف دليلًا. دعنا لا نضيع الوقت.

- لكن يا سيدي إذا كُنت أعرف الحقيقة لماذا سأصمت؟

- خوفًا من الفضيحة. لديَّ حدس عميق أن في حياتك شيئًا تضطر إلى إخفائه. الحقيقة التي ظهرت لك فجأة عن المأساة الوحشية، هذه الحقيقة، كُنت تعرفها، هي العار والفضيحة.. أنت ترتد عن واجبك.

لم يُعلِّق السيد دو لورتيه، انحنى رِنين عليه، لتتقابل أعينهما: لن تقع فضيحة. أنا الوحيد في العالم الذي سيعرف حقيقة ما حدث. ولديَّ اهتمام، مثلك، بعدم جذب الانتباه؛ لأنني أحب أورتِنس دانيال، ولا أريد أن يظهر اسمها في هذه القصة الفظيعة.

ظلا يرمقان أحدهما الآخر لدقيقة أو اثنتين. كان وجه رِنين قاسيًا. شعر السيد دو لورتيه أنه لن يتراجع إلَّا قبل أن ينطق دو لورتيه بالكلمات اللازمة. لكنه لَم يستطِع.

- أنت مخطئ.. أنت تعتقد في صِدق أشياء لا أساس لها من الصحة.

اقتنع رِنين فجأة وبرعب، أن صمت هذا الرجل الأحمق سيؤدي إلى نهاية أورتِنس دانيال، أعماه غضبه لدرجة الاعتقاد بأن حل اللغز موجود في متناول يده، لدرجة أن أمسك بتلابيب السيد دو لورتيه وأسقطه أرضًا.

- كفى أكاذيب! حياة المرأة على المحك! تحدَّث.. تحدَّث الآن.. وإلا...

أُنهِك السيد دو لورتيه. كانت المقاومة مستحيلة. لا يعني ذلك أن عدوان رِنين أخافه وأنه استسلم لهذا التصرف العنيف، لكنه شعر بأنه سُحِق تحت تلك الإرادة التي لا تُقهَر، الإرادة التي لا تقبل بأي عقبة. تلعثم: أنتَ على حق. واجبي أن أقول كُل شيء، مهما حدث.

- لن يحدث شيء، أعدك. لكن بشرط، أن تنقذ أورتِنس دانيال. ثانية من التردد يمكن أن تفقدنا كُل شيء. تكلم. لا أريد تفاصيل. أريد الحقائق.

وضع مرفقيه على مكتبه، وأسند جبهته إلى يديه، ثم قال السيد دو لورتيه بنبرة ثقة وإيجاز قدر الإمكان: السيدة دو لورتيه، ليست زوجتي. الوحيدة التي لها الحق في حمل اسمي، التي تزوجتها عندما كُنت موظفًا حكوميًّا شابًّا في المستعمرات، كانت امرأة غريبة إلى حد ما، وذات أهواء غريبة. كان لدينا طفلان، توءمان كانت تعشقهما، ولا شك أنها كانت ستعثر معهما على التوازن والصحة النفسية. عندما سُحِقا أمام عينيها بسبب حادث غبي - سيارة عابرة - جُنَّ جنون المرأة البائسة.. جنون صامت وحصيف كالذي ذكرته. بعد مرور بعض الوقت، عُيِّنت في مدينة الجزائر، فأحضرتها إلى فرنسا وعهدت بها إلى مخلوقة شجاعة سبق وأن قامت بتربيتي. بعد ذلك بعامين، قابلت المرأة التي منحتني فرحة حياتي. سبق وأن رأيتها من قبل. إنها أم أطفالي. هل سأضحي بها؟ هل سيتلطخ اسمنا بنشر شعور الرعب عند الناس، وهل يجب أن نرتبط بمأساة هذه المجنونة وما اقترفته من سفك دماء؟

فكر رِنين ثم سأل: ماذا تُدعَى، الأخرى؟

- إيرمانس.

- إيرمانس.. دومًا الحرف الأول.. دومًا نفس عدد المقاطع الصوتية.

- هذا ما أضاء في ذهني على الفور يا سيدي. عندما قربت أنت الأسماء من بعضها البعض. فكرت على الفور في أن المرأة التعيسة تُدعَى إيرمانس، وأنها مجنونة.. وكل الأدلة تبادرت إلى ذهني.

- إنها لا تُعاني كثيرًا حاليًّا. لكنها عانت أفظع معاناة حين سُحِق طفلاها أمام عينيها. ظلت تلك الصورة المروعة نصب عينيها ليلًا ونهارًا دون غياب؛ لأنها لم تنَم لحظة. فكِّر في هذا العذاب! رؤية طفليها يموتان، وتكرار المشهد في كل ساعة من الأيام والليالي الطويلة التي لا نهاية لها!

اعترض رِنين: مع ذلك، فإن هذه الصورة التي تطاردها ليست السبب الذي يدفعها للقتل؟

قال السيد دو لورتيه بنبرة مفصلة: بلى.. لتبعدها عن طريق النوم.

- لا أفهم.

- أنت لا تفهم لأنها مجنونة.. وكل ما يحدث داخل هذا الرأس المجنون بالضرورة ليس طبيعيًّا أو متماسكًا.

- هذا واضح.. ولكن افتراضك مرتبط بالحقائق التي تبررها؟

- نعم، حقائق بالكاد لاحظتها من قبل، وصار لها قيمتها اليوم. ظهرت أول هذه الحقائق قبل بضع سنوات، في الصباح، عندما وجدت ممرضتي القديمة، ولأول مرة، إيرمانس نائمة. لكن كانت تُحكِم كلتا يديها حول عنق جرو، خنقته. تكرر هذا المشهد ثلاث مرات.

- كانت نائمة؟

- نعم، كانت تنام. نوم يستمر عدة ليالٍ في كل مرة.

- وإلى ماذا خلصت؟

- استنتجت أن الاسترخاء العصبي التالي لفِعل القتل جعلها تخلد للنوم.

ارتجف رِنين: هاك إذن! ليس هناك شك في ذلك. القتل. جهد القتل يجعلها تنام. إذن لما نجح الأمر مع الحيواناتَ، فعلته مرة أخرى مع النساء. لقد تجمع كل جنونها حول هذه النقطة: إنها تقتلهن لتنام! غاب عنها النوم فسرقته من الآخرين! صحيح؟ لمدة عامين، كانت تنام؟

تلعثم السيد دو لورتيه، وقال: لمدة عامين كانت تنام.

لكزه رِنين، وقال: ألم تعتقد أن جنونها سيزداد، ولا شيء سيحرمها من النوم؟ دعنا نسرع يا سيدي، كل هذا فظيع!

كان كلاهما يتجه نحو الباب، عندما أصاب التردد السيد دو لورتيه. رن جرس الهاتف. قال: هذا من هناك.

- من هناك؟

- نعم، كل يوم في تلك الساعة تهاتفني ممرضتي القديمة لتطلعني على الأخبار الجديدة.

التقط السماعة، وسلَّمها إلى رِنين. طرح رِنين الأسئلة التي يحتاج إلى طرحها.

- هذا أنتِ يا فيلسين؟ كيف حالها؟

- لست في حالة سيئة يا سيدي.

- هل تنام جيدًا؟

- ليس بقدر الأيام الماضية. الليلة الماضية، لم تُغلِق عينيها. وخيمت عليها الكآبة.

- ماذا تفعل الآن؟

- تجلس في غرفتها.

- اذهبي إلى هناك يا فيلسين لا تتركيها.

- لا أستطيع. حبست نفسها.

- علينا أن نفعل ذلك يا فيلسين. اكسري الباب. أنا قادم. مرحبًا.. مرحبًا.. آه! اللعنة! انتهى أمرنا!

دون كلمة أخرى، غادر الرجلان الشقة وركضا إلى الشارع. دفع رِنين بالسيد دو لورتيه داخل السيارة.

- العنوان؟

- □يل دا □ري.

- اللعنة! في مركز مسارح الجريمة.. كما تتمركز العنكبوت داخل خيوطها. يا للخزي!

ظهرت له خيوط المغامرة كاملة الآن.

- نعم، إنها تقتلهن لتنام. كما فعلت مع الجِراء. إنها نفس الفكرة المؤرقة، تعقدت بسبب ممارسات وخرافات غير مفهومة على الإطلاق. يبدو لها أن تشابُه الأسماء الأولى مع اسمها أمر ضروري، وأنها لن ترتاح إلا إذا كانت ضحيتها أورتِنس أو أونورين. المنطق الأحمق الذي نعجز عن فهمه ولا نعرف أصله، ولكن من المستحيل أن نهرب منه. يجب أن تجد فريستها وتخطفها بعيدًا ثم تراقبها وتفكر فيها لعدد من الأيام المصيرية. تظن ظنًّا أحمق، أن الضربة التي تُحدِثها بالفأس في جمجمة الضحية تسمح لها بامتصاص النوم الذي يمنحها النسيان لفترة محددة. ومرة أخرى تكرر هذا العبث والجنون! لماذا حددت هذا العدد من الأيام ليكون فاصلًا؟ لماذا توفر لها إحدى الضحايا 120 يومًا، وأخرى 125 يومًا؟! هراء! حسبة غامضة وبالتأكيد حمقاء! ومع ذلك، تظهر ضحية جديد بعد 120 أو 125 يومًا. ست ضحايا! سيدي، أي مسئولية تحملها على عاتقك! إنها وحش! نحن لا نغفل عن ذلك!

لم يحتَج السيد دو لورتيه. طغى شحوبه، ويده المرتجفة على مظهره، وأثبتا ندمه ويأسه.

تمتم: لقد خدعتني.. كان لها مظهر هادئ جدًّا. سهلة الانقياد! وهي قبل كُل شيء تعيش في دار رعاية مسنين.

- فكيف لها أن تفعل ما تفعله؟

شرح السيد دو لورتيه: هذا المنزل يتكون من أجنحة تنتشر وسط حديقة كبيرة. الجناح حيث تعيش إيرمانس بعيد تمامًا عن الطريق. يضم غرفتين، غرفة تشغلها إيرمانس والأخرى تشغلها الممرضة العجوز، والغرفتان معزولتان، تطل نوافذهما على الريف. أعتقد أن هذا هو المكان حيث تحبس ضحاياها.

- والسيارة التي تحمل الجثث؟

- تقبع إسطبلات دار رعاية المسنين بالقرب من الجناح. هناك حصان وعربة، تستيقظ إيرمانس في الليل، وتضع الجثة على العربة وتغادر.

- والممرضة التي تراقبها؟

- لديها صمم جزئي، إنها عجوز جدًّا.

- ولكن خلال النهار ترى سيدتها تأتي وتذهب وتتصرف. ألا يجب علينا أن نعترف بشيء من التواطؤ؟

- آه! مستحيل. فِيلسين مخدوعة هي الأخرى.

- مع ذلك هي التي اتصلت بالسيدة دو لورتيه لتُخبِرها بشأن الإعلان..

- طبيعي. إيرمانس، تتحدث من حين لآخر، وهي تنغمس في قراءة الصحف، التي كما قلت لا تفهمها، ولكنها تقرؤها بعناية، بالتأكيد رأت الإعلان، وبعد أن سمعت أنني أبحث عن خادمة، ستطلب من فِيلسين الاتصال هاتفيًّا بنا..

قال رِنين ببطء: نعم.. نعم، هذا ما كنت أتوقع. إنها تستعد للضحايا.. تعرف أن أورتِنس حين تموت ستتفدَ كمية النوم التي تُمِدها بها، عرفت أن عليها العثور على ضحية ثامنة.. لكن كيف تجذبهن؟ كيف جذبت أورتِنس دانيال؟

انطلقت السيارة، ليس بالسرعة الكافية، حثَّ رِنين السائق: أسرِع يا كليمون، نحن نعود للخلف يا صديقي! فجأة، عذبه الخوف من الوصول بعدَ فوات الأوان. يعتمد منطق المجانين على تأرجُح المزاج، وبعض الأفكار الخطيرة والسخيفة التي تعبر أذهانهم. يمكن للمرأة المجنونة أن ترتكب خطأ نهارًا، في ساعة فوضوية.

من جهة أخرى، نومها يضطرب، ألن تميل إلى التصرف دون انتظار اللحظة المحددة؟ هل لهذا السبب بقيت محبوسة في غرفتها؟ يا إلهي، يا له من عذاب كان على الأسيرة أن تمر به! يا لها من

إثارة ورعب عند أدنى لفتة من جلادتها!

- أسرِع كليمون، أو سأجلس أنا خلف عجلة القيادة! أسرِع.. اللعنة!

وأخيرًا وصلوا إلى وجهتهم. كان طريق على اليمين.. وجدران تقسمها بوابة طويلة..

- تجول حول المكان يا كليمون. أليس كذلك يا سيدي الحاكم، لا يجب أن نلفت الأنظار. أين يقع الجناح؟

قال السيد دو لورتيه: على الجهة المقابلة تمامًا من هنا.

ركض رِنين على الجسر الذي يحد مسارًا مجوفًا ومتهالكًا. كان الظلام يقترب.

قال السيد دو لورتيه: هناك.. هاك الجناح.. هذه هي نافذة الطابق الأرضي. إنها واحدة من الغرفتين المعزولتين.. ومن الواضح أن هذا هو المكان الذي تخرج منه.

لاحظ رِنين: يبدو أن هناك قضبان؟

- نعم، لهذا السبب لم يكُن أحد مشتبهًا به، لكن كان عليها أن تصنع ممرًّا لنفسها.

بُنِي الطابق الأرضي فوق أقبية عالية. صعد رِنين بخفة ووطئت قدمه حافة حجرية.

كان أحد القضبان مفقودًا بالفعل.

قرَّب رأسه من الزجاج ونظر.

داخل الغرفة مظلمة. مع ذلك، استطاع التمييز بين امرأة تجلس بجانب امرأة أخرى مستلقية على فراش. أسندت المرأة الجالسة جبهتها إلى يديها ونظرت إلى المرأة المستلقية على الأرض.

همس السيد دو لورتيه الذي تسلَّق بدوره الجدار: إنها هي.

سحب رِنين قاطع الزجاج، وأحدث قطعًا دون أن تثير الضوضاء انتباه المرأة المجنونة.

ثم استدار برفق ووجَّه يده اليسرى حاملًا مسدسًا.

قال السيد دو لورتيه: أنت لن تُطلِق النار!

- سأفعل إذا لزم الأمر.

دفع النافذة ببطء. ولكن كان هناك عقبة لم يدركها رِنين. سقط كرسي.

اندفع قافزًا إلى الداخل عبر النافذة، وأشهر مسدسه ليقبض على المرأة المجنونة. لكنها لم تنتظره. على عجل، فتحت الباب وهربت، وهي تصرخ بصوت أجش.

أراد السيد دو لورتيه أن يتبعها.

سأله رِنين وهو راكع على الأرض: لماذا؟ دعنا ننقذ الضحية أولًا.

اطمأن على الفور. أورتِنس على قيد الحياة.

اهتم في البداية بقطع الحبال وإزالة الكمامة التي خنقتها. جذبت الضوضاء الممرضة العجوز؛ فركضت بمصباح إليهم، سرعان ما استولى عليه رِنين ووجَّه ضوءه نحو أورتِنس.

أصابه الذهول. بوجه مفعم بالحيوية، مرهق، وهزيل، وعين تلمع بالألم، حاولت أورتِنس دانيال أن تبتسم.

همست: كُنت في انتظارك.. لم أشعر باليأس لدقيقة واحدة.. كنت واثقة بك..

وفقدت الوعي.

بعد ساعة من عمليات البحث غير المجدية حول الجناح، عثروا على المرأة المجنونة تحبس نفسها داخل خزانة كبيرة في العلية. لقد شنقت نفسها.

لم ترغب أورتِنس في المكوث هناك ساعة أخرى. ومن الأفضل أن يكون الجناح فارغًا حين تعلن الممرضة العجوز انتحار المرأة المجنونة. شرح رِنين بدقة لفِيلسين ما عليها فعله، ثم ساعده السائق والسيد دو لورتيه على حَمل الشابة إلى السيارة وأخذها إلى المنزل.

كانت فترة نقاهة سريعة. في اليوم التالي، استجوبها رِنين بعناية فائقة، وسألها كيف عرفتِ المرأة المجنونة؟

قالت: الأمر بسيط. زوجي، الذي فقد عقله، يعيش هناك، وأحيانًا أذهب لزيارته، دون علم الجميع، أعترف. هكذا تحدثت إلى هذه المرأة المجنونة التعيسة، وفي ذلك اليوم أخبرتني أن آتي لرؤيتها. كنا وحدنا. دخلت الجناح. ألقت بقبضتها عليَّ، عجزت حتى عن الصراخ طلبًا للمساعدة. اعتقدت أنها كانت مزحة.. وفي الواقع، كانت مزحة.. مزحة مجنونة. كانت لطيفة جدًّا معي، ولكن تركتني أتضور جوعًا.

- لم يُصِبك الخوف؟

- من الموت جوعًا؟ لا. كما أنها قدمت لي الطعام من وقت إلى آخر.. ثم كُنت واثقة بك!

- نعم، ولكن كان هناك شيء آخر.. هذا التهديد الآخر..

- أي تهديد؟

جفل رِنين.

فهم فجأة أن أورتِنس - وهذا الطبيعي - لم تشك للحظة في الخطر المروع الذي واجهته. لم تربط في ذهنها بين جرائم السيدة ذات الفأس والمغامرة الخاصة بها. كان يعتقد أن الوقت قد حان ليخدعها. بعد بضعة أيام، ذهبت أورتِنس، كما أوصى طبيبها، لتحظى بقليل من الراحة في منزل أحد أقاربها في قرية باسيكور في وسط فرنسا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

خُطى على الثلج

لا رونسيير، باسيكور، الرابع عشر من نوفمبر / تشرين الثاني..

إلى الأمير رِنين، جادة أوسمان، باريس.

«صديقي العزيز..

بلا شك تشعر بتقصيري. خلال الأسابيع الثلاثة التي قضيتها هنا لم تصلك مِني أي رسالة! أو أي شُكْر! مع ذلك، فهمتُ أخيرًا الموت الرهيب الذي أنقذتني منه وخاتمة هذه القصة المخيفة! ولكن، ماذا تريد؟ خرجت من هذه المغامرة في حالة إرهاق كبيرة! كان لديَّ الحاجة للراحة والعزلة! والبقاء في باريس؟ مواصلة مغامراتنا معك؟ لا، وألف لا! كفى مغامرات! تلك القريبة تُثِير الاهتمام. لكن التي نكون ضحاياها، والتي تُعرِّضنا للموت.. يا ويلي! صديقي العزيز، يا له من رعب! كيف سأتمكن من نسيانه؟

على كُلٍّ، هنا في لا رونسيير، هدوء عظيم. قريبتي العجوز إرملين، تدللني وتعتني بي مثل المريضة. أستعيد قدراتي وكُل شيء يسير على ما يُرام. كل شيء يسير على ما يُرام لدرجة جعلتني أتوقف عن التكفير في أمور الآخرين؛ لذلك يمكنك أن تتخيل.. (أقول هذا لأنك غير قابل للتغيير، ومستعد دومًا للاهتمام بما لا يعنيك)؛ لذا تخيَّل أنني حضرت أمس اجتماعًا مثيرًا للفضول إلى حد ما.

قادتني أنطوانيت إلى نزل باسيكور، حيث نتناول الشاي في القاعة الكبرى، بين الفلاحين - كان ذلك يوم عرض بضائعهم ونُطلِق عليه يوم السوق - عندما وضع وصول ثلاثة أشخاص، رجلين وامرأة، حدًّا للحديث.

كان أحد الرجال مُزارِعًا سمينًا يرتدي سترة طويلة، وله وجه مستطيل مبهج وله سوالف بيضاء. الرجل الآخر، أصغر حجمًا، يرتدي سترة مخملية، وله وجه أصفر جاف ومتجهم. كان كلاهما يُعلِّق بندقية على كتفه. بينما كانت شابة نحيلة، قصيرة، ترتدي ثوبًا بنيًّا، وقبعة من الفرو، ووجهها الرقيق إلى حد ما، شاحب للغاية ومميز وبه مسحة حساسية.

تمتمت ابنة عمي إيرملين: الأب، والابن، وزوجة الابن.

- كيف؟ هذه المخلوقة الرائعة زوجة لهذا الصعلوك؟

- وهي زوجة ابن البارون دو جورن.

- البارون؟ هذا الرجل العجوز؟

- سليل عائلة نبيلة عاشت في القلاع. لقد عاش دومًا في ثوب الفلاح.. صياد عظيم له شوارب ضخمة، ثرثار كبير، شبه مدُمَّر. الابن، ماتياس، أكثر طموحًا، وأقل ارتباطًا بالأرض، له قانونه

الخاص، غادر إلى أمريكا ثم عاد إلى القرية بسبب نقص المالٍ، ووقع في حب فتاة صغيرة من البلدة المجاورة. المرأة التعيسة، وافقت على الزيجة، ولا نعرف حقًا دافع موافقتها.. وطيلة خمس سنوات كانت تعيش منعزلة، أو بالأحرى كسجينة، في قصر صغير قريب، قصر مانوير أو بوي.

سألتها: رفقة الأب والابن؟

- لا، يعيش الأب على أطراف القرية، في مزرعة معزولة.

- والسيد ماتياس غيور؟

- كالنمر.

- دون سبب؟

- نعم. لم يكُن خطأ السيدة ناتالي دو جارون، وهي أكثر النساء شرفًا، إذا تجول فارس وسيم منذ بضعة أشهر حول القصر. على أي حال لم يتحرك رجال آل دو جرون.

- كيف والأب كذلك؟

- الفارس الوسيم هو آخر سليل للمُلاك السابقين للقلعة. ومن هنا جاءت كراهية العجوز دو جرون. چيروم □ينال، الذي أعرفه وأحبه كثيرًا، فتى جميل، شديد الثراء، وقد أقسم - كما قال الرجل العجوز وهو في حالة سُكر - باختطاف ناتالي دو جرون. الآن أنصِتِ..

بين مجموعة تُرغِمه على الشرب وتنهال عليه بالأسئلة، صرخ الرجل العجوز، شِبه السكران، بلهجة سُخْط وابتسامة على وجهه تناقض تمامًا نبرته.

- سيتكبد كثيرًا جرَّاء ما يفعله هذا الفارس الصغير! اتركه يفعل تلك النزهات ويسترق النظر إلى الفتاة الصغيرة. لكن إن دنا أكثر من اللازم، ستنطلق طلقة البندقية نحوه، أليس كذلك يا ماتياس؟

أمسك بيد زوجة ابنه، وأضاف: ثم إن الصغيرة تعرف كيف تُدافِع عن نفسها! ناتالي، من الشجعان، ألا تستطيعي؟

ارتبكت الشابة. احمر وجهها. بينما تذمر زوجها قائلًا: من الأفضل أن تُمسِك لسانك يا أبي. هناك أشياء لا تُقال بصوت مرتفع.

أجاب الرجل العجوز: الأمور التي تمس الشرف، يتم تسويتها علانيةً. بالنسبة لي، شرف آل دو جورن فوق كُل شيء. وليس هذا ملائمًا للأجواء الباريسية..

توقَّف فجأة. شخص ظهر أمامه قد دلف للتو وبدا أنه ينتظر تتمة الجملة. كان رجلًا ضخمًا، صلبًا، يرتدي زي فارس، ويحمل منديلًا في يده، وبدا وجهه حيويًّا تزيده جمالًا عينيه التي ابتسمت بسخرية.

هتفت قريبتي: چيروم □ينال.

لم تظهر أي دلالات خجل على وجه الشاب.

عندما رأى ناتالي، حيَّاها بحميمية، وحين تقدّم نحوها ماتياس دو جورن، حدّق فيه كما لو كان يقول: حسنًا! وماذا ستفعل؟

احتد الموقف لدرجة أن نزع رجلا دو جورن بندقيتهما وأمسكا بهما مثل الصيادين الذين يبحثون عن فريستهم. كان للابن نظرة شرسة.

بدا چيروم منيعًا أمام التهديد. ثم بعد بضع ثوانٍ، خاطَب مالك الحانة: اسمع، جئت لمقابلة الأب فاسور. لكن متجره مغلق. هل تسمح بإعطائه غمد مسدسي لإصلاحه؟

سلَّمه الغمد، وأضاف ضاحكًا: سأحتفظ بالمسدس في حالة احتجت إليه، لا نعرف متى سأحتاج إليه صحيحًا؟

ثم، وهو لا يزال ساكنًا، أخرج سيجارة من علبة فضية، وأشعلها بنار القداحة، ثم خرج. شُوهِد من خلال النافذة يقفز على حصانه ويمشي بعيدًا بخطوات متمهلة.

- عليك اللعنة! أطلقها العجوز دو جورن وهو يتجرع كأس كونياك.

وضع ابنه يده على فمه وأجبره على الجلوس. بالقرب منهما كانت ناتالي دو جورن تبكي..

هذه، يا صديقي العزيز، هي قصتي. كما ترى، ليست مثيرة، ولا تستحق اهتمامك. لا شيء غامض حولها. لا دور لك فيها. بل إنني أصِر، على وجه الخصوص، ألَّا تلتمس منها ذريعة لتدخُّل غير مناسب على الإطلاق. من الواضح أنني سأشعر بسرور كبير إذا حظيت تلك المرأة التعيسة بالحماية، يبدو أنها ضحية حقيقية. لكنني أكرر، دع الآخرين يدافعون عن أنفسهم، واترك الأمر يتوقف عند تجاربنا السابقة الصغيرة».

أنهى رِنين الرسالة، وقرأها مرة أخرى، ثم تمتم: بربك، تلك للمصلحة العليا! لم نعُد قادرين على الاستمرار في مغامراتنا الصغيرة، نحن أمام المغامرة السابعة، ولا نستطيع أن نُكمِل إلى الثامنة، وهي مغامرتنا الأثيرة. لا تريدين.. لكنكِ تُريدين.. ولا يبدو ذلك.

فرك يديه. أعطته هذه الرسالة شهادة ثمينة عن التأثير الذي اكتسبه تدريجيًّا على الشابة بلطف وصبر. لقد كان شعورًا معقدًا إلى حد ما، حيث هناك إعجاب، وثقة لا حدود لها، وقلق في بعض الأحيان، وخوف تقريبًا، ولكن الحب أيضًا موجود، كان مقتنعًا بذلك.

رفيقة المغامرات التي شاركته في صداقة حميمية استبعدت أي إحراج بينهما، كانت خائفة فجأة، ودفعها نوع من التواضع الممزوج بالخداع إلى التهرب.

في نفس المساء، كان مساء الأحد، استقل رِنين القطار. وفي الصباح الباكر، بعد أن استقل عربة تجرها أحصنة على طريق ناصع البياض، قَاطعًا الفرسخين اللذين فصلا بلدة بومبيجانت عن قرية باسيكور، علم أن رحلته قد يكون لها فائدة: في الليل، سُمِع ثلاث طلقات من جهة مانوير أو بوي.

قال لنفسه: إله الحب والصدفة يحبني. إذا كان هناك صراع بين الزوج والحبيب فأنا وصلت في الوقت المناسب.

قال أحد الفلاحين: ثلاث طلقات أيها العميد، سمعتهم كما أراك الآن. كان رجال الشرطة يستجوبونه في النُّزل حين دخل رِنين.

قال مالك الحانة: وأنا أيضًا، ثلاث طلقات.. ربما عند منتصف الليل. الثلج الذي كان يتساقط لمدة تسع ساعات، توقف.. وتردد صداها في السهل على الفور.. طخ، طخ، طخ.

وشهد خمسة فلاحين آخرين. لم يسمع العميد ورجاله شيئًا، وأداروا ظهورهم للسهل. ولكن جاء مُزارِع وامرأة، ادعيا أنهما خادما ماتياس دو جورن، واللذان وصلا من إجازتهما في اليوم السابق إلى القصر، ولم يتمكنا من الدخول.

قال أحدهما: كان الباب الرئيس مغلقًا حضرة العميد. هذه سابقة من نوعها. كل صباح يفتح السيد ماتياس بنفسه قرابة الساعة السادسة، في الشتاء كما في الصيف. الآن تخطت الساعة الثامنة. ناديت. لم تأتِ إجابة؛ لذلك جئنا لرؤيتك.

قال العميد: كان بإمكانك الاستفسار من السيد دو جرون الأب، يعيش على أطراف القرية.

- حسنًا هذا خطئي بالفعل، لم تخطر الفكرة ببالي.

قال العميد حاسمًا: لنذهب إلى هناك.

رافقه اثنان من رجاله، بالإضافة إلى الفلاحين وصانع الأقفال الذين أحضروه. وانضم رِنين إلى المجموعة.

وصلوا إلى أطراف القرية حيث منزل الرجل العجوز دو جورن، وتعرف رِنين إليه بفضل وصف أورتِنس.

كان الرجل متجهًا إلى سيارته حين علم بالحادثة.

ضحك: ثلاث طلقات؟ طخ، طخ، طخ؟ لكن أيها العميد العزيز، بندقية ماتياس بها طلقتان فقط.

- وماذا عن الباب المُغلَق؟

- ابني نائم، هذا كُل شيء. الليلة الماضية جاء وتناولنا زجاجة خمر معًا، ربما اثنتين أو حتى ثلاثة.. هذا الصباح ينام مع ناتالي.

صعد إلى مقعد سيارته، عربة قديمة قماشها المشمع تم ترقيعه بالكامل، ونقر البوق.

- وداعًا يا رفاق. ليست تلك الطلقات الثلاث التي ستمنعني من الذهاب إلى السوق في القرية المجاورة، فاليوم الاثنين، لديَّ عجلان ينتظران الذبح. نهاركم سعيد أيها الرفاق.

وانطلق.

اقترب رِنين من العميد، وقال: أنا صديق الآنسة إرملين، من قرية لا رونسيير، الوقت ما زال مبكرًا لأذهب إلى منزلها؛ لذا أطلب إذنك أن أسير معك حول قصر دو جورن. الآنسة إرملين على اتصال

بالسيدة دو جورن، وسأكون سعيدًا إذا طمأنتها؛ لأنني آمل ألا يكون مكروهًا قد وقع في القصر، أليس كذلك؟

أجاب العميد: أي شيء قد وقع يمكننا أن نرى آثاره على الثلوج.

كان العميد شابًّا متعاطفًا وبدا ذكيًّا وواسع الحيلة. منذ الوهلة الأولى، لاحظ ببصيرة كبيرة آثار الأقدام التي تركها ماتياس في الليلة السابقة في طريقه إلى المنزل، وسرعان ما اختلطت الآثار مع آثار الأقدام التي شكَّلها الخادم وفتاة المزرعة متجهين نحو القصر ثم مبتعدين عنه. وهكذا وصلوا أمام الباب الكبير الذي فتحه صانع الأقفال بسهولة. من الآن فصاعدًا، كان هناك مسار واحد فقط ظاهر على الثلج النقي، وهو مسار ماتياس، وكان من السهل ملاحظة أن الابن احتسى الكثير من الشراب ليلة أمس؛ لأن مساره كان خطوات متعرجة حادة جعلته ينحرف إلى أشجار الطريق.

على بُعْد مئتَي متر كان القصر المتهالك، وبابه الرئيس مفتوحًا.

قال العميد: لندلف.

وبمجرد أن عبر العتبة، همس: وي! كان العجوز دو جورن مخطئًا في عدم المجيء، لقد وقعت معركة هنا.

كانت القاعة الكبرى في حالة من الفوضى. كرسيان مكسوران، الطاولة مقلوبة، شظايا الخزف والزجاج تشهد على عنف القتال. الساعة العملاقة ملقاة على الأرض وعقاربها توقفت عند الحادية عشرة والنصف.

بتوجيه من الخادمة، صعدوا بسرعة إلى الطابق الأول. لا أثر لماتياس وزوجته. لكن باب غرفتهما مُحطم بمطرقة عُثِر عليها أسفل السرير.

نزل رِنين والعميد إلى الطابق السفلي. تتصل القاعة بممر نحو المطبخ، الموجود في الخلف حيث مخرج مباشر إلى غرفة صغيرة في البستان. في نهاية هذه الغرفة بئر لا مفر من المرور جوارها.

عند عتبة المطبخ وحتى البئر، تم جرف الثلج، الذي لم يكُن سميكًا، بشكل غير منتظم، كما لو تم سحب جثة فوقه. وحول البئر، كانت آثار الأقدام متشابكة؛ مما يشير إلى أن القتال بدأ من جديد هناك. وجد العميد آثار أقدام ماتياس، وغيرها، جديدة وأكثر وضوحًا وأدق.

هموا بالمغادرة وعلى بُعْد ثلاثين ياردة عثروا على مسدس، قال أحد الفلاحين إنه مشابه للذي أخرج چيروم □ينال في اليوم السابق في الحانة.

فحصه العميد: تم إطلاق ثلاث طلقات من أصل سبع.

هكذا بدأت المأساة تتشكل تدريجيًّا في خطوط عريضة، وعاد العميد، الذي أمر الجميع بالوقوف جانبًا والحفاظ على آثار الأقدام، إلى البئر. انحنى وطرح بعض الأسئلة على الخادمة، وتمتم بينما يتقرب من رِنين: الأمر يبدو واضحًا بالنسبة لي.

تأبط رِنين ذراعه: دعنا نكون صريحين أيها العميد، أنا على دراية كافية بالقضية، كوني، كما أخبرتكَ، على صلة بالآنسة إرملين، وهي صديقة السيد چيروم ينال، وتعرف أيضًا السيدة دو جورن. ماذا تفترض؟

- لا أريد افتراض أي شيء. لاحظت فقط أن شخصًا ما جاء الليلة الماضية..

- كيف؟ الآثار الوحيدة لشخص دخل القصر هي آثار السيد دو جورن.

- الشخص الآخر، التي تكشف آثار أقدامه نظافة حذائه، جاء قبل تساقُط الثلوج؛ أي قبل الساعة التاسعة.

- تفترض أنه اختبأ في إحدى زوايا الغرفة، حيث شاهد عودة السيد دو جورن الذي وصل بعد تساقُط الثلج؟

- بالضبط. بمجرد دخول ماتياس، قفز الشخص عليه. وقع قتال، هرب ماتياس نحو المطبخ، طارده الشخص إلى البئر وأطلق ثلاث رصاصات من مسدسه.

- والجثة؟

- داخل البئر.

اعترض رِنين: بربك! كيف تفكر هكذا؟!

- سيدي، الثلوج هنا، هي راوية الحكاية. يُخبِرنا الثلج بوضوح شديد: بعد القتال، بعد الطلقات الثلاث، ابتعد رجل واحد فقط وغادر المزرعة. واحد فقط. وآثار خطواته ليست آثار ماتياس دو جورن. فأين ماتياس دو جورن؟

- لكن هذا جيد.. يمكننا البحث في البئر؟

- لا، إنها بئر لا قاع لها. بئر معروفة في المنطقة ومُميِّزة لهذا القصر.

- لذلك أنت تؤمن حقًّا؟

- أنا أكرر. بعد تساقُط الثلوج، بقي واحد: ماتياس. وغادر الآخر: الغريب.

- والسيدة دو جورن؟ قُتِلت أيضًا ورافقت زوجها إلى قاع البئر؟

- لا. تم حملها.

- حملها؟

- تذكر باب الغرفة الذي كُسِر بمطرقة..

- دعني أزن الأمر أيها العميد، سبق وأكدت أن شخصًا واحدًا غادر المكان، وهو الغريب.

- انحنِ. افحص خطوات هذا الرجل. تغرس في أعماق الثلج لدرجة تكاد تخترق الأرض. هذه خطوات رجل مُثقَل بحِمل ثقيل. حَمَل الغريب السيدة دو جورن على كتفه.

- إذن هناك مخرج في هذا الاتجاه؟

- نعم، باب صغير مع السيد ماتياس دو جورن، بالتأكيد جرَّده الغريب منه.

- هل يُفضِي الباب إلى الريف؟

- نعم، طريق يمتد إلى مئة واثني عشر مترًا، أتعرف إلى أين؟

- لا.

- في اتجاه القلعة.

- قلعة چيروم ينال! قالها رِنين من بين أسنانه، وأضاف: اللعنة! الأمر يزداد خطورة. إذا استمر المسار إلى القلعة، فنحن متأكدون.

استمر المسار إلى القلعة. أدركوا ذلك بعد أن تبعوا الخطى عبر الحقول المتموجة حيث تراكمت الثلوج في بعض الأماكن. كانت الطُّرُق المؤدية إلى البوابة الكبيرة قد جرفت ثلوجها بعيدًا، لكنهم وجدوا أن مسارًا آخر، تشكَّل حديثًا بواسطة عجلات سيارة، يسير في اتجاه معاكس للقرية.

رن العميد جرس القلعة. جاء الحارس، الذي قام بنزح الثلوج عن الممر الرئيس، والمكنسة في يده. عند استجوابه قال إن چيروم ينال قد غادر هذا الصباح قبل أن يستيقظ أي شخص في القلعة، وقاد سيارته بنفسه.

قال رِنين عندما ابتعدوا عن القلعة: في هذه الحالة، لا نملك سوى اتباع مسارات العجلات.

قال العميد: لا فائدة منها. لقد أخذوا طريق السكك الحديدية.

- من محطة بومبيجانت، من حيث أتيت؟ لكنهما سيضطران للمرور بالقرية..

- بالضبط. لكنهما سارا في الاتجاه الآخر حيث تنتهي المنحدرات إلى قلب العاصمة. هناك مكتب المدعي العام. سوف أهاتفه. لا يغادر أي قطار العاصمة قبل الساعة الحادية عشرة، سيتعين علينا فقط مراقبة المحطة.

قال رِنين: أعتقد أنك على درب الصواب أيها العميد. وأهنئك على الطريقة التي أجريت بها التحقيق.

انفصلا.

كان رِنين على وشك الانضمام إلى أورتِنس دانيال في قرية لا رونسيير، لكنه، بعد تفكير، اختار عدم مقابلتَها؛ حتى تأخذ الأمور منحًى أكثر ملاءمة، عاد إلى نُزُل القرية وكتب إليها تلك السطور:

«صديقتي العزيزة جدًّا..

لقد فهمت من قراءة رسالتكِ أنكِ، متأثرة كالعادة بمشاعر القلب، كنتِ ترغبين في حماية حب چيروم وناتالي. الآن، كل شيء يشير إلى أن هذا الرجل وهذه السيدة، دون طلب النصيحة من أحد، هربا بعد إلقاء ماتياس دي جورن في قاع بئر.

اعذريني على عدم زيارتكِ. هذا الأمر غامض بشكل مريب، وبالقرب منكِ لن يكون لعقلي الحرية ليفكر».

كانت الساعة العاشرة والنصف. ذهب رِنين في نزهة إلى الريف، سار عاقدًا يديه خلف ظهره لا ينظر إلى مشهد السهول البيضاء الجميل. عاد لتناوُل الغداء، لا يزال مفكرًا، غير مبالٍ بثرثرة ضيوف النُّزُل الذين علَّقوا على الأحداث.

ثم صعد إلى غرفته، نام قليلًا حتى أيقظته طُرقات الباب.

فتحه.

همس: أنتِ! أنتِ!

حدَّق هو وأورتنس في بعضهما البعض لبضع ثوانٍ، بصمت، واليدان تتعانقان، كما لو أن لا شيء، ولا فكرة، ولا كلمة يمكنها أن تختلط بفرحة لقائهما. في النهاية قال: هل أصبت بمجيئي؟

قالت برِقة: نعم.. نعم.. كُنت في انتظارك..

- ربما كان من الأفضل لو جعلتِني آتي مبكرًا بدلًا من الانتظار.. لم تنتظر الأحداث، ولا أعرف ماذا سيحدث لچيروم ينال وناتالي دو جورن.

قالت بحيوية: كيف! أنت لا تعرف؟

- لا أعرف بماذا؟

- أُلقِي القبض عليهما.

اعترض رِنين: قُبِض عليهما.. لكن لا. يجب استجوابهما أولًا.

- هذا ما يحدث الآن. البحث عن العدالة.

- أين؟

- في القلعة. ولأنهما بريئان.. هما بريئان، أليس كذلك؟ أنت، مثلي، لا تظنهما مذنبين؟

أجابها: لا أعترف بأي شيء، ولا أريد أن أعترف بأي شيء، يا صديقتي العزيزة. ومع ذلك، يجب أن أُخبِرك أن كل شيء ضدهما.. باستثناء حقيقة واحدة، هي أن كل شيء ضدهما أكثر من اللازم. ليس من الطبيعي أن يتم تجميع الكثير من الأدلة، ولا أن يروي القاتل قصته بهذه الصراحة. بصرف النظر عن ذلك، لا شيء سوى الظلام والتناقضات.

- حسنًا؟

- أنا في حيرة من أمري.

- لكن لديك خطة؟

- ليس لديَّ، حتى الآن. آه لو يمكنني رؤيته، چيروم ينال.. لو أقابله هو وناتالي دو جورن، وأسمعهما، وأعرف ما يقولانه دفاعًا عن أنفسهما! لكنكِ تعرفين أنه لن يُسمَح لي باستجوابهما أو حضور استجوابهما، انتهى الأمر.

قالت: انتهى في القلعة. لكنه سيستمر في القصر.

قال بخفة: هل سيأخذونهما إلى القصر؟

- نعم، على الأقل وفقًا لما يقوله أحد السائقين الذي وصل مع القادمين من مكتب المدعي العام.

تهلل وقال: في هذه الحالة، يمكن أن تنجح الأمور. القصر! لكننا سنكون في الصف الأمامي. سنرى، ونسمع كُل شيء. لا يتطلب الأمر سوى كلمة واحدة، أو تغيير في نبرة الصوت، أو حتى ومضة، لنكتشف الدليل الصغير الذي أحتاج إليه، يمكن أن يكون هناك بعض الأمل. تعالي يا صديقتي العزيزة.

قادها عبر الطريق المستقيم الذي ساره في الصباح، والذي أدى إلى الباب العملاق الذي عالج قفله صانع الأقفال. كان رجال الشرطة الذين تُركِوا لحماية القصر صنعوا ممرًّا بين الثلوج بآثار أقدامهم نحو المنزل وحوله.

سنحت الفرصة لأورتِنس ورِنين بالاقتراب دون أن يراهما أحد. استطاعا النظر من نافذة جانبية في الممر حيث درج الخدمة معلَق. على بُعْد خطوات قليلة كانت سقيفة صغيرة، تطل على الغرفة عبر كوة تشبه عين الثور. كانت الغرفة كبيرة تقع في الطابق الأرضي. خلال زيارته الصباحية، لاحظ رِنين عين الثور تلك من الغرفة الكبيرة، وكانت مُغطاة من الداخل بقطعة قماش. أزاح القطعة وأحدث كَوة في البلاط ليدلفا إلى السقيفة.

ارتفعت بعد بضع دقائق أصوات من الجانب الآخر للمنزل، بالقرب من البئر، دون شك. أصبح الضجيج مميزًا. اقتحم عدة أشخاص المنزل. صعد بعضهم إلى الطابق الأول، بينما وصل العميد مع شاب لم يريا سوى قامته الطويلة.

قالت أورتِنس: إنه چيروم ينال!

قال رِنين: نعم، يتم استجواب السيدة دو جورن، هناك، في غرفتها.

مرت ربع ساعة. ثم هبط الجمع من الطابق الأول ودخلوا إلى هناك. كانوا نائب المدعي العام وكاتبه ومفوض الشرطة وضابطان.

تم تقديم السيدة دو جورن. وطُلب من چيروم ينال التقدم.

كان وجه چيروم حيويًّا كما صوَّرته أورتِنس في رسالتها. لم يُبدِ أدنى اهتمام، بل ظهر على وجهه الحسم والإرادة الحازمة. ناتالي الصغيرة حجمًا، رقيقة المظهر، ظهر الخوف في عينيها، ومع ذلك أظهرت ما يُعطِي انطباعًا بالهدوء والأمن. نائب المدعي الذي كان يفحص الأثاث وآثار القتال، جعلها تجلس وقال لچيروم: سيدي، لقد طرحت عليك حتى الآن بعض الأسئلة. ولكن قبل كل شيء، خلال التحقيق الموجز الذي أجريته في حضوركم والذي سيتناوله قاضي التحقيق، طلبت منكم قَطْع رحلتكم والعودة والسيدة دو جورن. أنت الآن في وضع يسمح لك بدحض التهم المزعجة حقًّا المُوجَّهة إليك؛ لذلك أطلب منك أن تخبرني بالحقيقة الدقيقة.

- سيدي النائب، التهم الموجهة لي بالكاد تهزني. الحقيقة التي تطلبها ستكون أقوى من كل الأكاذيب التي تتكالب عليَّ مصادفةً.

- نحن هنا لنُسلِّط عليها الضوء يا سيدي.

- حسنًا. إليك ما في الأمر. صمت للحظة وقال بصوت واضح وصريح: أحب السيدة دو جورن حبًّا عميقًا. منذ اللحظة الأولى من لقائنا. عرفت نحوها حبًّا لا حدود له. لكن، مهما كان حُبًّا كبيرًا، وعنيفًا، سيطر عليه دومًا اهتمامي الوحيد: شرفها. أحبها، لكنني أحترمها أكثر مما أحبها. لا بد أنها أخبرتك، وسأخبرك مرة أخرى: السيدة دو جورن وأنا، تحدَّث أحدنا للآخر، لأول مرة، الليلة الماضية.

وتابع بصوت باهت: أنا أحترمها احترامًا يفوق تعاستها. على مرأى ومسمع من الجميع، حياتها عذاب مقيم في كل دقيقة. يضطهدها زوجها بكراهيته الشديدة وغيرته التي لا تُحتمَل. اسأل الخدم. سيخبرونك بمحنة ناتالي دو جورن، الضرب الذي يُكال لها، والاعتداءات التي كان عليها تحمُّلها. هذه المهنة هي التي أردت أن أضع لها حدًّا وأن أمنحها حق الإغاثة. ثلاث مرات حذرت العجوز دو جورن. توسلت إليه أن يتدخل، لكنني وجدت فيه، تجاه زوجة ابنه، كراهية متساوية تقريبًا. الكراهية التي تشعر بها العديد من المخلوقات نحو ما هو جميل ونبيل. عندها عقدت العزم على التصرف مباشرةً، وحاولت الليلة الماضية، مع ماتياس دي جورن، محاولة.. غير عادية بعض الشيء، ولكن مَن يستطيع، عليه أن ينجح. أُقسِم لك يا سيدي النائب إنه لم يكُن لديَّ أي نية أخرى سوى التحدث مع ماتياس دي جورن. معرفة بعض تفاصيل حياته التي سمحت لي بالتأثير عليه بطريقة فعَّالة، أردت الاستفادة من هذه الميزة لتحقيق هدفي. إذا سارت الأمور بشكل مختلف، فأنا لست مسئولًا تمامًا عن ذلك؛ لذلك جئت قبل الساعة التاسعة بقليل. كنت أعرف أن الخدم غائبين. فتح لي بنفسه. كان وحيدًا.

قاطعه النائب: يا سيدي، أنت تقول، مثل السيدة دو جورن، شيئًا لا يمكن تفسيره أبدًا، ومعاكسًا تمامًا للحقيقة. ماتياس دو جورن لم يعُد ليلة أمس قبل الحادية عشرة مساءً. هناك العديد من الأدلة على ذلك: شهادة والده، والعلامات على الثلج الذي تساقط من الساعة التاسعة والربع وحتى الحادية عشرة.

قال چيروم فينا دون أن يلاحظ أي تأثير سلبي لعناده: سيدي النائب، أنا أقول الأشياء كما حدثت، وليس كما يمكن تفسيرها. سأكرر. كانت الساعة التاسعة إلا عشر دقائق حين دخلت هذه الغرفة. اعتقادًا منه أنني جئت للهجوم عليه فك السيد دو جورن بندقيته. وضعت مسدسي على الطاولة، بعيدًا عن متناول يدي، وجلست.

قلت: يجب أن أتحدث إليك يا سيدي. من فضلك استمِع لي. لم يتحرك أو ينبس ببنت شفة؛ لذلك تحدثت. وعلى الفور، وبصراحة، دون أي تفسيرات سابقة كان من الممكن أن تخفف من حدة اقتراحي، نطقت بالجُمَل القليلة التي أعددتها مسبقًا: لعدة أشهر، سيدي، كنت أحقق بدقة في وضعك المالي. كل أرضك قيد الرهن. لقد وقَّعتم على قروض تقترب من موعدها النهائي ومن المستحيل ماديًّا عليك الوفاء بها. من جانب والدك، لا شيء نأمله، هو نفسه في حالة سيئة للغاية؛ لذلك أنت ضائع. لقد جئت لإنقاذك.

رمقني، بقي صامتًا، جلس. ربما لم يكره اقتراحي كثيرًا. ثم سحبت من جيبي مجموعة من الأوراق النقدية التي أودعتها أمامه، وتابعت: هاك ستون ألف فرنك يا سيدي، سأشتري القصر والأرض حوله. وستؤول الرِّهان العقارية إلى عهدتي، هذا ضِعف ما يستحقه القصر.

رأيت عينيه تلمعان، تمتم: الشروط؟

- شرط واحد، رحيلك إلى أمريكا.

سيدي النائب، تحدثنا في الأمر لمدة ساعتين؛ مما يعني أن عرضي لم يُغضِبه، لم أكُن لأخاطر به لو لم أكُن أعرف خصمي، لكنه أراد المزيد، وناقش بمرارة، متجنبًا ذِكر اسم السيدة دو جورن، التي لم أُلمِّح إليها بدوري ولو مرة واحدة. بَدَونا شخصين يبحثان تسوية بعض النزاعات، يبحثان التسوية بشأن الأرض. أخيرًا، تعبت من الحرب، قبلت حلًّا وسطًا، وتوصلنا إلى اتفاق أردت أن أجعله نهائيًّا على الفور. تبادلنا المعاملات الورقية، أعطاني إحداها مِلكية القصر مقابل المبلغ المدفوع. الأخرى، التي وضعها في جيبه على الفور، تقضي بأن عليَّ أن أُرسِل إلى أمريكا مبلغًا مساويًا في يوم إعلان الطلاق.

هكذا تم إبرام الصفقة. أنا متأكد أنه آنذاك قبِل الأمر بحُسن نية. خفتت نظرته لي بصفتي عدوًّا ومنافسًا، ورآني رجلًا نبيلًا يُقدِّم له معروفًا. حتى إنه منحني مفتاح الباب الصغير المفضي إلى الريف؛ لأتمكن من العودة إلى المنزل مباشرةً. لسوء الحظ، بينما كنت آخذ معطفي وقبعتي، تركت خطاب البيع المُوقَّع من قِبَله على الطاولة. على الفور رأى ماتياس دو جورن الميزة التي يمكن أن يحصل عليها بفضل هفوتي. سيحافظ على ممتلكاته، وزوجته.. ويحتفظ بالمال. على عَجل أخفى الورقة، وضربني على رأسي بمؤخرة بندقيته، وألقى البندقية جانبًا، ثم انقض عليَّ ممسكًا بحلقي بكلتا يديه. بعد صراع كبير استمر لفترة قصيرة أخضعته وربطته بحبل كان مُلقًى في إحدى الزوايا.

سيدي النائب، إذا جاء قرار خصمي مفاجئًا، فكان قراري أكثر سرعة. لقد قبل العقد، فسأجبره على الوفاء بالتزاماته، على الأقل إلى الحد الذي يهمني. في بضع قفزات، صعدت إلى الطابق الأول.

لم يكُن لديَّ أدنى شك في أن مدام دو جورن كانت هناك وسمعت ضجيج مناقشاتنا. استخدمت مصباحًا يدويًّا وأنا أدلف إلى ثلاث غرف. كانت الرابعة مُقفلة. طرقت. لا يُوجَد رد. لكنني كنت في واحدة من تلك اللحظات حيث لا عقبة ستمنعني. في إحدى الغرف، رأيت مطرقة. حملتها وكسرت الباب.

كانت ناتالي دو جورن في الداخل. في الواقع، ملقاة على الأرض، فاقدة الوعي. أخذتها بين ذراعَي، وعدتُّ إلى الطابق السفلي. ذهبتُ بها إلى المطبخ. في الخارج، عند رؤية الثلج، اعتقدت أنه سيكون من السهل متابعة مساراتي، لكن ما الذي يهم؟ هل اضطررت إلى فحص ماتياس دو جورن؟ لا. صاحب الستين ألفًا، صاحب الأوراق التي تعهدت فيها بدفع مبلغ مساوٍ له يوم الطلاق، صاحب ممتلكاته، غادر، تاركًا لي ناتالي دو جورن. لم يتغير شيء بيننا. باستثناء شيء واحد: استيعابي على الفور للتعهد الثمين الذي كُنت أتوق إليه. لم تكُن عودة ماتياس دو جورن التي أخشاها، بل خشيت توبيخ وسُخط ناتالي دو جورن. ماذا ستقول وهي مجرد أسيرة؟

لكن يا سيدي النائب، وأعتقد أن السيدة دو جورن كانت صريحة بما يكفي لتخبرك، لم أُلَم بفضل الحب؛ لأن الحب يناجي الحب. في منزلي، تلك الليلة، انطلقت عاطفتها، اعترفت بمشاعرها لي. لقد أحببتني كما أحببتها. تماهت مصائرنا. غادرت أنا وهي هذا الصباح في الخامسة دون أن نتوقع للحظة أن رجال العدالة يبحثون عنا.

انتهت قصة چيروم ينال. لقد سرد كُل شيء، دفعة واحدة، مثل قصة يحفظها عن ظهر قلب، ولا يمكن أن يُخطئ في شيء منها.

مرت لحظة هدوء.

في الغرفة الصغيرة التي اختبئا فيها، لم يفوت رِنين وكذلك أورتِنس أيًّا من الكلام الذي قيل. همست الشابة: كل هذا ممكن تمامًا، وعلى أي حال، منطقي للغاية.

اعترض رِنين: ما زال هناك فجوات، هائلة. استمعي لهم. هناك واحدة على وجه الخصوص..

قال نائب المدعي العام: وأين دور السيد دو جورن من كُل هذا؟

سأله چيروم: ماتياس دو جورن؟

- نعم، لقد أخبرتني، بإخلاص كبير، سلسلة من الحقائق التي سأكون على استعداد تام للاعتراف بها. لسوء الحظ، تنسى نقطة ذات أهمية قصوى: ماذا حدث لماتياس دو جورن؟ لقد قيدته في هذه الغرفة. ومع ذلك، هذا الصباح، لم يكُن هنا، في هذه الغرفة.

- بطبيعة الحال سيدي النائب، رحل السيد ماتياس دو جورن بعد أن قبل الصفقة.

- إلى أين؟

- بلا شك نحو الطريق المؤدي لمنزل والده.

- أين آثار أقدامه؟ هذه الثلوج التي تحيط بنا هي شاهد محايد. بعد قتالك معه، نراك، على الثلج، تمشي بعيدًا. لماذا لا نرى آثار أقدامه؟ وصل ولم يغادر: أين هو؟ لا أثر. أو بالأحرى...

خفض النائب صوته، وأضاف: أو بالأحرى، في وجود بعض الآثار عند الطريق إلى البئر وحول البئر، فهي تثبت أن قتالًا أكبر وقع هناك.. ثم، لا شيء.. لا شيء.

هز چيروم كتفه: سبق وذكرت لي هذا الأمر سيدي النائب، وهذا اتهام بالقتل مُوجَّه ضدي. اتهام لن أجيب عليه.

- هل ستجيبني إذا سألت عن مسدسك الذي تم العثور عليه على بُعْد عشرين ياردة من البئر؟

- لا أملك ما أقول.

- وماذا عن تلك الصدفة: ثلاث طلقات نارية تنطلق لتكسر هدوء الليل، والرصاصات الثلاث المفقودة من مسدسك؟

- لا يا سيدي النائب. لم يقع، كما تتخيل، صراع كبير عند البئر. حين تركت السيد دو جورن مقيدًا في هذه الغرفة، تركت أيضًا مسدسي. إذا سُمِعت طلقات نارية فأنا لست مُطلِقها.

- الكثير من الصدف إذن؟

- الأمر متروك للعدالة لتفنيدها. واجبي الوحيد هو قول الحقيقة، وليس لديك الحق لتطلب مني المزيد.

- وإذا كانت تلك الحقيقة تتعارض مع الأدلة والحقائق؟

- ستكون الحقائق خطأ سيدي النائب.

- فليكُن. لكن إلى حين أن تتمكن العدالة من الجمع بين تأكيداتك والحقائق، ستتفهم التزامي بإبقائك تحت تصرُّف مكتب المدعي العام.

سأل چيروم بقلق: والسيدة دو جورن؟

لم يُجِبه النائب. تحدَّث مع مفوض الشرطة، ثم مع أحد المحققين، وأمرهما بنقل السيارتين. ثم التفت إلى ناتالي: سيدتي، لقد استمعتِ إلى إفادة السيد ينال. هي تتفق تمامًا مع إفادتكِ. تحديدًا تأكيد السيد ينال أنكِ كُنتِ فاقدة للوعي حين حملكِ خارج المنزل. لكن هل استمرت تلك الحالة في أثناء رحلتكِ إلى قلعته؟

بدا أن هدوء چيروم قد عزز ثقة الشابة، فقالت: لم أستفِق إلَّا في القلعة يا سيدي.

- هذا بالتأكيد أمر خارق للعادة. ألم تسمعي الطلقات الثلاث التي سمعتها القرية بأكملها؟

- لم أسمع الطلقات.

- ولم تشهدي أي حادثة وقعت قُرْب البئر؟

- لم تقع أي حادثة قُرْب البئر؛ كما أكد چيروم ينال.

- إذن ماذا حدث لزوجكِ؟

- لا أعلم.

- كما ترين يا سيدتي، عليكِ مساعدة العدالة وأن تمنحينا على الأقل تخميناتك بشأن ما حدث. هل تعتقدين أن حادثة ما قد وقعت، وأن السيد دو جورن، الذي قال والده إنه شرب أكثر مما اعتاد من الخمر، ربما فقد توازُنه وسقط في البئر؟

- عندما عاد زوجي إلى المنزل من منزل والده، لم يكُن في حالة سُكْر على الإطلاق.

- لكن والده أدلى بعكس ذلك. قال إنه شرب مع ابنه زجاجتي نبيذ أو ربما ثلاثًا.

- أخطأ والده.

- لكن الثلوج لا تُخطئ يا سيدتي. قالها النائب بغيظ، وأكمل: وكذلك آثار الأقدام.

- عاد زوجي إلى المنزل في الثامنة والنصف مساءً، قبل هطول الثلوج.

ضرب النائب قبضته غاضبًا: لكن يا سيدتي أنتِ تتحدثين عكس الأدلة! الثلج هو الورقة المحايدة! إنكِ في تناقُص مع شيء لا يمكن نفيه، أعترف بذلك! لكن هذه، تلك آثار في الثلج.. في الثلج..

ضبط أعصابه.

وقفت السيارة أمام النوافذ. اتخذ النائب قراره، وقال لناتالي: ستكونين على استعداد للمثول أمام العدالة يا سيدتي، والانتظار داخل هذا القصر..

وأومأ إلى العميد أن يأخذ چيروم ينال إلى السيارة.

فرَّق الجمع العاشقين. بمجرد أن التئم شملهما أصبحا مضطرين للانفصال مجددًا والكفاح ضد أكثر الاتهامات إثارةً للقلق.

اتخذ چيروم خطوة نحو ناتالي. تبادلا نظرات طويلة ومؤلمة. ثم انحنى لها وتوجه إلى الباب في أثر العميد.

توقف! صاح صوت. توقف أيها العميد! توقف چيروم ينال، لا تتحرك!

فوجئ النائب ورفع رأسه، وكذلك الآخرون. جاء الصوت من سقيفة الغرفة. فُتِحت عين الثور. أومأ رنين: أرجو أن تنصتوا إليَّ! لديَّ عدة نقاط أود توضيحها.. واحدة تخص تعرُّج آثار الأقدام.. الحل كَله هنا.. ماتياس لم يسكر.. لم يسكر..

استعد ليخرج من الكوة نحو الغرفة، بينما استدار ليقول لأورتِنس التي ألجمتها الصدمة: لا تتحركي يا صديقتي العزيزة.. لا داعي أن تنزعجي بتلك الأمور.

وسقط عبر الكوة إلى الغرفة. بدا النائب في حيرة من أمره: لكن يا سيدي، مِن أين جئت؟ ومَن أنت؟

هندم رنين ملابسه المغبرة، وأجاب: عذرًا يا سيدي النائب، لكنني كنت في عَجلة من أمري. علاوة على ذلَك، لو دلفت من الباب عوضًا عن السقوط من السقف؛ لفقدت كلماتي الكثير من تأثيرها.

دنا منه النائب غاضبًا: مَن أنت؟

- الأمير رِنين. تابعت التحقيق الذي أجراه العميد هذا الصباح. أليس كذلك أيها العميد؟ مذاك كنت أبحث وأستَفسر عن الأمر. كنت حريصًا على حضور التحقيق؛ لذا التجأت لتلك السقيفة المعزولة..

- كُنت هنا! يا لك من جريء!

- يجب أن نملك كل الجرأة حين يتعلق الأمر بالحقيقة. لو لم أكُن هناك، لما لاحظت بدقة الخيط الرفيع الذي فقدته.

لم أكُن لأعرف أن ماتياس دو جورن لم يعُد سكيرًا. هذا هو حل اللغز. حينما تعرف تلك المعلومة، تعرف بعدها الحقيقة.

شعر النائب أنه في موقف سخيف. ولأنه لم يتخذ الإجراءات الكافية لمراعاة سرية تحقيقه، خجل أن يتخذ إجراءات ضد هذا الدخيل، قال: دعونا ننتهي من هذا الأمر. ماذا تريد؟

- دقائق قليلة من الانتباه.

- لماذا؟

- لأؤكد براءة السيد ينال والسيدة دو جورن.

كان يتحدث بهذا الهدوء المعتاد، اللامبالاة الغريبة التي اعتادها في لحظات العمل، والتي تصيبه حين تصبح حل المسألة في يده وحده. ارتجفت أورتِنس، اجتاحها إيمان فوري.

همست لنفسها: لقد أُنقِذوا. توسلت إليه أن يحمي هذه المرأة وينقذها من السجن والبؤس.

لا بد أن چيروم وناتالي راودهما نفس شعور الأمل المفاجئ؛ لأنهما تقدَّما نحو بعضهما البعض، كما لو أن هذا الغريب، الذي هبط من السماء، قد منحهما الحق لتتعانق أيديهما.

هز النائب كتفيه.

- هذه البراءة، سيكون لدى التحقيق كل الوسائل الممكنة لإثباتها، عندما يحين الوقت المناسب. سيتم استدعاؤك.

- سيكون من الأفضل إثباتها على الفور. يمكن أن يؤدي التأخير لعواقب وخيمة ومؤسفة.

- أنا في عَجلة من أمري..

- تكفيني دقيقتان أو ثلاث على الأكثر.

- دقيقتان أو ثلاث لتحل تلك المسألة العويصة؟!

- تكفيني.

- أنت تعرف الحل إذن عن ظهر قلب؟

- الآن، نعم أعرفه. كان لديَّ الكثير من الوقت منذ الصباح لأستغله في التفكير.

فهم النائب أن هذا الرجل لن يتركه، وأن عليه فقط أن يستسلم أمامه. بنبرة مازحة إلى حد ما، قال: هل تسمح لك أفكارك بإخبارنا أين السيد ماتياس دو جورن في الوقت الحالي؟

سحب رِنين ساعته، وقال: في باريس، سيدي النائب.

- باريس؟ إذن هو على قيد الحياة؟

- على قيد الحياة، وفي صحة ممتازة.

- هذا يُسعِدني. لكن كيف تُفسِّر خطوات الأقدام حول البئر، ووجود هذا المسدس، والطلقات الثلاث؟

- مشهد تمثيلي، الأمر بسيط.

- حقًّا! تمثيلي؟ ومَن أخرجه؟

- ماتياس دو جورن لا غيره.

- غريب. وما هدفه؟

- ليُلفِّق جريمة قتله للسيد ينال.

سخر النائب: الفرضية بارعة. ما رأيك يا سيد ينال؟

أجاب چيروم: هذه هي الفرضية التي فكرت فيها، سيدي النائب. من المعقول جدًّا أن بعد قتالنا وبعد رحيلي، وضع ماتياس دو جورن خطة جديدة حيث وجدت الكراهية هذه المرة طريقها. كان يحب زوجته ويكرهها. لقد كرهني. سيريد الانتقام.

- هذا الانتقام سيكلفه غاليًا؛ لأنه، وفقًا لأقوالك، كان سيتلقى منك ستين ألف فرنك أخرى بعد الطلاق.

- هذا المبلغ سيدي النائب، سيتمكن من تعويضه بطريقة أخرى. كشف لي فحص الوضع المالي لعائلة دو جورن أن الأب والابن مؤمن على حياتيهما. إذا مات الابن يحصل الأب على تعويض، وكذلك إذا مات الأب.

قال النائب مبتسمًا: إذن مع هذه الفرضية نفترض أن دو جورن الأب متواطئ مع ولده.

قال رِنين حينها: بالضبط سيدي النائب. الأب والابن متواطئان.

- إذن سنعثر على الابن في منزل أبيه؟

- كان من الممكن أن نعثر عليه ليلة أمس.

- وماذا حدث بعدها؟

- استقل القطار إلى بومبيجانت.

- كُل تلك تخمينات!

- يقين.

- يقين تخمينات، لكنك لا تملك أدنى دليل، اعترِف بذلك...

لم ينتظر النائب إجابة السؤال المطروح. لقد أظهر حُسْن نية مفرطة، لصبره حدود، فوضع حدًّا للشهادة.

كرر: ليس لديك أدنى دليل. وقبل كل شيء.. قبل كل شيء، كلماتك تتناقض مع هذا الشاهد العنيد: الثلج. كيف خرج السيد ماتياس دو جورن من هنا ليذهب إلى منزل والده؟ أين الآثار؟

- بربك. أخبرك السيد □ينال. عبر المسار الذي يربط بين القصر ومنزل والده.

- لا آثار على الثلج.

- نعم.

- الآثار تُظهِر أنه جاء إلى هنا ولم يغادر.

- الأمر سيان.

- كيف؟

- لا تُوجَد طريقة واحدة فقط للمشي. أنت لا تمشي دائمًا إلى الأمام.

- بأي طريقة أخرى يمكن أن يسير المرء؟

- عكسيًّا يا سيدي المحقق.

تلك الكلمات القليلة التي لفظها رِنين ببساطة، وبنبرة مفصلة وواضحة، أثارت صمتًا كبيرًا. للوهلة الأولى، فهم الجميع معناها العميق، وتكييفها مع الواقع، رأوا ومضة الحقيقة والتي بدت فجأة أكثر الأشياء منطقية.

أصر رِنين وسار إلى الوراء نحو النافذة قائلًا: إذا أردت الاقتراب من تلك النافذة، فمن الواضح أنه يمكنني المشي إليها مباشرة، لكنني قد أدير ظهري لها وأسير إلى الوراء. في كلتا الحالتين، يتم تحقيق الهدف.

وفي الحال استأنف حديثه بقوة: اسمحوا لي أن أُلخِّص الأمر. في الساعة الثامنة والنصف، قبل حلول الظلام، جاء السيد دو جورن من منزل والده؛ لذلك لم يكُن هناك آثار لقدوم؛ لأن الثلج لم يسقط قبل التاسعة. من التاسعة إلى العاشرة جاء السيد □ينال، دون أي آثار لوصوله. تحدَّث الرجلان. أبرما العقد. تقاتلا. هُزِم ماتياس دو جورن. مرت ثلاث ساعات. وبعد ذلك، بعد أن اختطف السيد □ينال السيدة دو جورن وهرب، نهض ماتياس دو جورن غاضبًا، ولكن فجأة خطرت في ذهنه أفظع طُرُق الانتقام، الفكرة العبقرية المتمثلة في استغلال ذلك الثلج ضد عدوه، الثلج الذي نعتمد عليه شاهدًا الآن، والذي هطل لمدة ثلاث ساعات؛ لذلك نظَّم عملية قتله، أو بالأحرى لفّق عملية قتله وسقوطه في قاع البئر. وتحرك إلى الوراء، خطوة بخطوة، يكتب على الصفحة البيضاء آثار وصوله التي كانت في

الحقيقة آثار رحيله. اسمح لي أن أكرر سيدي البديل يكتب على الصفحة البيضاء آثار وصوله التي كانت في الحقيقة آثار رحيله.

توقف النائب عن الضحك. هذا الغريب، بدا له فجأة شخصية تستحق الاهتمام، من غير المناسب السخرية منها.

سأله: وكيف غادر من منزل والده؟

- بسيطة.. بالسيارة.

- مَن قادها؟

- أبوه.

- كيف تعرف ذلك؟

- هذا الصباح، رأيت أنا والعميد السيارة، وتحدَّثنا إلى الأب قبل رحيله، كالعادة إلى السوق. كان الابن مستلقيًا تحت القماش المُرقَّع. استقل القطار إلى بومبيجانت. هو الآن في باريس.

كما وعد، لم يستغرق شرح رِنين أكثر من خمس دقائق. لقد أسند تفسيراته على المنطق والمعقولية. وبذلك حلّ اللغز العنيد الذي حاروا له. تبدد الظلام. ظهرت الحقيقة كاملة. بكت السيد دو جورن من الفرح. انحنى چيروم □ينال ليشكر العبقري الذي غيَّر مجرى الأحداث بحركة من عصاه السحرية.

- دعونا ننظر إلى هذه الآثار معًا، لنفعل سيدي النائب؟ استأنف رِنين حديثه: الخطأ الذي ارتكبته أنا والعميد هذا الصباح هو الاقتصار على التعامل مع آثار الأقدام التي خلَّفها ما يُسمَّى بالقاتل، وإهمال آثار أقدام ماتياس دو جورن. لماذا لفتت انتباهنا؟ الآن على وجه التحديد، أصبح جوهر القضية برمتها حاضرًا.

خرجوا إلى البستان واقتربوا من المسار. لم يستغرق الأمر فحصًا طويلًا ليجدوا أن العديد من الآثار متعثرة، تغوص جدًّا داخل الثلج، تظهر فيها القدمان متباعدتين.

قال رِنين: كان ماتياس دو جورن يحتاج لتدريب حقيقي لتتوافق آثار أقدامه مع مظهر السائر الطبيعي. ولا بد أنه ووالده شعرا بذلك، على الأقل فيما يتعلق بتعرُّج سيره الذي يمكننا رؤيته؛ لأن والد دو جورن كان حريصًا على تحذير العميد أن ابنه قد شرب الكثير من النبيذ ليلة أمس.

وأضاف رِنين: الكشف عن هذه الكذبة هو الذي ساعدني. عندما أكدت السيدة دو جورن أن زوجها لم يكُن في حالة سُكْر، فكرت في آثار الأقدام، وخمنت الأمر.

أمسك النائب بطرف الحديث، وقال ضاحكًا: لم يتبقَّ سوى أن نرسل المحققين ليبحثوا عن هذا الميت المزيف.

قال رِنين: بأي تهمة سيدي النائب؟ لم يرتكب ماتياس دو جورن أي جريمة. السير حول البئر، وضْع مسدس لا يخصه في مكان قريب من البئر، إطلاق ثلاث طلقات، الذهاب إلى منزل والده وهو يسير

عكسيًّا، لا يُوجَد شيء يمكن إدانته. ماذا يمكننا أن نطلب منه؟ الستين ألف فرنك؟ أفترض أن هذا ليس غرض السيد ينال، وأنه لن يُقدِّم أي شكاوى؟

قال چيروم: بالتأكيد لا.

- إذن بماذا يمكننا إدانته، التأمين لصالح الأب؟ لن تكون جريمة إلّا إذا طالب الأب بمبلغ التأمين. وهذا من شأنه أن يفاجئني كثيرًا. آه! ها هو ذا. الرجل العجوز. دعنا ننصت إليه دون مزيد من التأخير.

كان العجوز دو جورن قد وصل بالفعل. تجعد وجهه في محاولة للتعبير عن الحزن والغضب، وقال: ولدي؟ يبدو أنه قتله.. ماتياس المسكين مات! آه! هذا اللص ينال!

ورفع قبضته نحو چيروم. قال النائب فجأة: لديَّ كلمة يا سيد دو جورن، هل تنوي المطالبة بحقوقك في تأمين ما بعد الوفاة؟

قال العجوز: بالطبع.

- في الحقيقة ابنك لم يمُت. يُقال إنك تواطأت معه في خدعته الصغيرة، وقمت بتهريبه في سيارتك وأخذته إلى المحطة.

بصق الرجل على الأرض، ورفع يده كما لو كان سيؤدي يمينًا رسميًّا، ووقف للحظة بلا حراك، ثم فجأة، غيَّر رأيه، واستدار بسخرية بارعة، استرخى وجهه، وانفجر ضاحكًا: ماتياس اللعين! لذلك أراد التظاهر بالموت؟ يا له من عبقري! ربما كان يعتمد عليَّ لأحصل على التأمين وأرسِله إليه؟ كما لو كنت قادرًا على مواجهة هذه الفوضى! أنت لا تعرفني يا صغيري..

ودون مزيد كلام خرج مفعمًا بالحيوية ومستمتعًا بالقصة المسلية. ابتعد، وهو حريص على أن يطأ بحذائه الكبير كل آثار الأقدام التي تركها ابنه.

في وقت لاحق، عندما عاد رِنين إلى القصر ليقابل أورتِنس لم يجدها.

ذهب إلى ابنة عمها إرملين التي أخبرته أن أورتِنس تعتذر، وأنها متعبة بعض الشيء وتحتاج لقسط ضروري من الراحة.

همس رِنين لنفسه: رائع، كُل شيء على ما يُرام. تتهرب مني لأنها تحبني. الخاتمة تقترب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

الإله عُطارد ([4])

إلى السيدة دانييل، في لا رونسيير..

باسيكور، الثلاثون من نوفمبر / تشرين الثاني..

«صديقتي الأعز..

مر أسبوعان دون رسالة منكِ. لا أتوقع تلقِّي أي رسالة قبل تاريخ الخامس من ديسمبر / كانون الأول حيث حددنا نهاية مغامراتنا، وأتطلع إلى الوصول إلى هذا اليوم حيث سيتم تحريرك من عقد يبدو أنه لم يعُد يحظى بموافقتك. بالنسبة لي، كانت المعارك السبع التي خضناها معًا، وفزنا بها، وقتًا من الفرح والغبطة اللانهائية. عشت بالقرب منكِ. شعرت بكل الخير الذي تفعلينه بوجودكِ النشيط والمؤثر. كنت سعيدًا لدرجة أنني لم أجرؤ على إخباركِ بسعادتي أو السماح لكِ برؤية مشاعري السرية ورغبتي في إرضائك وتفانيَّ العاطفي لكِ. اليوم يا صديقتي العزيزة، أصبحتِ غير راغبة فيَّ رفيقًا في المغامرة. فلتكُن مشيئتكِ!

لكن إذا خنعت لهذا الحُكْم، هل تسمحين لي بتذكيركِ كيف كنت أعتقد دائمًا أن مغامرتنا الأخيرة ستكون، وماذا سيكون الهدف من جهدنا الأسمى؟ هل تسمحين لي أن أكرر كلماتكِ، التي لم يتلاشَ أيٌّ منها منذ ذلك الحين من ذاكرتي؟

قُلتِ: أناشدك أن تعيد لي دبوس صدر قديمًا من العقيق. حصلت عليه من والدتي، ولم يكُن أحد يجهل أنه جلب لها حظًا سعيدًا، وكذلك جلب لي الحظ السعيد. منذ اختفى من الصندوق الذي حفظته داخله، وأنا غير سعيدة. أعِده لي أيها العبقري.

وعندما سألتكِ عن وقت اختفائه قُلتِ ضاحكة: منذ ست أو سبع سنوات، أو ثمانٍ.. لست متأكدة.. ولا أعرف كيف اختفى.. أجهل كُل شيء..

كان تحديًا ألقيتِه على عاتقي، أليس كذلك؟ وطلبتِه مني حتى يكون من المستحيل عليَّ تحقيقه. مع ذلك، فقد وعدتكِ وعدًا وأود أن أفي به. قد أرى الدبوس عديم الفائدة، ولكن إذا كان فقدانه يؤثر على سلامتكِ، فدعينا لا نضحك على هذه الخرافات الصغيرة. غالبًا ما تكون أفضل اعتقاداتنا.

صديقتي العزيزة، إذا ساعدتِني مرة أخرى سيكون النصر حليفنا. وحيدًا، ومضغوطًا بسبب دنو التاريخ، سأفشل. الأمور تتغير كثيرًا في شراكتكِ، إذا كنتِ ترغبين في الاستمرار في تلك الشراكة إلى جانبي، ستكون فرص نجاحنا أكبر.

وستستمر شراكتنا، أليس كذلك؟ لقد قطعنا على أنفسنا وعدًا يجب أن نحترمه. في وقت معين، يجب أن نكتب في كتاب حياتنا ثماني قصص جميلة، حيث سنكتب عن الحماس والمنطق والمثابرة وبعض

الدقة وأحيانًا القليل من البطولة. ها هي القصة الثامنة. الأمر متروك لكِ. يمكننا أن نعيش القصة الثامنة قبل الخامس من ديسمبر في تمام الثامنة مساءً.

وفي ذلك اليوم سنتصرف بالطريقة التي سأُطلِعكِ عليها الآن.

بادئ ذي بدء - وقبل كل شيء، يا صديقتي، لا تعتبري تعليماتي خيالية، كل واحد منها شرط لا غِنى عنه للنجاح - ستقطعين من حديقة قريبتكِ، حيث رأيتها هناك بالفعل، ثلاث قصبات رفيعة، وستربطينها من كلا الطرفين؛ لتصنعي دبوسًا صغيرًا، مثلما يفعل الصغار.

في باريس، ستشترين قلادة من الأحجار الدائرية، وسوف تقصرينها بحيث تتكون من خمسة وسبعين حجرًا، متساوين تقريبًا.

تحت معطفك الشتوي، سترتدين فستانًا من الصوف الأزرق. وقبعة مزينة بأوراق الشجر الحمراء. على عنقكِ ستضعين قلادة من ريش الديك. لا قفازات. لا أقراط.

بعد الظهيرة، سيتم نقلكِ، على الضفة اليسرى، إلى كنيسة سانت إتيان دو مونت. في تمام الساعة الرابعة، سيكون هناك، أمام مذبح هذه الكنيسة، امرأة عجوز ترتدي ملابس سوداء، تُمسِك بمسبحة فضية. سوف تُقدِّم لكِ الماء المقدس. أعطيها قلادتكِ، ستعد عدد الأحجار وتعيدها. بعد ذلك، سِيري خلفها، وسوف تعبر ذراع نهر السين، وتقودكِ إلى شارع مهجور في جزيرة سانت لويس، أمام منزل ستدخلينه بمفردكِ.

في الطابق الأرضي من هذا المنزل ستجدين رجلًا لا يزال شابًّا، ذا بشرة شاحبة للغاية، ستقولين له، بعد خلع معطفكِ: أنا قادمة للحصول على دبوس الصدر خاصتي.

لا تتفاجئي من ارتباكه أو رهبته. ابقي هادئة في حضوره. إذا سألكِ، إذا أراد أن يعرف لماذا تخاطبينه، ما الذي جعلك تُقدِّمين هذا الطلب، فلا تُقدِّمين أي تفسير. يجب تلخيص جميع إجاباتكِ في هذه الصيغ القصيرة: جئت لأبحث عما يخصني. أنا لا أعرفك، لا أعرف اسمك، لكن من المستحيل بالنسبة لي أن أتصرف معك بطريقة أخرى. يجب أن أحصل على ضالتي. عليك أن تحضرها.

أعتقد أنكِ لو ملكتِ الحزم الكافي في هذا الموقف، مهما كانت الألاعيب التي قد يمارسها هذا الرجل، فإنكِ ستنجحين تمام النجاح. لكن الجدال يجب أن يكون قصيرًا، والنتيجة تعتمد فقط على ثقتكِ بنفسكِ ويقينكِ بالنجاح.

الأمر أشبه بنزال، عليكِ أن تهزمي خصمكِ في الجولة الأولى. ستهزمينه إذا لم تتأثري بالمشاعر. أي تردُّد أو قلق لن تصمدي أمامه. سيستعيد اليد العليا بعد أول لحظة تردُّد وسيضيع كل شيء في غضون بضع دقائق. لا يُوجَد حل وسط: النصر الفوري أو الهزيمة.

في حال هزيمتكِ، ستضطرين لقبول تعاوُني مرة أخرى، وأعتذر عن ذلك. أقدمها لكِ مقدمًا، يا صديقتي، دون قيد أو شرط، وأوضِّح أن كل ما تمكنت من القيام به من أجلكِ، وكل ما سأفعله، لا يعطيني أي حق آخر سوى أن أشكركِ وأن أُكرِّس جهدي أكثر لما هو كل فرحي وكل حياتي».

بعد أن قرأت أورتِنس هذه الرسالة ألقتها على الأرض، وهي تقول: لن أذهب.

أولًا، إذا كانت قد أولت ذات مرة بعض الأهمية لهذه الجوهرة، التي بدت لها أن لها قيمة سحر الحظ، فإنها لم تكُن مهتمة بها اليوم حيث بدت فترة المغامرات قد انتهت عندها. بعد ذلك، لم تستطِع أن تنسى هذا الرقم: ثمانية الذي كان الرقم التسلسلي للمغامرة الجديدة. كان الشروع في ذلك هو استئناف الصلة المقطوعة، والاقتراب من رِنين وإعطاؤه تعهدًا بأنه من خلال خطابه التلميحي سيعرف كيف يستغله.

في اليوم السابق لليوم المحدد ثبتت على رأيها. وكذلك في الليلة السابقة وفي الصباح أيضًا. لكن فجأة، دون الحاجة إلى الصمود أكثر، ركضت إلى الحديقة، وقطعت القصبات الثلاث وضفرتها، كما كانت تفعل في وقت طفولتها، وعند الظهر ذهبت إلى القطار. أثارها الفضول والحماس. لم تستطِع مقاومة كل ما وُعِدت به؛ المغامرة التي قدَّمها رِنين، لم تقاوم المرح والأحاسيس الجديدة. كانت مغرية للغاية. القلادة، قبعة أوراق الخريف، المرأة العجوز مع المسبحة الفضية.. كيف تقاوم نداءات الغموض هذه؟ وكيف تؤجل هذه الفرصة لتُظهِر لرِنين ما هي قادرة على فِعله؟

همست لنفسها وهي تضحك: ثم ماذا؟ إنه يدعوني إلى باريس. ألن ترسلني المغامرة الثامنة بعيدًا عن قلعة آلينجر المهجورة، المكان الوحيد الذي ستدق ساعته المحبوسة هناك في الوقت المحدد؟!

في المساء وصلت إلى باريس. وفي صباح الخامس من ديسمبر، اشترت القلادة، وقصّتها لتكون خمسة وسبعين حجرًا فقط. كانت ترتدي فستانًا أزرق وقبعة حمراء من أوراق شجر الخريف. في الرابعة دخلت إلى كنيسة سانت إتيان دو مونت.

دق قلبها بعنف. هذه المرة كانت وحيدة. شعرت الآن بقوة هذا الدعم الذي تخلت عنه بدافع الخوف الطائش بدلًا من العقل! بحثت حولها؛ على أمل رؤيته. لكن لم يكُن هناك أحد.. لا أحد سوى سيدة عجوز ترتدي ملابس سوداء، تقف بالقرب من المذبح.

سارت أورتنس نحوها. قدَّمت لها السيدة العجوز مسبحة فضية كانت تضغطها بين أصابعها، والماء المقدس، ثم بدأت في عد كرات القلادة التي سلَّمتها أورتِنس إياها، حجرًا تلو آخر.

تمتمت: خمسة وسبعون. حسنًا. تعالَ.

دون كلمة أخرى، هرولت تحت وهج مصابيح الشوارع، وعبرت ضفة السين نحو جزيرة سانت لويس، وسارت شارعًا مهجورًا قادها إلى مفترق طُرُق حيث توقفت أمام منزل قديم به شرفات من الحديد الطيع.

قالت: ادلفي.

ورحلت السيدة العجوز.

رأت أورتنس متجرًا جميلًا احتل الطابق الأرضي بأكمله تقريبًا من المبنى، وكشفت نوافذه المتلألئة بالضوء الكهربائي عن كومة غير منظمة من الأشياء العتيقة والأثاث. وقفت هناك لبضع ثوانٍ، تُحدِّق مشتتة. حملت اللافتة هذه الكلمات «إلى الإله عطارد» واسم التاجر: (بانكاردي). في الأعلى، عند قاعدة الطابق الأول، كان هناك تمثال عطارد مصنوع من الطين يقف على ساق واحدة، والأجنحة

عند قدميه، والصولجان في يده، والذي، كما لاحظت أورتنس، يميل قليلًا إلى الأمام، كان من المنطقي أن يفقد توازُنه ويسقط في الشارع.

قالت لنفسها بصوت خفيض: لنذهب.

أمسكت بمقبض الباب ودلفت.

رُغم الصوت الذي صدر عن ارتطام الباب بالأجراس المُعلَّقة فوقه، لم يظهر أحد. بدا المتجر فارغًا. لكن في النهاية عثرت على غرفة خلفية وغرفة إلى جوارها، كلاهما مليء بالحلي والأثاث، وكثير منها يبدو ذا قيمة كبيرة. سارت أورتِنس في ممر ضيق يتعرج بين جدارين من الخزائن ووحدات الأدراج، وصعدت درجتين لتجد نفسها في الغرفة الأخيرة.

كان هناك رجل جالس أمام مكتب ويتطلع على السجلات.

دون أن يدير رأسه نحوها قال: أنا في خدمتكِ.. ماذا تريدين؟

احتوت هذه الغرفة على أشياء من نوع خاص جعلتها تشبه مختبر بعض الكيميائيين في العصور الوسطى. بوم مُحنط، وهياكل عظمية، والجماجم، وأدوات نحاسية، وأسطرلابات، منتشرة في كُل مكان. وعلى الجدران عُلِّقت تمائم من معتقدات مختلفة تهيمن عليها الكف العاجي والكف المرجاني.

أخيرًا قال السيد بانكاردي وهو يغلق السجلات ويقف: هل تريدين شيئًا على وجه الخصوص يا سيدتي؟

فكرت أورتِنس: «هذا هو بلا شك».

كان لديه، في الواقع، بشرة باهتة بشكل غير عادي. أطال لحيته بضع سنتيمترات فظهرت رمادية، له جبهة عريضة وطويلة، أسفلها تلمع عينان صغيرتان قلقتان ومراوغتان.

أجابت أورتنس، التي لم تخلع قبعتها أو معطفها: أبحث عن دبوس صدر.

قال وهو يعيدها إلى قلب المتجر: هاك واجهة العرض.

ألقت نظرة عليها، وقالت: لا.. لا، ليس هناك ما أريد. ما أريده ليس هذا الدبوس أو ذاك، بل دبوس اختفى ذات مرة من صندوق مجوهرات وجئت إلى هنا للبحث عنه.

لقد ذُهِلت لرؤية اضطراب ملامحه. أصبحت عيناه متعجرفتين.

- هنا؟ لا أعتقد أن لديكِ فرصة لتعثري عليه هنا.. صِفيه لي.

- صُنِع من العقيق، وله إطار بماء الذهب.. صُنِع عام 1830..

تلعثم: لا أفهم.. لماذا تسألينني عنه؟

خلعت قبعتها ومعطفها.

تراجع إلى الخلف كما لو أرعبه ما رآه، همس: الفستان الأزرق.. الدبوس.. آه! هل هذا ممكن؟ القلادة!

ربما رؤيته للدبوس المصنوع من القصبات الثلاث كان له أقوى شعور. مد إصبعه نحوه، وبدأ يترنح، وفي النهاية، تهاوى في الهواء مثل سباح غارق، سقط على كرسي، وفقد وعيه.

أورتنس لم تتحرك. كتب رِنين: «مهما كانت الألاعيب التي سيلعبها حافظي على رباطة جأشكِ». على الرغم من أنه ربما لا يتلاعب، فإنها أجبرت نفسها على الهدوء واللامبالاة.

استمر هذا الوضع دقيقة أو دقيقتين، وبعد ذلك استيقظ السيد بانكاردي من سباته، ومسح العرق الذي غمر جبهته، واستأنف بصوت مرتجف: لماذا جئتِ إليَّ؟

- لأن هذا الدبوس في حوزتك.

- مَن أخبركِ بذلك؟ قالها دون اعتراض على التهمة التي وجهتها له، وأضاف: كيف تعرفين؟

- أعرف، لأنني أعرف. لم يخبرني أحد بشيء. جئت وأنا كُلي ثقة بأنني سأعثر على الدبوس هنا، وبإرادة لا هوادة فيها لأحصل عليه.

- لكنكِ تعرفيني؟ تعرفين اسمي؟

- لا أعرفك. لم أعرف اسمك إلا حين رأيته على واجهة المتجر. أنت بالنسبة لي الشخص الذي سيعيد لي ما يخصني.

كان مضطربًا جدًّا. جاء وذهب في المساحة الصغيرة بين الأثاث المكدس وركله بحماقة كادت تُسقِطه.

شعرت أورتِنس أنها تتحكم فيه واستغلت كربه. أمرته فجأة بنبرة تهديد: أين هذا الغرض؟ عليك أن تعيده لي، أطالبك بذلك.

أصاب بانكاردي لحظة يأس. شبَّك يديه وتمتم بكلمات دعاء. ثم، انهار، استسلم فجأة وقال بتفصيل: أنتِ تطالبين بها؟

- أريدها، هذا أكيد..

- نعم، نعم، أوافقكِ على ذلك..

أمرته بقسوة أشد: تحدَّث!

- لن أتحدث. لكن سأكتب.. سأكتب لكِ سري.. وسينتهي كُل شيء بالنسبة لي.

عاد إلى مكتبه وخط بحرارة بضعة أسطر على ورقة أخفاها.

قال: هاك.. هذا سري.. هذه حياتي كُلها..

وفي الوقت نفسه حمل مسدسًا كان تحت كومة من الأوراق وأطلقه.

في حركة سريعة أمسكت أورتِنس بذراعه. اخترقت الرصاصة مرآة دائرية مُعلقة على إطار خشبي مستطيل. لكن بانكاردي سقط وبدأ يئن كما لو كان قد أُصِيب.

بذلت أورتِنس جهدًا كبيرًا كي لا تفقد أعصابها وتحافظ على رباطة جأشها.

قالت لنفسها: حذرني رِنين. سيفتعل مشهدًا. احتفظ بالظرف. احتفظ بالمسدس. لن أُخدَع.

مع ذلك أدركت أنها حافظت على مظهره الخارجي هادئًا، لكن محاولة الانتحار تلك وهذه الطلقة أصابتها بذهول تام. خارت قواها تمامًا، كان لديها انطباع مؤلم بأن الرجل الذي يجر نفسه عند قدميها يستعيد تدريجيًّا سيطرته عليها.

جلست منهكة. كما تنبأ رِنين، لم يستمر النزال أكثر من بضع دقائق، لكنها هي مَن استسلم؛ بسبب ضعف أعصابها الأنثوية، وفي نفس اللحظة التي يمكن أن تؤمن فيها انتصارها.

لم يكُن السيد بانكاردي مخطئًا، ودون أن يكلف نفسه عناء مزيد من التمثيل، توقف عن أنينه، وقفز، وأشار لأورتِنس لتعود إلى الغرفة الداخلية بطريقة مَرِنة، وصرخ بنبرة مازحة: بالنسبة للحديث الصغير الذي سنجريه، أعتقد أنه من المحرج أن يقاطعنا ولوج أول زبون، أليس كذلك؟

ركض إلى الباب الأمامي، وبعد أن فتحه، وأنزل الباب الحديدي الخارجي. ثم، عاد قافزًا وانضم إلى أورتِنس: يا إلهي! اعتقدت أنني كنت هناك. لو بذلتِ مزيد جهد يا سيدتي لفزتِ في المعركة. لكن، أنا كُنت ساذج بدوري. بدا لي أنكِ قادمة من أعماق الماضي، مثل مبعوث العناية الإلهية، للمطالبة بالمساءلة، وبحماقة كنت سأرضخ.. آه! آنسة أورِتنس - دعيني أدعوكِ بذلك، هكذا عرفتكِ - آنسة أورتنس، أنتِ تفتقرين إلى قوة الشكيمة، كما يقولون.

جلس بجانبها، وبوجه شرير، قال بشراسة: الآن يتعلق الأمر بالصدق. مَن الذي هندَّس هذه القصة؟ ليس أنتِ، صحيح؟ إنها ليست سماتكِ. إذن مَن؟ في حياتي، كنت دائمًا صادقًا، صادقًا بدقة.. إلا مرة واحدة.. هذا الأمر أساسي. وبينما اعتقدت أن الأمر قد انتهى، ظهرتِ على السطح. كيف؟ أريد أن أعرف.

لم تحاول أورتِنس المقاومة. كان يثقل كاهلها، بقوته وضغينته، بكل التهديد الذي اتضح في إيماءاته الغاضبة ووجهه السخيف الشرير.

- تكلمي! أريد أن أعرف. إذا كان لديَّ عدو سري، دعيني أدافع عن نفسي! مَن هذا العدو؟ مَن دفعكِ؟ مَن ساعدكِ على التصرف؟ هل هو منافس غاضب من حظي ويريد بدوره الاستفادة من دبوس العقيق؟ تكلمي، أريد اسمًا.. أو أُقسِم لكِ باسم الرب...

تخيلت أنه كان يتحرك لاستعادة مسدسه، تراجعت وتحركت في محاولة للهروب.

تقاتلا، كان خوف أورتِنس يتصاعد، لم يُخِفها القتال بقدر ما أخافها وجه مهاجمها الغاضب. صرخت عندما، فجأة، تجمد السيد بانكاردي، ومد ذراعيه للأمام، ونشر أصابعه، وسدد عينيه فوق رأس أورتِنس.

لم تكن أورتِنس في حاجة حتى إلى الالتفاف لتتأكد أن رِنين جاء لينقذها، وأنه سبب الجمود الذي أصاب بانكاردي. في الواقع، ظهر ظِل رِنين من خلف الكراسي والآرائك المكدسة وسار بهدوء.

سأل بانكاردي: مَن أنت؟ مِن أين أتيت؟

قال بلطف وهو يشير إلى السقف: مِن أعلى.

- مِن أعلى؟

- نعم، من الطابق الأول. لقد استأجرت الطابق أعلاه لمدة ثلاثة أشهر. سمعت ضوضاء. كان هناك صرخة تطلب المساعدة؛ لذلك جئت.

- لكن كيف وصلت إلى هنا؟

- عبر الدرج.

- أي درج؟

- الدرج الحديدي الموجود في الجزء الخلفي من المحل. كان سلفك أيضًا مستأجرًا لطابقي، وكان يهبط إلى المتجر مباشرةً من خلال هذا الدرج الداخلي. الباب كان مغلقًا. فتحته.

- ولكن بأي حق يا سيدي؟ هذا اقتحام.

- مرة أخرى، مَن أنت؟

قال رِنين وهو ينحني أمام أورتنس ويُقبِّل يدها: الأمير رِنين.. صديق للسيدة.

شعر بانكاردي باختناق، وتمتم: آه! الآن أفهم.. أنت المحرض على هذه المؤامرة.. أنت الذي أرسل السيدة..

- نعم، سيدي بانكاردي. أنا.

- وما نواياك؟

- بريئة تمامًا. لا أريد العنف. مجرد مقابلة صغيرة، وبعد ذلك سوى تعطيني ما جئت للحصول عليه.

- أي غرض؟

- دبوس العقيق.

قال بائع الأنتيكات بقوة: هذا! مستحيل!

- لا تقُل لا. إنه أمر مفروغ منه.

- لا تُوجَد قوة في العالم، سيدي، يمكن أن تجبرني على فِعل هذا.

- هل تريدنا أن نستدعي زوجتك؟ قد تكون السيدة بانكاردي أكثر وعيًا بالموقف منك.

يبدو أن فكرة عدم البقاء وحيدًا في وجود هذا الخصم غير المتوقع تَرضِي بانكاردي. كان هناك جرس بالقرب منه. ضغط على الجرس ثلاث مرات.

قال رِنين: ممتاز! كما ترى، صديقتي العزيزة، سيد بانكاردي لطيف للغاية. لا شيء أكثر من الشيطَان الهائج الذي أرهبك الآن.. لا، يكفي أن يكون السيد بانكاردي أمام رجل لاستعادة صفاته من المجاملة والالتزام. خروف حقيقي! هذا لا يعني أن الأمور ستسير من تلقاء نفسها. بعيدًا عن ذلك! لا شيء أكثر عندًا من الخروف..

في نهاية المتجر، بين مكتب تاجر التحف والدرج الدوار، رُفِعت ستارة، فظهر ممر بداخله امرأة. ربما كانت في الثلاثينيات من عمرها. كانت ترتدي ملابس بسيطة للغاية، بدت، مع مئزرها، طباخة أكثر من كونها مديرة. لكن وجهه كان متعاطفًا مع الأحداث.

أورتِنس، التي تبعت رِنين، كانت مندهشة جدًّا عندما رأتها. عرفت أنها خادمة كانت في خدمتها ذات يوم حين كانت فتاة صغيرة: كيف! هذه أنتِ لوسيان؟ أنتِ زوجة بانكاردي؟

نظرت لها السيدة بانكاردي وتعرفت إليها، بدت محرجة.

قال لها رِنين: أنا وزوجكِ بحاجة إليكِ، يا سيدة بانكاردي؛ لإنهاء مسألة معقدة إلى حد ما.. قضية لعبت فيها دورًا مهمًّا..

تقدمت، دون كلمة، والقلق واضح عليها، وقالت لزوجها، الذي لم يرفع عينيه عنها: ما الأمر؟ ماذا يريدون مني؟ ما هذه المسألة؟

بصوت خافض قال بانكاردي بكلمات مفصلة: الدبوس.. دبوس العقيق..

لم يستغرق الأمر أكثر من ذلك لكي ترى السيدة بانكاردي الوضع بكل خطورتها؛ لذلك لم تحاول ممارسة أي حيل أو طرح الاحتجاجات غير المجدية. جلست على كرسي، تنهدت: آه! حسنًا.. اسمحوا لي أن أشرح.. وجدت الآنسة أورتنس الحقيقة.. آه! نحن ضائعون!

كانت هناك لحظة هدوء. لم يكَد الصراع يبدأ بين الخصوم حتى اتخذ الزوج والزوجة موقف المهزوم الذي كان يأمل فقط في عفو المنتصر. بلا حراك، بدأت في البكاء. قال رِنين: دعونا نضع الأمور في نصابها الصحيح، أليس كذلك يا سيدتي؟ سنرى بشكل أكثر وضوحًا وأنَا متأكد من أن مقابلتنا ستجد حلها الطبيعي. قبل تسع سنوات، في أثناء خدمتك مع الآنسة أورتنس، قابلت السيد بانكاردي، الذي سرعان ما أصبح حبيبك. كنتما من كورسيكا؛ أي من بلد حيث الخرافات مؤمن بها، حيث تؤثر مسألة الحظ والحظ السيئ بشكل عميق على حياة الجميع. ومع ذلك، فقد ثبت أن دبوس العقيق الذي تملكه سيدتك كان دائمًا يجلب الحظ لأولئك الذين يمتلكونه. لهذا السبب، في لحظة فشل، بتحفيز من السيد بانكاردي، سرقتِ هذه الجوهرة. بعد ستة أشهر، تركتِ عملكِ وأصبحتِ السيدة بانكاردي. هذا كل شيء، مُلخَّصًا في بضع جمل، مغامرتكِ بأكملها، أليس كذلك؟ المغامرة الكاملة لشخصيتين كانتا ستظلان صادقتين إذا كانتا قادرتين على مقاومة هذا الإغراء المؤقت.

وغني عن القول، أن نجاحكما كان قائمًا على دبوس الحظ الذي تؤمنان بفضيلته وتثقان به. دفعتما بأنفسكما إلى طليعة تجار التحف القديمة. اليوم، أصبحتما أغنياء وأصحاب متجر (الإله عطارد)، أنتما تغزوان أعمالًا بفضل هذا الدبوس. وفقدانه، بالنسبة لكما، سيكون خرابًا وبؤسًا. حياتكما كلها تتركز عليه. إنه المعبود. إنه الإله الخاص بكما الذي يحميكما ويُقدِّم لكما المشورة. إنه موجود، في مكان ما، مختبئ تحت هذه الفوضى، من الواضح أن أحدًا لم يكُن ليشك في أي شيء (لأنني أكرر، باستثناء هذا الخطأ، أنتم أناس طيبون) لولا لم تقُدني الصدفة إلى الاهتمام بعملكما.

صمت رنين قليلًا، ثم استأنف حديثه: قبل شهرين. شهرين من التحقيقات الدقيقة، والتي كانت سهلة بالنسبة لَي منذ ذلك الحين، بعد أن وجدت أثركِ، استأجرت دور الميزانين في الأعلى ويمكنني استخدام هذا الدرج. ولكن لا يزال الشهران ضائعين إلى حد ما؛ لأنني لم أنجح بعد. والله يعلم أنني لم أضر بمتجركِ! لم أفسِد قطعة أثاث واحدة. لا بلاطة باركيه واحدة كسِرت. لا شيء. لكنني توصلت لاكتشاف عرضي. في خزانة سرية في مكتبك، يا بانكاردي، وجدت سجلًا صغيرًا حيث كتبت فيه ندمك، ومخاوفك، وخوفك من العقاب، وخوفك من الغضب الإلهي.

تهوُّر كبير، يا بانكاردي. هل نكتب مثل هذه الاعترافات؟ وقبل كل شيء، هل نتركها للعلن؟ مهما كان الأمر، قرأتها، ولاحظت فيها هذه الجملة، التي لم تفلت مني أهميتها، والتي استخدمتها لإعداد خطتي للهجوم:

دعها تأتي إليَّ تلك التي جردتها مما تملك، دعها تأتي إليَّ كما رأيتها في حديقتها حين أخذت لوسيان الجوهرة. دعها تظهر لي، مرتدية الفستان الأزرق، مرتدية قبعة أوراق الشجر الحمراء، مع قلادة ذات كرات سوداء وسوط مُقصَّب كانت ترتديه في ذلك اليوم! دعها تظهر لي هكذا، وتقول لي: «جئت لأطالبك بما يخصني». عندها سأفهم أن الله هو الذي يلهمها هذه الخطوة، وأنه يجب عليَّ أن أطيع أوامر العناية الإلهية.

هذا ما هو مكتوب في مذكراتك يا بانكاردي، وما يفسر تصرفات الآنسة أورتِنس، وفقًا لتعليماتي، ووفقًا لما تخيلته بنفسك، قد جاءت إليك، من أعماق الماضي - إنه تعبيرك الخاص. لو تحلت بمزيد من رباطة جأش تعلم أنها كانت ستفوز بالمباراة. لسوء الحظ، أنت تمارس ألاعيبك بشكل رائع، وقد أربكتها محاولتك الانتحارية، وفهمت أنها ليست مبعوثة الرب ولكن ببساطة ضحيتك السابقة؛ لذلك كل ما كان عليَّ فِعله هو التدخل. ها أنا ذا، والآن دعونا نختتم الأمر: أين دبوس العقيق؟

أكدت المرأة: لا أعرف أين هو.

- حسنًا. لننتقل للخطة البديلة. السيدة بانكاردي، لديكِ ابن ذو سبع سنوات، تحبينه من كل قلبك. اليوم، الخميس، كما هو الحال في كل خميس، يجب أن يعود بمفرده من منزل عمته. اثنان من أصدقائي ينتظرانه على الطريق، وما لم أمُر بخلاف ذلك، سيختطفانه.

على الفور أصاب الذعر السيدة بانكاردي.

- ابني! لا! أرجوك.. لا، ليس ابني.. أُقسِم لك إنني لا أعرف شيئًا عن الدبوس. لم يثق بي زوجي قط في هذا الأمر.

أضاف رِنين: الخطة الثانية: اعتبارًا من مساء اليوم، ستَقدم شكوى إلى مكتب المدعي العام. العواقب: الإجراءات القانونية، البحث، التحقيق، إلخ.

كان بانكاردي صامتًا. يبدو أن كل هذه التهديدات لم تؤثر فيه. وأنه، محمي بتميمته، يعتقد أنه غير مُعرَّض للخطر. لكن زوجته ألقت بنفسها عند قدمَي رِنين، وهي تتلعثم: لا.. لا، أتوسل إليك، ستُعرِّضنا للسجن، لا أريد ذلك.. وهناك ابني.. لا! أتوسل إلَيك..

أورتِنس التي شعرت بالأسف لحالة المرأة تنحت برِنين جانبًا، وقالت: يا لها من امرأة مسكينة! اعفُ عنها.

- اهدئي، قالها رِنين وهو يضحك، وأضاف: لن يُمَس ابنها أبدًا.

- ولكن ماذا عن صديقيكِ؟

- محض خيال.

- والشكوى إلى مكتب المدعي العام؟

- تهديد.

- إذن ما الذي تبحث عنه؟

- لإخافتهم، لإخراجهم عن شعورهم؛ على أمل أن تفلت منهم كلمة، كلمة تُعلِمني بشيء. لقد جربنا كل الوسائل. هذا فقط ما يتبقى لنا، وهي وسيلة تحالفني دائمًا تقريبًا، تذكرين مغامراتنا.

- لكن ماذا لو لم يعترفوا بما تريد؟

قال رِنين بصوت مكتوم: يُفضَّل أن يفعلوا، علينا أن نضع حدًّا للأمر. الوقت ينفد منا.

التقت عيناه بعيني الشابة، احمرت خجلًا من فكرة أن الساعة التي يشير إليها هي الثامنة، وأنه ليس لديه غرض آخر سوى إنهاء المغامرة قبل أن تدق هذه الساعة الثامنة.

قال رِنين للزوجين: إذن، من ناحية، أنتما تخاطران باختطاف طفلكما وسجنكما.. سجنكما المؤكد؛ لأن مذكرات بانكاردي تضم اعترافاته. والآن، من ناحية أُخرى، ها هو عرضي. مقابل الدبوس أدفع لكما عشرين ألف فرنك. الأمر لا يستحق التفكير.

لم يجيبا. بكت السيدة بانكاردي.

كرر رِنين حديثه: سأضاعف المبلغ.. حسنًا ثلاثة أضعافه.. اللعنة، أنت شديد التطلب بانكاردي.. عليَّ أن أضَع رقمًا أكبر؟ مئة ألف فرنك.

مد يده كما لو أنه ليس هناك مجال للشك بعد ذلك في أن بانكاردي سيعطيه الجوهرة.

تحدثت السيدة بانكاردي متلعثمة وبغضب شديد لزوجها: لتعترف! تحدَّث! أين أخفيته؟ حسنًا، ماذا، لن تتحدث؟ لو لم تفعل، سيحل علينا الخراب.. البؤس.. وماذا عن ابننا؟! تحدَّث..

تمتمت أورِتنس: رِنين هذا جنون، الجوهرة لا قيمة لها.

قال رِنين: لا شيء يدعو للخوف. لن يقبل. لكن انظري إليه.. يا لها من حالة توتُّر أصابته! هذا بالضبَط ما أردته! هذا مثير.. أُخرِج الناس عن شعورهم! أسلِبهم سيطرتهم على ما يفكرون وما يقولون! وفي هذا الاضطراب، تضرِبهم العاصفة. في لحظة ما سيرى أن مئة ألف فرنك مقابل حجر لا قيمة له أمر يستحق.. وإما سيُسجَن، يكفي أن يرفع رأسه ليرى!

في الواقع، كان الرجل في غاية التوتر، وارتجفت شفتاه وسال القليل من لعابه. يمكن للمرء أن يخمن اضطراب كيانه كله الذي اهتز بمشاعر متناقضة، بالمخاوف والشهوات. انفجر فجأة، وكان من السهل حقًّا إدراك أن كلماته كانت تخرج بشكل عشوائي، ودون أن يكون لديه أي وعي بما يقوله: مئة ألف! مئتا ألف! خمسمئة ألف! مليون! لا يهمني! الملايين؟ ما فائدة الملايين؟ نحن نخسرها. تختفي.. تطير بعيدًا.. هناك شيء واحد فقط مهم، الحظ الذي إما أن يكون معك أو ضدك. وكان الحظ حليفي لتسع سنوات. لم يخنني أبدًا، وتريد مني أن أخونه؟ لأي سبب؟ بدافع الخوف؟ سجن؟ ابني؟ لغو! لن يحدث لي شيء سيئ طالما أجبرت الحظ ليكون حليفي. إنه خادمي وصديقي.. وهو مرتبط بدبوس العقيق. كيف؟ هل أعرف؟ إنه عقيق، بلا شك.. هناك أحجار معجزة تحتوي على السعادة، كما أن البعض الآخر يحتوي على النار، أو الكبريت، أو الذهب..

لم يرفع رِنين عينيه عنه، منتبهًا لأقل الكلمات والإيماءات. كان بائع التحف القديمة يضحك بانفعال، بينما يستعيد ثقة الرجل الذي يشعر بالثقة في نفسه، وسار أمام رِنين، بإيماءات متشنجة، حيث شعر بعزم متزايد. وأردف:

الملايين؟ لا أحتاج إليها يا سيدي العزيز. قطعة الحجر الصغيرة التي أملكها تساوي أكثر من ذلك بكثير. والدليل هو كل المتاعب التي تكابدها لتأخذها مني. آه! آه! أشهُر من البحث، أنت تعترف بذلك بنفسك. أشهُر قلبت فيها كل شيء رأسًا على عقب، بينما أنا، الذي لم يشتبه حتى في بحثك، لم أدافع عنه! الشيء الصغير دافع عن نفسه.. الجوهرة لا تريد أن يتم اكتشافها ولن تريد.. إنها بخير هنا. إنها تدير أعمالًا جيدة ومخلصة ترضيها.. حظ بانكاردي؟ معروف في جميع أنحاء الحي، في جميع متاجر التحف. أصرخ من فوق أسطح المنازل: «أنا محظوظ». حتى إنني كان لديَّ الجرأة لأتبارك بإله الحظ.. عطارد! هو أيضًا يحميني. انظر، أضعه في كل مكان في متجري، الكثير من تماثيل! انظر هناك، على هذه اللوحة، سلسلة كاملة من التماثيل، مثل تلك الموجودة فوق اللافتة، ابتعته من نحات عظيم كان مفلسًا. هل تريد تمثالًا يا سيدي العزيز؟ سوف يجلب لك الحظ أيضًا. اختَر! هدية من بانكاردي لتعويضك عن فشلك! أيزعجك ذلك؟

أسند سلمًا على الحائط، وصعد نحو أحد أرفف الخشب العليا، حمل تمثالًا صغيرًا وهبط به، ثم وضعه بين ذراعَي رِنين. وضحك، زاد حماسه عندما بدا أن العدو يتخلى عنه ويتراجع قبل هجومه الناري، صاح: أحسنتَ! يقبل! وإذا قبل فذلك يعني أن الجميع يوافقون! سيدة بانكاردي، لا تنخدعي. سيعود ابنك، لا خوف من السجن. وداعًا آنسة أورتِنس.. وداعًا سيدي. عندما تريد إلقاء التحية، اطرق ثلاث طرقات على أرضية منزلك. وداعًا.. خذ هديتك.. وقد يُفضِّلك عطارد! وداعًا يا أميري العزيز.. وداعًا يا آنسة أورتنس..

دفعهما نحو الدرج الحديدي، وأخذ بأذرعهما ووجهيهما إلى الباب المنخفض المخفي أعلى هذا الدرج.

أغرب شيء: لم يحتج رِنين. لم يقاوم. سمح أن يقوده هذا الرجل مثل طفل يُقاد إلى عقابه.

بين اللحظة التي قدَّم فيها عرضه لبانكاردي واللحظة التي فيها بانكاردي، المنتصر، بالتمثال الصغير بين ذراعيه، لم تمر خمس دقائق.

تطل غرفة الطعام وغرفة المعيشة في دور الميزانين الذي استأجره رِنين على الشارع. في غرفة الطعام، أُعِدت الطاولة لفردين.

قال رِنين لأورتِنس: عذرًا على هذه الاستعدادات، وفتح لها غرفة المعيشة، ثم أضاف: اعتقدت، على أي حال، أن الأحداث ستسمح لي باستقبالك في نهاية اليوم، وأنه يمكننا تناوُل العشاء معًا. لا ترفضيني، هذه ستكون مغامرتنا الأخيرة.

لم ترفض أروتِنس. الطريقة التي انتهت بها المعركة، والتي كانت مخالفة تمامًا لأي شيء رأته حتى الآن، حيرت أمرها. علاوة على ذلك، لماذا كان ينبغي عليها أن ترفض ما دام شروط الميثاق لم يتم الوفاء بها؟

انسحب رِنين لإعطاء الأوامر لخادمه، وبعد دقيقتين، جاء ليصحب أورتنس إلى الغرفة. كانت الساعة، آنَذاك، السابعة وعدة دقائق.

وُضِعت زهور على الطاولة. وفي المنتصف وقف تمثال لعطارد، هدية السيد بانكاردي.

قال رِنين: أتمنى أن يبارك إله الحظ وجبتنا! بدا مبتهجًا للغاية، وظهر عليه قدر سعادتها بوجودها أمامه.

أضاف: آه! لقد عاملتِني بسوء نية! أغلقت السيدة الباب في وجهي.. توقفت عن الكتابة لي.. حقًّا، يا صديقتي العزيزة، كُنتِ قاسية وعانيتُ بشدة. أيضًا، لا بد أنني استخدمت وسائل رائعة لجذبك. جذبك إغراء الشراكة الأكثر روعة. اعترفي أن رسالتي كانت ذكية بشكل جميل! القصبات الثلاث.. الفستان الأزرق.. كيف تقاومين كل هذا؟! وأضفت بعض الألغاز الأخرى؛ الكرات الخمس والسبعين من القلادة، العجوز مع المسبحة الفضية.. باختصار، فعلت ما يكفي لجعْل الإغراء لا يُقاوَم. لا تلوموني. أردت أن أراك، وكان ذلك اليوم. لقد جئت. شكرًا لكِ.

ثم روى كيف وجد أثر الجوهرة المسروقة: كنتِ متفائلة جدًّا وأنتِ تفرضين هذا الشرط عليَّ أنني لن أستطيع الوفاء به، أليس كذلك؟ أخطأتِ يا صديقتي العزيزة. كان الاختبار، على الأقل في البداية، سهلًا؛ لأنه يعتمد على حقيقة معينة: الحظ السعيد الذي ارتبط بدبوس العقيق. كان يكفي أن أتأكد من وجود أحد في حاشيتك أو خدمك يهتم أدنى اهتمام بالحظ والطلاسم. لاحظت على الفور في قائمة الأشخاص التي تمكنت من الحصول عليها اسم الآنسة لوسيان، هي من مواليد كورسيكا. من هنا كانت نقطة انطلاقي، وبعد ذلك توالت الأحداث.

تفاجأت أورتِنس؛ كيف قبل هزيمته بتلك اللامبالاة، بل أنه تحدَّث كالمنتصر بينما في الواقع هزمه بائع التحف القديمة وسخر منه إلى حد ما؟!

لم تستطِع أن تمنع نفسها من تذكيره بذلك، بل تحدثت بنغمة بدا فيها شيء من خيبة الأمل والإذلال: توالت الأحداث، فليكن. لكن الأحداث مبتورة؛ لأنه في النهاية، إذا كنت تعرف اللص، فأنت لم تتمكن من وضع يديك على الغرض المسروق.

كان التوبيخ واضحًا. لم تعتَد الفشل مع رِنين. وكانت غاضبة لرؤيته يستسلم بتلك الطريقة المهملة. لقد دمر الآمال التي كانت تتصورها.

لم يُجِب. كان قد ملأ كأسين بالشمبانيا، وأخذ يرتشف إحداهما ببطء، وعيناه مثبتتان على تمثال الإله عطارد. قام بتدويره على قاعدته، مثل المسافر الذي يبتهج برحلته.

- يا له من شيء مثير للإعجاب ومتناغم! اللون لا يجذبني أكثر من النِّسب والتماثل. وكذلك، يا صديقتي العزيزة، لون عينيك الزرقاوين، لون شعركِ الفاحم، أحبهما، لكن ما يحركني هو وجهكِ المنحوت، ومنحنى رقبتكِ وكتفيكِ. انظري إلى هذا التمثال الصغير. بانكاردي على حق: إنه عمل فنان عظيم. الأرجل رقيقة وعضلاتها بارزة وصلبة، الظل بأكمله يعطي انطباعًا بالزخم والسرعة. تمثال عظيم، هناك خطأ واحد فقط على أي حال. خطأ ربما لم تلاحظيه.

قالت أورتِنس: نعم.. نعم، رأيتها عندما رأيت اللافتة في الخارج. تقصد عدم توازُن التمثال، أليس كذلك؟ الإله يتكئ بصورة واضحة على الساق التي تحمله. يبدو كما لو كان سيسقط إلى الأمام.

قال رِنين: لكِ كُل تقديري. الخطأ غير ملموس، يحتاج لعين خبيرة لتلاحظه. ولكن، في الواقع، ومنطقيًّا، يجب أن يسود وزن الجسم، ومنطقيًّا أيضًا وفقًا لقوانين المادة، يجب أن يميل الإله الصغير للخلف.

بعد برهة صمت أضاف: لقد لاحظت هذا الخلل منذ اليوم الأول. كيف لم أستخلص استنتاجات من هذا إذن؟ لقد صدمني الخطأ الجمالي، بينما كان يجب أن أُصدَم لأننا فشلنا في قانون مادي. كما لو أن الفن والطبيعة لم يُخلَط بينهما! وكما لو أن قوانين الجاذبية يمكن أن تتغير، دون أن يكون هناك سبب رئيس..

سألته أورتِنس: ماذا تقصد؟ كانت مفتونة بهذه الاعتبارات التي وضعها رُغم غرابتها في نظرها، وكررت: ماذا تعني؟

- لا شيء، أنا مندهش فقط لأنني لم أفهم في وقت سابق سبب هذا العيب في عطارد.

- وما سببه؟

- السبب؟ أتخيل أن بانكاردي عبث بالتمثال الصغير ليخدم أغراضه، وحينها أخل بالنحت، فقدان التوازن هذا حدث بسبب شيء يُعِيق الإله الصغير.

- شيء؟

- نعم. في هذه الحالة، كان من الممكن إزالة التمثال الصغير. لكنه لم يفعل، لاحظت أن بانكاردي، فوق السلم، يرفعه وينظفه كل بضعة أيام؛ لذلك تبقى فرضية واحدة فقط: الثقل الموازن.

جفلت أورتنس. أحسَّت ببارقة فكرة تلمع، همست: ثقل موازن! هل تفترض أنه سيكون.. في قاعدة التمثال؟

- لِمَ لا؟

- هل هذا ممكن؟ ولكن، في هذه الحالة، كيف سيعطيك بانكاردي هذا التمثال الصغير؟

أعلن رِنين: لم يمنحني هذا التمثال، هذا التمثال أنا حصلت عليه بنفسي..

- لكن أين؟ ومَتى؟

- الآن. عندما كنتِ في غرفة المعيشة. صعدت فوق هذه النافذة، التي تقع أعلى لافتة المتجر، وبجوار الإله الصغير. وقمت بالتبديل. وهذا يعني أنني أخذت التمثال الذي كان بالخارج فوق اللافتة، ووضعت التمثال الذي أعطاني إياه بانكاردي وليس له أي أهمية.

- لكن الذي منحك إياه بانكاردي ألم يكُن في نحته نفس الخلل؟

- لا، ليس مثل الخلل الموجود في تمثال اللوحة. لكن بانكاردي ليس فنانًا. لا يرى الشرارة، يرى النار فقط. وسيستمر في الاعتقاد بأن الحظ يفضله. لكن، ها هو التمثال الصغير، تمثال اللافتة. هل أكسر قاعدة التمثال وأحصل على الدبوس الخاص بك من القاعدة، وهو الذي يسبب الخلل في توازُن عطارد؟

أجابت أورتِنس بحدة، وبصوت منخفض: لا! لا! لا فائدة من ذلك!

دقة رِنين، وحدسه، والمهارة التي أدار بها هذه القضية برمتها، كانت بالنسبة لها أهم ما في تلك اللحظَة. لكنها اعتقدت فجأة أن المغامرة الثامنة قد انتهت، وأن المغامرة قد حُسِمت لصالحها، وأن الموعد النهائي المحدد لآخر هذه المغامرات لم يتحدد بعد.

وكان رِنين قاسيًا كفاية ليقول: إنها الثامنة إلا ربع.

ساد صمت ثقيل بينهما. كلاهما أصابه إحراج دفعهما للتردد من محاولة كسر هذا الصمت. قال رِنين مازحًا: يا له من شجاع هذا السيد بانكاردي! خير ما فعل منحي هذا التمثال! كنت أعرف أن إغضَابه سينتهي به إلى تصرُّف يمنحني الإشارة التي أفتقدها. تمامًا مثل أن تضع قداحة في يد شخص ما وتأمره باستخدامها. في نهاية المحاولات ستحدث شرارة. كانت الشرارة في داخلي. أما ما صدر عنه فقد كان نتيجة العلاقة اللاواعية، ولكن الحتمية، التي صنعها بين التمثال، عطارد، إله الحظ، ودبوس العقيق، جالب الحظ. كان ذلك كافيًا. فهمت أن هذا الارتباط بين الأفكار جاء من حقيقة أنه، في الواقع، ربط الفرصتين وقرر دمجهما. لأكون أوضح: قرر إخفاء الجوهرة في كتلة التمثال ذاته. وعلى الفور تذكرت عطارد الموضوع في الخارج والتوازن..

توقف رِنين فجأة. بدا له أن كل كلماته سقطت في الفراغ. ضغطت الشابة جبهتها بيدها، حجبت عنه عينيها، وبقيت بلا حراك، بعيدة. في الحقيقة، لم تستمع لكلماته. نتيجة هذه المغامرة بالذات والطريقة التي تصرَّف بها رِنين في هذه المناسبة لا تهمها. ما فكرت فيه هو كل المغامرات التي مرت بها لمدة

ثلاثة أشهر، والسلوك المذهل للرجل الذي قدّم لها تفانيه. رأت، كما لو كانت على بساط سحري، الأعمال الرائعة التي قام بها، وكل الخير الذي فعله، والأرواح التي أنقذها، والآلام التي منعها، والجرائم التي عاقب مرتكبيها، واستعادة النظام أينما كان كسيده. لم يكُن هناك شيء مستحيل بالنسبة له. ما تعهَّد به، نفذه. تم تحقيق كل هدف من الأهداف التي سار نحوها مقدمًا. وكل هذا دون تباهٍ مفرط، بهدوء مَن يعرف قوته، ويعرف أن لا شيء سيقاومه.

ماذا يمكن أن تفعل أمامه؟ لماذا تدافع عن نفسها؟ وكيف؟ إذا طلب منها الاستسلام له، ألن يكون قادرًا على إجبارها على القيام بذلك؟ وهل ستكون هذه المغامرة العليا أكثر صعوبة بالنسبة له من الآخرين؟ على افتراض أنها ستهرب، هل ثمة مكان في هذا الكون الهائل حيث ستكون في مأمن من مطاردته؟ من اللحظة الأولى، كانت النتيجة مؤكدة؛ لأن رِنين أصدر مرسومًا بالنتيجة مسبقًا.

ومع ذلك، لم تستسلم. أخذت تفكر في وسيلة لتحمي نفسها. إذا كان قد استوفى الشروط الثمانية، وإذا كان قد أعاد إليها دبوس العقيق قبل أن تدق الساعة الثامنة من هذا اليوم، فهي محمية بحقيقة أن الساعة الثامنة ستدق في قلعة آلينجري، وليس في أي مكان آخر. كان الاتفاق واضحًا. قال رِنين في ذلك اليوم، وهو ينظر إلى الشفاه التي يشتهيها: سيستأنف البندول النحاسي القديم حركته، وعندما يدق دقات ثمانٍ في التاريخ المحدد..

رفعت رأسها. لم يتحرك، مثابرًا، ومسالمًا في انتظاره.

كانت على وشك أن تتكلم. بل أعدت جملتها: «أنت تعرف.. اتفاقنا هو أن تدق ساعة آلينجري. جميع شروطي مستوفاة. لكن ليس هذا. إذن أنا حرة، أليس كذلك؟ لديَّ الحق في عدم الوفاء بوعد لم أقطعه.. أنا حرة.. بضمير مرتاح؟».

لم يكُن لديها وقت للتحدث. في تلك اللحظة بالضبط، خلفها، حدث صوت، مثل ساعة ستدق. دقة، ثم الثانية، ثم الثالثة.

أفلتت منها آهة. تعرف صوت تلك الساعة. إنها ساعة آلينجري القديمة، التي قبل ثلاثة أشهر، كسرت صمت القلعة المهجورة بشكل خارق للطبيعة، وألقت بهما على طريق المغامرة.

عدت الدقات. وصلت الساعة للدقة الثامنة.

همست لنفسها: آه! فشلت كُل الخطط. أخفَت وجهها بين يديها. الساعة.. الساعة الموجودة هنا.. هي الساعة القديمة.. أتعرَّف صوتها..

لم تبادر بالحديث. خمنت أن عين رِنين ترمقها، وانهارت أمام هذه النظرة. كان من الممكن أن تستعيدها لو كانت أكثر شجاعة، لكنها لم تسعَ إلى معارضته بأدنى مقاومة، ولهذا السبب لم ترغب في المقاومة. انتهت جميع المغامرات، ولكن لا يزال هناك مغامرة واحدة، والتي محا انتظارها ذكرى كل المغامرات الأخرى.

إنها مغامرة الحب الأكثر متعة. الأكثر عذوبة. الأكثر متاعب. والأكثر روعة من كل المغامرات. قبلت تدابير القدر. صارت سعيدة بكل ما يمكن أن يحدث؛ لأنها أحبت. ابتسمت، رغمًا عنها، معتقدة

أن الفرح سيعود إلى حياتها في اللحظة التي أعاد فيها حبيبها دبوس الحظ.

مرة ثانية، دقت الساعة.

نظرت أورتنس إلى رنين. قاومت بضع ثوانٍ أخرى. لكنها كانت، مثل طائر مفتون، غير قادرة على التمرد. وعند الدقة الثامنة، استسلمت، ومدت شفتيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات..

عن الرواية..

مقدمة..

الفصل الأول

على قمة البرج

الفصل الثاني

إبريق الماء

الفصل الثالث

تبريز وچيرمن

الفصل الرابع

الفيلم الكاشف

الفصل الخامس

قضية چان لويس

الفصل السادس

السيدة ذات الفأس

الفصل السابع

خُطى على الثلج

الفصل الثامن

الإله عُطارد ()

Notes

[←1]

(1) ملحوظة المترجمة: Les trois-mathiledes.

(2) ملحوظة المترجمة: فصيلة كلاب. [←2]

(3) ملحوظة المترجمة: حجر كريم يشبه الزبرجد. [←3]

[←4]

(4) ملحوظة المترجمة: واحد من الآلهة الاثني عشر في العقيدة الرومانية القديمة.